

أهل الكهف
في التوراة والإنجيل والقرآن
دكتور. أحمد علي المجدوب
صالح وحيد
الدار المصرية اللبنانية


أهل الكهف

الناشـــر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٨٢٤٣ / ١٩٨٩
الترقيم الدولى : 14 - 1830 - 977
طبـع وجمع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ .
الطبعة الثانية : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م
الطبعة الثالثة : رجب ١٤١٩ هـــ أكتوبر ١٩٩٨
تصميم الغلاف : **صالح وحيد**



في التوراة والإنجيل والقرآن

دكتور أحمد على المجدوب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾

صدق الله العظيم


مقدمة

مقدمـــة

يرجع عهدى بقصة أهل الكهف إلى الأيام المتأخرة من طفولتى، عندما كنت أستمع إلى القارىء وهو يتلو سورة الكهف قبل صلاة الجمعة، ثم لم ألبث أن قرأتها عندما بلغت مرحلة الصبا، وذلك فى كتاب قديم عن قصص القرآن عثرت عليه فى مكتبة أبى رحمه الله، فلما تقدمت بى السن ونما لدىَّ الميل إلى القراءة وقرأت المصحف الشريف، ثم ما استلزمته قراءته من الاطلاع على كتب التفسير، قرأت ما ورد فيها بشأن أصحاب الكهف. وفى مرحلة الرجولة، ومع اتساع نطاق قراءاتى، اطلعت على ما ورد بشأن قصة «النيام السبعة» فى بعض الكتب الأجنبية، وقرأت ما ذكره واضعو هذه الكتب من أنه يوجد شبه كبير وكثير بين هذه القصة الأخيرة وبين قصة أصحاب الكهف، جعلهم يزعمون أن هذه منقولة من تلك، واستلفت الأمر انتباهى وأثار فضولى، ثم ازداد اهتمامى بالموضوع فى السنوات الأخيرة، وبالذات بعد أن شاهدت عملين دراميين قدمهما «التلفاز» المصرى يدوران حول قصة الكهف، أحدهما قدم فى صورة مسلسلة استغرق عرضها ما يزيد على الأسبوع وتحمل اسم «أهل الكهف» أما العمل الثانى فقد قدم فى إطار قصة «محمد رسول الله والذين معه» التى قدمها «التلفاز» المصرى أيضاً وأذيعت فى كثير من الدول العربية والإسلامية على مدى ثلاث سنوات وبمناسبة شهر رمضان، والواقع أن هذين العملين كانا بمثابة الحافز الذى دفعنى إلى القيام بهذه الدراسة، بعد ما تبين من الأثر المباشر والواضح لهذا الجهاز الخطير «التلفاز» فى الترويج للأفكار، بغض النظر عن صلاحها أو فسادها، صدقها أو كذبها.

وعلى الرغم من أن قصة «محمد رسول الله والذين معه» التى قدمها

«التلفاز» مأخوذة، كما كان قد ذكر فى المقدمة التى تسبق عرض الحلقات، عن الكتاب الذى يحمل نفس الاسم، والذى وضعه المرحوم عبدالحميد جودة السحار، وهو أديب وباحث إسلامى، فإن هناك أخطاء كثيرة وردت فى سياق القصة لم يُفْطَنْ إليها، ولعل هذا يرجع إلى أنها من الأخطاء الشائعة التى أصبحت لكثرة ترديدها وتكرار ذكرها كأنها من الحقائق الثابتة.

ويهمنى أن أشير إلى أنه بالرجوع إلى كتاب «محمد رسول الله والذين معه» لمعرفة ما كتبه الأستاذ السحار، لم أجد فيه شيئاً يتعلق بأصحاب الكهف إلا الرواية الخاصة بإيفاد قريش لرجلين منها إلى يثرب لسؤال اليهود بشأن محمد ﷺ، وكيفية التحقق من صدق نبوته، فحرضهم اليهود على توجيه ثلاثة أسئلة إليه، من بينها السؤال الخاص «بالفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول» أى أصحاب الكهف. وخلا الكتاب تماماً من أى إشارة –ولو من بعيد– إلى الأحداث التى اشتملت عليها الحلقات التى أذاعها «التلفاز» منسوبة إلى المرحوم الأستاذ السحار. والغالب على الظن أن يكون واضع «سيناريو» وحوار الحلقات قد استعان بما ورد بشأن أصحاب الكهف فى كتب أخرى، وهى كثيرة، تعتمد جميعها القصة المسيحية المسماة بـ«نُوَّام أفسوس السبعة» وهو وإن كان قد بذل جهداً ملحوظاً للتوفيق بين هذه القصة والقصة القرآنية، إلا أن إعمال النظر فيما اشتملت عليه الحلقات من أحداث وما ورد بها من أسماء، سواء كانت أسماء أشخاص أم أسماء أماكن، من شأنه أنه يكشف عما فيها من تناقض مع ما ورد فى القصة القرآنية من بيانات وصور وأحداث، مما يترتب عليه بلبلة أفكار المسلمين وتشكيكهم فيما ورد فى القرآن الكريم بشأن حادثة أهل الكهف، لذلك آليت على نفسى أن أقوم بدراسة هذه القصة دراسة علمية، بقصد الوصول إلى الحقيقة، وكشف الغموض الذى أحاط بأصل هذه القصة التى تعددت بشأنها الأقوال وتضاربت الآراء.

وعلى الرغم من وفرة المصادر وكثرة المعلومات، وهو ما يعد عاملاً مشجعاً لأى باحث على إجراء ما يرغب فى إجرائه من دراسات، فإننى مالبثت أن ترددت، واعترانى القلق عندما ظننت للوهلة الأولى أننى سأكون مضطرًا إلى تفسير القرآن الكريم، وهو ما اشترط السلف –رضوان الله عليهم– فيمن يقوم به أن يكون

مستوفياً لكثير من الشروط التى لا يتوفر لدىّ بعضها، بل والتى لا تتوفر فى وقتنا الراهن إلا لدى عدد قليل جدًّا من العلماء، وهى شروط مختلفة، منها ما يتعلق بصفات شخصية فى المفسر: كالورع، والصدق، والأمانة، وكلها مما لا يعلمه إلا الله وحده. ومنها ما يتعلق بأنواع العلوم التى يجب على المفسر أن يكون جامعاً لها، وهى خمسة عشر علماً ذكروها على سبيل الحصر وهى: علم اللغة، والنحو والصرف والاشتقاق، وعلم المعانى والبيان والبديع، وعلم القراءات، وعلوم أصول الفقه، وأصول الدين، وأسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم الأحاديث والسنن، وعلم الموهبة.

وعلى الرغم من أننى قرأت كثيراً فى هذه العلوم فإننى لا أستطيع أن أزعم أن ما قرأته يؤهلنى للقيام بالتفسير ولتحمل مسئوليته، وهى لو تعلمون عظيمة، وليس أدل على عظمها من أن بعض كبار الصحابة والتابعين كانوا يشعرون بحرج شديد من القول فى تفسير القرآن الكريم، على الرغم مما حباهم به الله تعالى من علم غزير وعقل مستنير.

ذلك لأن المفسر للقرآن إنما يفسر كلام الله تعالى، فهو إن قصَّرَ فى عمله أو تساهل فيه اعتبر ذلك منه كذباً وافتراء على الله من ناحية، وتضليلاً للمسلمين من ناحية أخرى، يتحمل وزره إلى يوم الدين، وقد جاء عَلَىَّ وقت فكرت فيه أن أدع هذا الموضوع وأشغل نفسى بغيره، ولكن عز عَلَىَّ أن أقف صامتاً فى حين أن أعداء الإسلام يوجهون إلى النبى الأمين ﷺ تهمة النقل عن الأساطير المسيحية واليهودية، كما عز عَلَىَّ ما جمعته من مادة استغرقت وقتاً طويلاً واستنفدت جهداً عظيماً. ومضيت أفكر فى حل لهذه المشكلة حتى هدانى الله إليه، فوجدته فى كتب التفسير، فهى تشتمل على آراء المفسرين من مختلف التخصصات والاتجاهات والمذاهب وفى مختلف العصور. وما عَلَىَّ إلا أن أتعرف على ما قالوه من الآيات التى يحتاج تفسيرها إلى الإحاطة بعلوم اللغة والفقه والقراءات والأحاديث وغيرها مما سبق أن ذكرته، وأنتقى منها ما أراه متفقاً مع نتائج التحقيق التاريخى للأحداث والوقائع التى تضمنتها القصة.

غير أنه بقدر ما بدا لى هذا الحل سهلاً للوهلة الأولى، بقدر ما كان وضعه موضع التنفيذ صعباً، إلى الحد الذى جعلنى أفكر من جديد فى صرف النظر عن

الموضوع ؛ ذلك لأن كتب التفسير المتداولة يعيب أغلبها اختصار الأسانيد ونقل الأقوال دون ذكر قائلها ، وهو ما أدى إلى غلبة الدخيل والتباس الصحيح بالعليل . ويعيبها أيضاً غلبة التخصص العلمي للمفسر على منهجه في التفسير. فمن كان نحوياً كالزجاج نجده يملأ تفسيره بالإعراب ، وذكر ما تحتمله الآيات من أوجه ، فضلاً عما قام به مِنْ جَعْل التفسير ميداناً لعرض المسائل المتعلقة بقواعد النحو ، ومناقشة الخلافات ، وترجيح بعض وجهات النظر على البعض الآخر. ومن كان فقيهاً مثل الإمام القرطبي ، فإنه يحشد في تفسيره كل مسائل الفقه تقريباً . وغالباً ما يلجأ إلى عرض الأدلة ومناقشة أساس الخلاف ومداه (١) ، وكلها أمور ليس لها علاقة بالآيات التي يفسرها . في حين نجد المفسرين الذين يسمون بالإخباريين قد جعلوا جل همهم أن يملئوا تفاسيرهم بالقصص الغريبة والحكايات العجيبة عمَّن مضى من الأمم والأنبياء والملوك والحكام ، وأفاضوا في ذكر ما يتعلق بالملاحم ، وتكلموا عن خلق الكون ، وأحوال الآخرة بدون أن يجشموا أنفسهم عناء التحقق مما إذا كانت هذه القصص والحكايات صحيحة أو باطلة ، أو يهتموا بالبحث عن الرواة وكونهم ثقات أو غير ثقات ، فجاءت تفاسيرهم وكأنها تجميع لكل المرويات من الإسرائيليات والأباطيل والروايات المكذوبة الموضوعة ، وذلك كما في تفسير الثعالبي .

وقد أتاح لي ذلك أن أعرف موطن الداء ومكان العلة ، فالرسول ﷺ ، والإسلام بريئان من تهمة النقل عن الأساطير والخرافات الإسرائيلية والمسيحية ، وإنما الذي نقل هم المفسرون ، الذين بدا واضحاً أنه لم يتوخوا الحرص أو يلتزموا الحذر وهم ينقلون ما وصل إليهم بطريقة أو بأخرى من خرافات بني إسرائيل وأباطيل المسيحيين .

هذا الذي عرفته جعلني أقرر المضي في إجراء الدراسة ، مع إضافة فصل خاص أفرده لبحث كيفية انتقال هذا القصص الدخيل على كتب التفسير وبيان ما في هذه الكتب من تفاوت فيما أخذت من هذا القصص ، ومنهج أصحابها في عرضه ، وغير ذلك مما يفيد القارىء **المسلم الذي يقرأ هذه الكتب .**

كذلك دفعني إلى المضي في هذه الدراسة ما لمسته من احتكار النحويين

(١) الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص ٣٥ .

والفقهاء والإخباريين وغيرهم لعملية التفسير التى تحتاج إلى جهود غيرهم من العلماء من شتى التخصصات كعلماء التاريخ والجغرافيا والانثروبولوجيا (وهو العلم الذى يبحث فى أصل الجنس البشرى وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته) وعلم الاجتماع والنفس والاقتصاد والقانون والديانات المقارنة، بل وعلم الجريمة والعقوبة أيضاً؛ لأن القرآن الكريم فيه من الآيات ما يحتاج تفسيره إلى كل هذه العلوم، وإلى غيرها من العلوم الطبيعية: كالفيزياء والكيمياء وعلم الوراثة والفلك، وهو مايستحيل توافره فى عالم واحد مهما بلغ من العلم والعبقرية.

كذلك فإن ماكشفت عنه الحفريات التى يجريها علماء الآثار، ومايعثر عليه مصادفة من وثائق، كما حدث بالنسبة لوثائق البحر الميت عند خربة قمران، يفرض علينا إعادة النظر فيما ورد بكتب التفسير من آراء وأفكار حتي يمكن تصحيحها أو استبعادها إذاتبين أنه ليست هناك ضرورة تقتضى الإبقاء عليها، ولذلك فإن أى محاولة تهدف إلى كتابة تفسير جديد للقرآن الكريم يجب أن يعهد بها إلى لجنة أو لجان تضم علماء من مختلف التخصصات العلمية، تتضافر جهودهم من أجل وضع تفسير متكامل، بحيث يكون الاهتمام بالنواحى اللغوية والفقهية مساوياً للاهتمام بالنواحى التاريخية والاجتماعية والقانونية والطبيعية وغيرها. وهذا مايمكن القارىء أن يدركه إذا هو أمعن النظر فى آيات سورة الكهف، وبالذات ما يخص منها أصحاب الكهف، وسوف يجد فيها أموراً هى من صميم علم الفلك، وأخرى من صميم علم التاريخ، وثالثة من صميم علم الاجتماع، وهكذا.

ومما لاشك فيه أن مثل هذه الدراسة ليست سهلة ولاهينة كما قد يتصور البعض، بل هى من الأمور البالغة الصعوبة، نظراً للطبيعة المتميزة لموضوعها، وهو «المعجزة» التى هى بطبيعتها لاتقبل التعامل معها بأسلوب أو منهج «التحقيق التاريخى» لأنها ليست من الأمور التى تخضع للعقل أو المنطق، أو التى تنطبق عليها القوانين العلمية، وإنما تعتمد فى قبولها على مالدى الإنسان من إيمان بالله وبقدرته المطلقة.

د. أحمد على المجدوب

القاهرة أول صفر ١٤١٠ هـ

أول سبتمبر عام ١٩٨٩م



تمهيـــــد

إن قصة أصحاب الكهف ، كما وردت فى القرآن الكريم ، تعد بحق مثالاً للقصة الكاملة ، على الرغم من إيجازها الشديد ، وما اتسمت به من اتجاه نحو التجريد ، وبخاصة فيما يتعلق بالتفاصيل والتواريخ وأسماء الأشخاص والأماكن . يقابل هذا تركيز واضح على الدوافع والبواعث والمشاعر الإنسانية ، وأحوال البيئة الاجتماعية ، سواء على المستوى العام أو الخاص .

وإذا كانت هذه القصة قد وردت فى القرآن الكريم فيما لا يزيد على ثمانى عشرة آية (من الآية التاسعة إلى الآية السادسة والعشرين) وبلغ عدد كلماتها ٣٢٨ كلمة تقريباً ، فإنها على الرغم من ذلك تُعَدُّ من القصص الطويل ؛ إذ العبرة فى تقدير القصص من حيث الطول أو القصر ليست بعدد الكلمات أو مقدار الصفحات التى تتكون منها القصة . كذلك ليست العبرة بتنوع الأحداث ، سواء منها الأساسى أو الفرعى أو كثرة عدد الأشخاص أو تعدد الملابسات أو المفاجآت ، أو ما يسمى فى الاصطلاح الفنى «عقدة القصة» وإنما العبرة بمدلولات الكلمات ومعانى العبارات . فعلى الرغم من أن عدد كلمات القصة لا يزيد — إن لم يكن يقل — عن عدد كلمات الخطاب العادى الذى يكتبه الناس بعضهم لبعض ، فإن هناك فرقاً واضحاً يميز قصة أهل الكهف والقصص القرآنى عموماً على غيره من القصص ، ألا وهو أنَّ كتّاب القصة قد يسرفون فى استخدام الكلمات وصياغة العبارات التى يظنون أنها تساعد فى إبراز الفكرة أو توضيح المقصود من القصة أو الموقف وما يتكلفونه وهم يسودون الصفحات الطوال ، ومع ذلك فإنهم كثيراً ما يخفقون . فإن القرآن الكريم ، مع اقتصاده الملحوظ فى

استخدام الكلمات يصل إلى هذه الغاية بأقل عدد ممكن منها . وهذا هو أحد أوجه إعجازه ، فالكلمات القليلة ـ وأحياناً الكلمة الواحدة ـ تتضمن من المعانى والأخيلة والإيحاءات ما يزيد كثيراً على ما تتضمنه صفحات كثيرة وعبارات عديدة يزدحم بها القصص العادى .

ومما لا شك فيه أن قصة أصحاب الكهف مثلها مثل غيرها من قصص القرآن هى وجه من وجوه إعجازه ، وذلك من حيث إخبارها بأمور حدثت فى الماضى البعيد ولم يكن للرسول ﷺ علم بها ، **فى حين كان ما لدى أهل الكتاب** من يهود ومسيحيين من علم بها مشوهاً وزائفاً بعد ما أقحموه على التوراة والإنجيل من أمور ليست منها. فجاء القرآن الكريم بالقصص على وجهه الصحيح ليفحمهم ويفضح كذبهم . غير أن إيراد القصة على النحو الذى وردت به فى القرآن يدخل فى الإعجاز البلاغى . فمن أوجه إعجازه أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر(٢) .

وقصة كقصة أهل الكهف يمكن-على الرغم من قلة عدد كلماتها-أن تستغرق من فكر الإنسان وتشغل من وقته حيزاً كبيراً لا يمكن تحديده بدقة ، نظراً للتباين الشديد بين الناس من حيث سعة الفكر، والقدرة على التخيل ، وامتلاك موهبة التحليل والتفسير، وغير هذا وذاك مما يتمايز فيه الناس بعضهم عن بعض . وها هو واحد ممن قرءوها (٣) يقول : «إن قارىء قصة أصحاب الكهف يرى على صفحة مخيلته نفس الأمكنة التى دارت فيها حوادثها ، ودور الشمس فى غروبها وشروقها على الكهف ، ومنظر الكلب الرابض،وما إلى ذلك من تفصيلات كل مشهد من مشاهد القصة ،كأنه يرى شريطاً سينمائياً ناطقاً بكل مقومات الشريط السينمائى الذى استوفى كل أركان النجاح الفنى من رسم شخصيات القصة وطريقة حركاتها ، بل والأبعاد المختلفة للقطاتها المتباينة ، وما إلى ذلك من عناصر الفيلم السينمائى الناجح .. وقد كنت طوال قراءتى للقرآن الكريم ـ تلك القراءة التى استغرقت وما زالت تستغرق جزءاً كبيراً من وقتى ـ أرى وقائعها أمام عينى وكأنها شريط سينمائى .

---

(١) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) الإعجاز البيانى للقرآن ، صفحة ١٩٨ .

(٢) محمد كامل حسن المحامى ، القرآن والقصة الحديثة ، صفحة ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٦ .

والحقيقة التى لامراء فيها أن هذه القصة الرائعة ليست مجرد حكاية أو (حدوته) كما هو حال القصص العادى، وإنما هى-فضلاً عمّا فيها من حكم واضحة وموعظة جلية-تعد أيضاً رياضة ذهنية، ولانعنى بذلك أنها كالأحاجى أو الألغاز والفوازير التى يجهد الناس أنفسهم فى حلها، وإنما هى أرفع من ذلك وأرقى؛ لأنها لاتقوم على استخدام الألاعيب اللغوية من تورية وجناس وغيرها، وإنما تقوم على ماهو أعمق من ذلك وأكثر جدية، ألا وهو سبر غور الكلمات للتعرف على معانيها، واستكناه دلالاتها، ثم إيجاد الرابطة الخفية التى تربط بين بعض الكلمات أو العبارات والبعض الآخر، واستكمال بعض تفاصيل إحدى الصور بما توحى به الكلمات فى هذا الجزء أو ذاك من أجزاء القصة.

وفضلاً عن أن قصة أهل الكهف أتت مستوفية لما يسميه النقاد والأدباء فى العصر الحديث «شروط القصة أو مواصفاتها» فإنها جاءت بأسلوب جديد فى سرد القصص، هو ذكر ملخص كامل للقصة يليه بيان التفاصيل الهامة. وهو أسلوب يتسم بالصعوبة ويحتاج إلى مهارة فائقة فى استخدامه؛لأنه قد يؤدى إلى إفقاد القصة ذاتها لعنصر التشويق الذى يعد عاملاً أساسياً فى نجاح القصة واستحواذها على الاهتمام، وكان القرآن الكريم أول من عرف هذا الأسلوب، ثم أصبح بعض كتاب القصص يستخدمونه، ولكن على نطاق ضيق جدًّا يرجع إلى خوفهم من إفقاد القصة عنصر التشويق.

وبالإضافة إلى كل ذلك فقد لاحظت من قراءتى لآيات أصحاب الكهف أن معجزتهم تختلف عن غيرها من المعجزات التى اشتملت عليها بعض سور القرآن، وبخاصة من حيث قابليتها للخضوع للتحقيق التاريخى، فقد تضمنت القصة الكثير من الملابسات والظروف المختلفة التى أحاطت بحدوثها، والأوصاف الدقيقة لأحوال الفتية قبل النوم وأثناءه، وبعد اليقظة، وذلك على الرغم من إيجازها الشديد كما سبق أن أوضحنا،غير أن كلماتها تتضمن من المعانى وتحتوى من الدلالات ما تعجز الصفحات الطوال عن تصويره وتجسيمه. وهى وإن كانت مرتبطة بالمعجزة فإنها وقائع يمكن إخضاعها للتحقيق التاريخى وربطها بمكان وزمان معينين، مثال ذلك ذكر الفتية لرجم قومهم لهم إذا عثروا عليهم، فالرجم كعقوبة كانت توقع على مَنْ يخرج على دين الجماعة، وكان مطبقاً فى مجتمع بعينه من المجتمعات التى

كانت قائمة وقت أن حدثت وقائع أصحاب الكهف. كذلك ماذكره الفتية عن رفضهم أن يدعوا إلهاً آخر من دون الله، ثم ذكرهم لما يعبده قومهم من آلهة أخرى مع الله، الذى استثنوه فى رفضهم عبادة مايعبده قومهم، يدل على وجود دينين يتصارعان فى المكان والزمان، أحدهما يُعْبَدُ فيه الله على غير حقيقته، والآخر يُعْبَدُ فيه الله مع غيره، فتى كان ذلك؟ وأين كان؟

وغير هذا وذاك هناك الكثير مما تضمنته قصة أصحاب الكهف الذى يقبل التعامل معه بمنهج «التحقيق التاريخى».

وأخيراً فإن قصة النيام السبعة التى زعموا أنها أصل قصة أصحاب الكهف، على الرغم مما فيها من إسهاب وإفاضة فى ذكر التفاصيل، لاتكاد تصمد أمام التحقيق التاريخى والنقد العلمى، فسرعان مايظهر تناقضها الداخلى، ومافيها من افتعال، وماتتضمنه من زيف وتزوير، وكأن الذين زوروها ظنوا أن مافيها من حديث عن إعجاز الله يكفى وحده لصرف الأنظار عما تتضمنه من أكاذيب وخرافات، وفاتهم أن الله سبحانه وتعالى لايطلب من الإنسان أن يلغى عقله نهائيًّا، أو أن يطرح منطقه تماماً إزاء قدرته سبحانه، فالمعجزة باعتبارها خروجاً على المألوف، وتعطيلاً للقوانين بالنسبة لأمر ما كالحياة والموت، فإنها تحدث فى إطار من الزمان والمكان، والعادات والأفكار، ولاتخرج بدورها على حكم المنطق أو العقل ولاتتعطل بسببها القوانين، بل لعل هذا هو جوهر المعجزة، أن يتوقف عمل القانون بالنسبة لأمر ما، فى حين يستمر عمل غيره من القوانين، وهو مابينته لنا سورة الكهف بالنسبة للفتية، فهم نائمون نوماً طويلاً لايأكلون ولايشربون، حالهم حال النيام، ولكنهم يتقلبون ويتنفسون فى كهف مفتوح، ويدخل إليهم الهواء وضوء الشمس دون أشعتها لينقى لهم جو المكان، وكل هذه قوانين تحكم حركتهم وسكنتهم وأجهزتهم وغير ذلك.

ولكن الأسطورة المسيحية نسيت كل هذا، وظن واضعوها أن المعجزة تعنى توقف كل القوانين بالنسبة لمن كانوا موضوعاً لها، وفاتهم إدراك أن معجزة النوم لمدة طويلة تختلف عن معجزة الموت ثم البعث فخلطوا بين الأمرين، بل وخلطوا بين أمور كثيرة لم يفطنوا إليها، وهو ماأراده الله سبحانه وتعالى لكى يكشف كذبهم وافتراءهم.

وسوف يتبين للقارىء ، بعد أن ينتهى من قراءة هذا الكتاب أن الرسول ﷺ لم ينقل هذه القصة عن المسيحيين ، وإنما المسيحيون هم الذين سمعوا بالقصة الحقيقية بعد حدوثها ثم زوروها وأقحموها على تراثهم الدينى لأغراض مشبوهة ، ولذلك فقد تحداهم الله تعالى فى سورة الكهف أن يكونوا هم أو اليهود قد أحصوا مدة لبث الفتية فى الكهف .



الفصل الأول

الإسـرائيليات والنصرانيات..
وكيف تسللت إلى قصص القرآن؟



الإسرائيليات والنصرانيات.. وكيف تسللت إلى قصص القرآن

جعل الله سبحانه وتعالى القصة أسلوباً من بين أساليب كثيرة أخذ بها القرآن الكريم لبلوغ الأغراض التى نزل من أجلها على الرسول ﷺ، ومن هذه الأساليب وصف الحالة النفسية، وتجسيم المشاهد والمواقف بما يبعث فيها الحياة، وتصوير الحوادث، وغير ذلك من الأمور التى لا تقع فى إطار سياق خاص. من ذلك وصف الجنة وحال أهلها، ووصف النار وحال أهلها، ووصف الحالة النفسية للمؤمنين والكفار بمنأى عن المواقف المترابطة أو الأحداث المتصلة التى تُكوِّن القصة عادة بمقدمتها وحبكتها ونهايتها، وما تتضمنه من عظة أو عبرة أو توجيه، وما يتخللها من حوار.

وإذا كانت كل هذه الأساليب تهدف إلى غاية واحدة، وهى إبلاغ الدعوة الدينية، فإن القصة باعتبارها أسلوباً من بين الأساليب لا تخرج بدورها عن هذا الهدف المرسوم، مثلها فى ذلك مثل الصـــور التى يرسمها القرآن للقيامة وللنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التى يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التى يفصلها والأمثال التى يضربها.. إلى آخر ما جاء فى القرآن من موضوعات (١).

أهداف القصص القرآنى:

والقصة فى القرآن الكريم تهدف إلى بلوغ غايات دينية أساساً، منها: إثبات الوحى والرسالة، فمن يقرأ القرآن يتساءل: من أين جاء محمد بهذا القصص

(١) سيد قطب، التصوير الفنى فى القرآن، صفحة ١١٧.

الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها ، لأنه لم يكن قارئاً ؟ إنه من عند الله (٢) .

كذلك يثبت القصص القرآنى وحدانية الله ، وتوحيد الأديان فى أساسها ، وإثبات البعث ، والإنذار ، والتبشير ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ، والعجلة والتريث ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية ، والمرامى الخلقية قد تناولته ، وكانت أداة له وسبيلاً إليه (٣) .

ويمكن القول إن هذه الأهداف مجتمعة تعد مظهراً من مظاهر التحدى الذى واجه به الله سبحانه وتعالى الكفار والمشركين بما يتضمنه من بيان لحقائق القرآن والإسلام (٤) .

وتتميز قصص القرآن بالإيجاز الشديد ؛ نظراً لأنها ليست مقصودة لذاتها ، أى أنها تروى كحادثة وقعت ، ومن ثَمَّ ينبغى بيان دقائقها وتفاصيلها ، وأين وقعت وكيف ، ومن الذى اشترك فى أحداثها ، إلى غير ذلك مما يستلزمه الفن القصصى ، وإنما القصة القرآنية تهدف إلى العبرة والتذكير والتعليم والتأويل ؛ ولذلك فإنها لا تعنى بذكر الأشخاص ، ولا الأماكن ولا الزمان الذى وقعت فيه الأحداث ، كما أنها تقتصر على الأحداث الرئيسية بدون الدخول فى التفاصيل ، بل وقد تتجاوز عن بعض الأحداث الرئيسية عمداً ، تاركة لمن يستمع إليها أو يقرؤها الفرصة لإعمال خياله واستخدام فكره لتصور ما حدث ، وغالباً ما تكون هذه الأحداث أو التفاصيل غير هامة لبلوغ الغرض من القصة .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن قصص القرآن هو على سمت القصص العربى الذى عرفه العرب فى جاهليتهم ، والذى هو فى طبيعته صور منتزعة من الواقع ، بعيدة عن الخيال والتهويل والمبالغة (٥) . فالقصص العربى فى الجاهلية يختلف كل الاختلاف عن قصص القرآن ، سواء من حيث الأسلوب والأهداف والمرامى ، أو من حيث بعده عن الخيال وخلوه من المبالغة والتهويل ،

---

(٢) الاستاذ محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى : القرآن ، صفحة ١٧٥ .

(٣) سيد قطب ، المرجع السابق ، صفحة ١١٨ .

(٤) الأستاذ محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، صفحة ٢٠٥ .

(٥) الاستاذ عبدالكريم الخطيب ، القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، صفحة ٣٩ .

فمن يقرؤه يلمس إلى أى مدى أغرق فى الخيال وامتلأ بالمبالغة والتهويل، وهو ما يخلو منه القصص القرآنى.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى بيّن فى كتابه الكريم سبب ورود القصص به:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (٦)

فإن هذا ليس السبب الوحيد، وإلا كان معنى ذلك أن ينتهى الغرض من هذا القصص لكونه قد استنفد بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. ولكن الواقع أن هذا القصص ـ وإن كان الله سبحانه وتعالى قد قصه على الرسول لتثبيت فؤاده ـ فإنه أيضاً موجه إلى المسلمين ليتخذوا مما تضمنه من أحداث وما انتهى إليه من نتائج عظة وعبرة، ففضلاً عن تثبيت الفؤاد المشار إليه فى الآية، فإن للقصص أسباباً أخرى ورد ذكرها فى غير هذا من الآيات، من ذلك قوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (٧)

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٨)

ويقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية (ولكن رحمة من ربك) أى: ما كنت شاهداً لشىء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

أى لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل.

وهكذا تتعدد الأسباب التى ورد قصص القرآن من أجلها، فقد يكون السبب هو التدليل على صحة نبوة الرسول ﷺ، حيث إن أحداث القصة وقعت فى زمن

---

(٦) سورة هود، الآية ١٢٠

(٧) سورة طه، الآية ٩٩.

(٨) سورة القصص، الآية ٤٦.

موغل فى القدم ولم يكن له بها علم ولا لقومه . وقد ينضم إلى هذا السبب سبب آخر، كالرد على سؤال المشركين والكفار عن أحداث معينة بقصد اختبار صدق نبوة الرسول ، وقد يكون السبب هو التدليل على قدرة الله تعالى أو التدليل على رحمته بعباده أو إنعامه عليهم وكفرهم بنعمه أو غير ذلك .

وليس من شك فى أن للقصص القرآنى أهدافاً أخرى ذات طبيعة اجتماعية ؛ لأنه إنما جاء من أجل جماعة المسلمين ، وفى ذلك يقول الدكتور راشد البراوى (٩) : «فقصص القرآن تنطوى على الكثير من المبادىء التى لو طبقناها فى حياتنا اليوم ، لأقامت المجتمع الذى يسوده العدل والأمن والسلام ويرفرف عليه الرخاء» ففى كل قصة من قصص القرآن الكريم نلاحظ هذه الأهداف الاجتماعية ، والسياسية والحربية ، مثال ذلك ما أصدره قائد الفتية إلى أحدهم الذى بعثوا به إلى المدينة من ضرورة توخى الحذر بعدم إشعار أهل المدينة بوجوده بينهم حتى لا يلقوا القبض عليه ويتعرفوا عن طريقه على مكان الكهف ، ومن ثم يقبضون على زملائه ليعيدوهم إلى ملتهم أو ليرجموهم إذا ما هم رفضوا العودة إلى تلك الملة ، وغير هذا من إرشادات تزودنا بها القصة ، من بينها ضرورة لزوم الجماعة والانصياع لرأى الأكبر والأكثر خبرة ودراية وحنكة ، وعدم الاصطدام بقوى الشر إذا كانت تفوقنا قوة وتمتلك أسباب الغلبة ونحن قلة لا حول لنا ولا قوة ، فعلينا فى مثل هذه الحالة أن نلوذ بالله ونلجأ إليه ليحمينا ويرعانا وينصرنا على البغاة الظالمين .

وهكذا نجد أن للقصص القرآنى أهدافاً كثيرة ،وإن كانت تتفاوت فى الأهمية إلا أنها تتضافر فيما بينها فى تحقيق الهدف العام والشامل للقرآن الكريم الذى نزل على الرسول ﷺ لهداية الناس إلى الصراط القويم ، وقد استحوذ هذا القصص القرآنى على اهتمام العرب الذين كان القصص يشيع بينهم فى الجاهلية ، يروونه فى مجالسهم ويتناقلونه جيلاً عن جيل ، مع إدخال بعض الإضافات عليه ، مما يتلاءم مع الظروف الجديدة ، وخاصة ما يتعلق منها بأحوالهم الفكرية .

وكانت موضوعات قصصهم هى الحروب ، وأيامها ، كيوم دَاحس والغبراء ، ويوم الفِجَار ، ويوم كلاب ، ويوم ذى قار، فضلاً عن الموضوعات العاطفية ،

(٩) القصص القرآنى تفسير اجتماعى ، سلسلة القرآن دار الفكر الحديث ، المقدمة ص٣ .

كأخبار العاشقين، والأشعار المنسوبة إليهم، وأخبار الجن، وأخبار السحرة والكهان، وغير ذلك من الموضوعات التى تعبر عن عقلية العرب فى جاهليتهم، وتمثل أدبهم وحياتهم.

فلما سمعوا قصص القرآن بعد المبعث أو قرءوه وجدوه مختلفاً عن قصصهم، فهو يخلو من الأسماء ولا يحدد الأماكن ولا الأشخاص، ويقتصر على الأحداث الرئيسية بدون الدخول فى التفصيلات التى عهدوها فى قصصهم.

وعلى الرغم من إدراكهم للمغزى الذى جاءت القصص من أجله مجردة بهذا الشكل، فإن نفوسهم تاقت إلى معرفة التفاصيل والإلمام بالمعلومات التى تتعلق بأبطال القصص، والأماكن التى وقعت فيها أحداثها، وزمان وقوعها، وغير ذلك، على الرغم من عدم أهميته، خاصة أن القصص يتعلق بأحداث يستحيل معاينتها أو الرجوع إليها، وإنما هو يركز على موضع العبرة وجوهر الموقف، فماذا يهم الناس من أمر ذى القرنين مثلاً أو أصحاب الكهف، أو فرعون موسى، أو زوجة العزيز، أو العبد الصالح، أو غير هؤلاء وأولئك ممن ذكرهم القرآن؟ وما الذى سيفيده الناس إذا عرفوه؟ هل سيرجعون إليهم لسؤالهم مثلاً، أو أن ذكرهم وبيان أحوالهم بالتفصيل من شأنه أن يضفى على القصة تأكيداً يجعلها أكثر قبولاً؟! وهل المسلم الذى آمن بالله بدون أن يراه وصدَّق كلامه الموحى به إلى رسوله بدون أن يرى الوحى، بل وبدون أن يعاصر الرسول أو يسمع عنه، هذا المسلم الذى آمن بالبعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار والملائكة والكتب والرسل بدون أن يرى شيئاً من هذا كله — هل هو بحاجة إلى معرفة اسم فرعون موسى، أو فرعون يوسف، أو أسماء أهل الكهف، أو موقع الكهف، أو زمن دخولهم إليه وانبعاثهم فيه، أو غير ذلك لكى يصدق قصصهم أو يؤمن بصحتها؟

ولكنه الفضول والولع بالمعرفة، وأهم من هذا وذاك الإثارة التى لجأ إليها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى للفت أنظار المسلمين عن العبرة التى فى القصة إلى أمور جانبية لا قيمة لها، متخذين من ذلك سبيلاً لدس الإسرائيليات وتسريبها وفرضها فرضاً على عقول المسلمين بما تتضمنه من أمور تتعارض أشد التعارض مع مبادىء العقيدة.

ويقول ابن خلدون فى المقدمة(١٠): «وقد جمع المتقدمون فى ذلك ـــ يعنى التفسير النقلى ـــ وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والثمين والمنقول والمردود، والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما تغلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شىء مما تتشوف إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنهم كانوا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين من العرب يومئذ أهل بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهود، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاجون إليها، مثل بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك».

فلما شرع الرسول ﷺ يدعو إلى الإسلام وانضم إليه النفر القليل من المؤمنين. كان هؤلاء فى أول الأمر بمنأى عن تأثير أهل الكتاب، حيث لم تكن مكة تضم بين ظهرانيها أحداً منهم له شأن، وبخاصة اليهود الذين كانوا يقيمون فى المدينة وما حولها. فما إن هاجر المسلمون إلى يثرب وبدأ احتكاكهم باليهود حتى بدأ هؤلاء فى بث سمومهم، وشرعوا فى غزو عقول المسلمين والتسلل إلى فكرهم، وكان ذلك ابتداء من السنة الأولى للهجرة(١١).

وقد أدرك الرسول ﷺ خطورة الأمر، فبادر إلى التحذير منه، ونهى المسلمين عن الاستماع إلى اليهود فى المدينة أو الأخذ عنهم: من ذلك نهيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الأخذ عنهم وتحذيره مما فى ذلك من خطر على العقيدة الإسلامية، فعنه ﷺ أنه قال: «يا معشر المسلمين: كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم». وفيما أخرجه الإمام مالك، وابن أبى شيبة والبزار: من حديث جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبى

---

(١٠) صفحة ٢٦٧.

(١١) بنت الشاطىء، الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ص٨٦.

ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى» ورجاله موثقون إلا أن فى مجالد ـ أحد رواته ـ ضعفاً. وأخرج البزار أيضاً، من طريق عبد الله بن ثابت الأنصارى: أن عمر نسخ صحيفة من التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء». وفى سنده جابر الجعفى وهو ضعيف.

ليس ذلك وحسب، بل إن القرآن نفسه حذر المؤمنين من اليهود:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٢)

فهو ينبههم إلى أن ما فى أيدى أهل الكتاب ليس صحيحاً بل هو محرف فيجب عدم الأخذ به؛ لأن ذلك من شأنه أن ينقل التحريف إلى العقيدة الإسلامية. وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۞ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٣)

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤)

وبعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى بدأت المحاولات من جديد من جانب اليهود وبعض النصارى الذين تظاهروا باعتناق الإسلام، وعلى الرغم من أن عمر

(١٢) سورة البقرة، الآية ٧٥.

(١٣) سورة البقرة، الآيتان ٧٨، ٧٩.

(١٤) سورة آل عمران، الآية ٧٨.

ابن الخطاب تصدى لها بحزم عملاً بنصيحة الرسول ﷺ له، فإنَّ هذا النفر لم يكف عن بث سمومه وترويج مزاعمه بقصد تشويه الإسلام وزعزعة عقيدة المسلمين، فقد روى الحافظ أبو يعلى، بسنده عن خالد بن عرفطة قال: «كنت جالساً عند عمر، إذ أتى برجل من عبد القيس، مسكنه السوس، فقال عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بقناة معه، فقال الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟! فقال له عمر: اجلس، فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾(١٥)

فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب «دانيال» قال: مُرْنِى بأمرك أتبعه، قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه، ولا تُقْرِئْه أحداً من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته، أو أقرأته أحداً من الناس لأُنهكنك عقوبة، ثم قال: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم (١٦)، فقال لى رسول الله ﷺ: «ما هذا فى يدك يا عمر؟» قلت: يا رسول الله: كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا برسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس: إنى قد أوتيت جوامع الكلم، وخواتيمه، واختصرنى اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تُهَوَّكُوا، ولا يغرنكم المتهوّكون (١٧). قال عمر: فقمت، فقلت: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً، ثم نزل رسول الله ﷺ.

وقد وجد هذا الفريق من أعداء الإسلام فى قصص القرآن بالذات مرتعاً خصباً لممارسة نشاطهم الهدام، مستغلين ما لدى العرب من ولع بالتاريخ،

---

(١٥) سورة يوسف: ١ — ٣.

(١٦) أديم: جلد

(١٧) أى المتحيرون الشاكون.

وما اعتراهم من رغبة ملحة إلى المعرفة، وما نشأ لديهم من فضول وحب استطلاع. وطالما سمع العرب بما لدى اليهود من تراث يتكون فى معظمه من المقولات الدينية، فلما أسلم نفر من اليهود أخذوا يتحدثون عما فى تراثهم من هذه المقولات، وإذ يَجُبُّ الإسلام ماقبله، لم يسترب عامة المسلمين فيمن أسلموا من اليهود، وألقوا السمع إليهم وهم يتفننون فى سرد حكايات مثيرة وتفصيلات خلابة، تأويلاً للمتشابه، ولما اكتفى القرآن بذكر مجمل عبرته. ولم يتميز فى هذه التأويلات ما هو من المرويات الدينية، عما هو من أسطوريات خرافية شحنت بها العقلية الإسرائيلية فى تيهها القديم وتشردها الطويل (١٨).

ومن أبرز الصحابة والتابعين الذين دخلت الإسرائيليات إلى كتب التفسير والحديث عن طريقهم: كعب الأحبار، والقرظى، ووهب بن منبه، وأخوه عبدالله بن سلام، وتميم الدارى، فقد وضع هؤلاء مئات الأحاديث فى التفسير وأخبار الأمم السالفة وفضائل البلدان والأقطار، وغير ذلك مما شاع عنهم وتناوله الرواة والمحدثون جيلاً عن جيل، وبسند أكثره إلى الرسول ﷺ. ويقول المستشرق جولد تسيهر عنهم «ومن الحق أن اعتناقهم للإسلام قد سما بهم على مظنة الكذب، ورفعهم إلى مرتبة العلم التى لا تثير ارتياباً ــ وكان كعب الأحبار يلقب بملجأ العلماء» (١٩).

وكعب الأحبار هذا قدم من اليمن فى خلافة عمر بن الخطاب، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، ومات بحمص بعد ماملأ الشام وغيرها من البلاد الإسلامية بالإسرائيليات. أما وهب بن منبه فقد كان فارسى الأصل، نشأ فى اليمن، واستوطن بها، فأخذ عن يهود اليمن كما أخذ الكثير عن النصرانية، ولما دخل فى الإسلام روى الأحاديث التى نلقها عنه أبو هريرة وعبدالله بن عمر وابن عباس وغيرهم، ومما قاله أنه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً، كان يردد ما قرأه فيها على مسامع المسلمين أثناء تجوله فى البلاد الإسلامية، وقد توفى سنة ١١١ هجرية.

كذلك كان تميم الدارى من اليمن، ولكنه كان نصرانيًّا، رحلت قبيلته إلى قرية فى فلسطين وقدم على النبى فى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة، وكان

(١٨) بنت الشاطىء: الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ص ٨٧.
(١٩) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٥٠.

من رهبان المسيحية، ورجع إلى الشام بعد مقتل عثمان والتحق بمعاوية وهو صاحب رواية الجساسة التى رواها مسلم فى صحيحه بأسانيد مختلفة، ويعد تميم أول من روى القصص الدينى (٢٠)، وتبعه وهب بن منبه وكعب الأحبار، حيث توسعوا بدرجة ملحوظة فى استخدام المصادر اليهودية الأصل، وخاصة فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، مما جعل الخليفة الثانى يستدعى كعب الأحبار وينهاه عن ذلك: فقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية (٢١) أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: «إذا لم تترك الحديث عن رسول الله ألحقتك بأرض القردة» وقد ظل تميم الدارى يترهب حتى بعد دخوله فى الإسلام حتى قال عنه أبو نعيم: «إنه راهب أهل عصره، وهى نزعة نصرانية ظلت تلازمه. ومما لا شك فيه أن المسلمين قد شعروا بالحرج، ومازالوا يشعرون به، من اتهام هؤلاء الناس، الذين أصبحوا فى عداد الصحابة والتابعين، ويتقون التورط فى القطع بالحكم عليهم أيهم دخل فى الإسلام مؤمناً به، وأيهم ممن تعوذوا بالدخول فيه نفاقاً يكيدون له» (٢٢).

ومما هو جدير بالملاحظة أن وهب بن منبه وكعب الأحبار أو كعب بن مانع هما أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، وقد أخذ عن كعب الأحبار اثنان هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس ــ وهذا يعلل ما فى تفسيره من إسرائيليات ــ وأبو هريرة. ولم يؤثر عن كعب أنه ألف كما أثر عن وهب بن منبه، ولكن كل تعاليمه ــ على ما وصل إلينا ــ كانت شفوية (٢٣).

وقد استرعى نظر أحمد أمين أمر على جانب كبير من الأهمية، وهو أن: «أكثر من ذكرنا من منابع القصص كتميم الدارى، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار من أهل الكتاب من اليمن، فما السر فى ذلك؟ ولِمَ كان ما يروى عن يهود اليمن فى هذا النوع أكثر مما يروى عن يهود الحجاز؟ لعل السبب أن اليمن كانوا أكثر حضارة كما علمت، وقد استتبع هذا وجود مدارس يهودية أرقى مما كان ليهود الحجاز ــ وهذه المدارس اليمنية ثابتة تاريخيًّا، فكان من نتيجة ذلك انتشار الثقافة اليهودية فى اليمن، بما فيها من شروح للتوراة وأساطير ونحو ذلك، على نمط أوسع مما

---

(٢٠) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر ص ٥٩ طبعة الشعب.

(٢١) الجزء الثامن ص ١٠٦.

(٢٢) عائشة عبد الرحمن المرجع السابق ص ٨٩.

(٢٣) فجر الإسلام ١٦١.

كان ليهود الحجاز، فلما دخل يهود اليمن الإسلام رووا ما تعلموا، فكان لهم أكبر الأثر (٢٤).

التفرقة بين التفسير والقصص:

لما شاع القصص وانتشر، ومعظمه من التراث اليهودى والقليل منه من التراث المسيحى، وأصبح المسلمون يرددونه فى مجالسهم ومجتمعاتهم ــ ساوَرَ القلقُ قادةَ الرأى المسلمين، وخشوا من أن ينظر إليها العامة على أنها تفسير للقرآن الكريم الذى كانوا يتحرجون من تفسيره، بل إن بعضهم كان يرفض ذلك بشدة ويستنكره، حتى ولو كان الأمر يتعلق بما أمسك القرآن عن ذكره فى خبر القرون الماضية والغيبيات، وهى التى أسرف أهل الكتاب من يهود ونصارى فى الخوض فيها فى كتبهم، إلا أن شيوع قصصهم الدينى فى أوساط المسلمين ــ نظراً لما يتضمنه من أحداث مشوقة ومواقف مثيرة ومعلومات غريبة وأخبار عجيبة، وكلها مما يجذب الأسماع إليه بما يثيره لدى أصحابها من فضول وحب استطلاع ــ جعل قادة الرأى يبادرون إلى وضع تفرقة بين ما يُعد تفسيراً وما لا يعد كذلك، واعتبروا القصص خارجاً عن التفسير، وميزوا فى التفسير بين ما كان منه متعلقاً بالقرآن فرفضوه، وما كان منه متعلقاً بالسنة النبوية فقبلوه وأقروه. وهكذا نظروا إلى الإضافات التى أضافها أهل الكتاب من يهود ونصارى باعتبارها من القصص الدينى لا من التفسير، وساد الاعتقاد لدى صحابة الرسول ﷺ بأن الاستماع إلى تأويلات أهل الكتاب وإلى قصصهم الدينى لا ضرر فيه طالما لم تكن بمعنى التفسير. وفسر البعض نهى الرسول لأصحابه عن سؤال أهل الكتاب على أن المقصود به سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص، ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، وأنه لا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة (٢٥).

ولما كان القصص يدخل فى هذا النطاق الأخير، فإن النهى لا يشمله. وهكذا وجدت الإسرائيليات الطريق مفتوحاً أمامها إلى مجالين واسعين أولهما: قصص القرآن، وثانيهما: السنة النبوية، فانطلق مروجوها يرتعون فيها كما يحلو لهم.

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦٢.

(٢٥) فتح البارى، الجزء الثالث عشر ص ٢٨٤.

ولم يجد اليهود والنصارى فى التفرقة التى وضعت بين القرآن والسنة، وبين التفسير والقصص ما يعوقهم عن ممارسة نشاطهم، بل انتهزوا الفرصة لنشر أساطيرهم وتأويلاتهم، ويقول المستشرق جولد تسيهر(٢٦): «إنه عن طريق (الحديث) دخل الإسلام، وتسرب إليه كنز كبير من القصص الدينية، حتى إذا نظرنا إلى المواد المعدودة فى الحديث،ونظرنا إلى الأدب الدينى اليهودى، فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الدينى من هذه المصادر اليهودية» ومما لا شك فيه أن التميز بين التفسير والقصص لم يكن من الدقة والإحكام بحيث يؤدى إلى الحيلولة دون تسرب الإسرائيليات إلى الإسلام، وإن كان هذا الافتقار إلى الدقة لا يرجع إلى خطأ الذين وضعوا معيار التفرقة، وإنما يرجع فى الحقيقة إلى الظروف التى كانت سائدة وقتئذ من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى العوامل التى طرأت فيما بعد.

وفيما يتعلق بالظروف التى وضعت فيها التفرقة، فإنها تتمثل فيما قام من وضع عقب انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى وانقطاع الوحى، واضطلاع الخلفاء بالمسئولية، ثم ما تلا ذلك من اضطراب أحوال المسلمين وقيام حروب الردة، مما دفع الخلفاء ومعهم بقية الصحابة إلى التركيز على المصدر الأول للشريعة الإسلامية، وهو القرآن، لحمايته من كل ما من شأنه النيل منه، سواء من حيث وجوده نفسه، بشكل كامل وصحيح، أو من حيث التدخل فى مضمونه بالتأويل والتفسير، وهو ما رفضوه بشدة.

ولذلك فإنهم بادروا إلى جمع القرآن فى عهد الصِّدِّيق،وإلى نَسخه فى عهد عثمان، ولم يفعلوا ذلك بالسنة النبوية، على الرغم من أنها المصدر الثانى للشريعة الإسلامية، وكان دافعهم إلى عدم تدوينها ما نسب إلى الرسول ﷺ من نهى عن ذلك، فعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه»(٢٧) وروى عن أبى هريرة أنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: «ما هذا الذى تكتبون؟» قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: **«كتاب غير كتاب الله!؟ أتدرون؟**

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٥١.

(٢٧) صحيح مسلم بشرح النووى الجزء الثامن عشر ص ١٢٩.

ماضل الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى».

ومع ذلك فإن هناك أحاديث أخرى أباح فيها الرسول ﷺ الكتابة، فقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله، أريد حفظه فنهتني قريش، وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «**اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منه إلا حق**»(٢٨) وروى عن أبى هريرة أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث الرسول ﷺ فلا يحفظه فيسأل أبا هريرة فيحدثه، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ. فقال له عليه السلام الصلاة والسلام: «**استعن على حفظك بيمينك**»(٢٩) وقد قيل تفسيراً لهذا التعارض الظاهرى: إن صحابة رسول الله خشوا إذا كتب البعض أقوال الرسول ﷺ أن ينصرف الناس عن القرآن إلى السنة وينظروا إليها كما ينظرون إلى القرآن، وبمرور الزمن تحل السنة محل القرآن، كما فعل بنو إسرائيل بكتبهم وتركوا التوراة، وكما حلت أقوال المسيح محل الإنجيل الذى أنزله الله عليه.

كذلك فإنه لما كان أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين، ولا جالسوا العلماء، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من صحف تتضمن أحاديث الرسول بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن.

وهكذا بقيت السنة ميداناً مفتوحاً أمام مُرَوِّجى الإسرائيليات يقتحمونها بإضافاتهم وتأويلاتهم ومروياتهم، ولما كانت السنة مكملة ومفسرة لما جاء فى القرآن الكريم فقد كانت بمثابة الباب الخلفى الذى تسلل منه هؤلاء إلى القرآن ذاته، مما جعل التفرقة بين التفسير والقصص تفقد مع الزمن، ما كان يرجى أن توفره من حماية.

أما العوامل الأخرى التى طرأت، وأدت إلى فقدان التفرقة بين التفسير والقصص لدقتها وإحكامها وبالتالى تحقيقها لما كان يرجى منها فمنها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية، ودخول شعوب أخرى غير العرب فى الإسلام تتكلم لساناً غير

(٢٨) سنن الدّارمى الجزء الأول ص ١٢٥.

(٢٩) توضيح الأفكار الجزء الثانى ص ٣٥٣.

عربى، مما جعل فهمها للقرآن واستيعابها لما فيه من عظات وعبر، وإدراكها لأهدافه ومراميه متسماً بالصعوبة، مما أتاح الفرصة لأعداء الإسلام من يهود ونصارى لنشر تأويلاتهم ودس مروياتهم وأساطيرهم، متخذين من اعتراف الإسلام باليهودية والمسيحية سبيلاً للربط بين ما جاء فى القرآن من خبر القرون الماضية والغيبيات، وما تضمنته كتبهم من أساطير وخرافات، على الرغم مما فيها من أمور تتعارض أشد التعارض مع مبادىء الإسلام. ويقول أحمد أمين (٣٠): «إن المسلمين ربطوا ما سمعوه من اليهود عما جاء فى كتبهم بتفسير القرآن أحياناً، وبتاريخ الأمم الأخرى أحياناً، ونضرب لذلك مثلاً بما جاء فى تاريخ الطبرى (حدثنى المثنى بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى أبو معشر، عن سعيد بن أبى سعيد، عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين، وخلق الأقوات إلخ..» ويقول أحمد أمين: وكثير من هذا النوع روى حول ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء.

وقد ساعد على نجاح اليهود والنصارى فيما سعوا إليه ما كانت تعتنقه هذه الشعوب من ديانات قبل الإسلام، أو ما كانت قد سمعته من قبل من اليهود الذين كانوا يقيمون بين ظهرانيها.

ويضاف إلى هذا العامل، عامل آخر، وهو تسامح المسلمين المستمد من عقيدتهم مع غيرهم من معتنقى الديانات الأخرى، وبخاصة اليهود الذين كانوا وما زالوا يلعبون دور النباتات المتسلقة مع كل حضارة ناشئة، فيحيون عالة عليها يستغلونها لتحقيق مآربهم ويمتصون طاقاتها، وينخرون فى قوائمها كما ينخر السوس فى العظم، فقد انتهزوا فرصة اتساع رقعة الدولة الإسلامية ومضوا فى إثْر جيوشها يحلون حيث تحل لينشروا أساطيرهم وخرافاتهم التى حسبوها على الإسلام، مستغلين حداثة عهد الشعوب به، وقد ساعدهم على بلوغ هدفهم الدور الذى أصبح يقوم به من يسمون بالقُصَّاص، وهم الذين يتخذون من رواية القصص مهنة يتكسبون منها.

---

(٣٠) فجر الإسلام ص ١٥٧.

الدور الذى لعبه القصاص فى نشر الإسرائيليات:

القُصاص جمع، ومفردها القاص أو القصاص، وفى لسان العرب القاص: الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها. والقصة: الخبر، وهو القصص. وقص علىّ خبره يقصه قصاً وقصصاً: أورده. والقصص: الخبر المقصوص، بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه. والقصص، بكسر القاف: جمع القصة التى تكتب.

وفى القاموس المحيط: قص أثره قصًا وقصيصاً: تتبعه، والخبر: أعلمه، نحن نقص عليك أحسن القصص: نبين لك أحسن البيان، والقاصُّ مَنْ يأتى بالقصة. وما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم لا يزيد على هذا ففيه: قص الكلام أو الأخبار ونحوها يقصها قصًا وقصصاً: تتبعها فرواها. قص القصص: روى الأخبار.

وقد عَرَّف المستشرق اليهودى «جولد تسيهر» القاص أو القصاص فى كتابه المسمى دراسات إسلامية بأنه: الرجل الذى كان يجمع الناس حوله فى الطرق أو فى المساجد ــ من غير أن تكون له صفة رسمية ــ فيعظهم حينا بذكر الأحاديث والأخبار المأثورة، ويسليهم بالقصص والحكايات حيناً آخر، وإن الصيغة الدينية لحديثهم (أى القُصاص) هى التى كانت تميزهم عن القُصاص غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم فى الطرق ليسلوهم بالنوادر والمضاحك[٣١] ويلاحظ على تعريف «جولد تسيهر» أنه قصد به القصاص فى الدولة الإسلامية، أى بعد مجيء الإسلام. فى حين أنهم كانوا موجودين فى الجاهلية وإن اختلف نوع القصص الذى كانوا يقصونه، فقد شاع القصص بين العرب فى الجاهلية، وكان المحور الذى تدور حوله أحاديثهم هو الحروب، وأيامها، كيوم داحس والغبراء، ويوم الفِجَار، ويوم الكلاب، ويوم ذى قار، والهوى وأخبار العاشقين، والأشعار المنسوبة إليهم، وعن السحر والكهانة، وأخبار الجن وغير ذلك مما يعبر عن عقلية العرب فى جاهليتهم ويمثل أدبهم وحياتهم.

كذلك فإن القصاص كانوا فى الجاهلية يصحبون المقاتلين ويحرضونهم على

---

(٣١) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى الجزء الثانى ص١٤٦.

القتال، ويحمسونهم بقصصهم، وبعضهم استمر يفعل هذا بعد إسلامه، مثل عمرو بن معد يكرب، وقيس بن هبيرة، وشـرحبيل بن السمط، فقد ذكر أبو حنيفة الدينورى أن سعد بن أبى وقاص قبل لقاء القادسية جعل هؤلاء الثلاثة يثيرون عزائم الجند بقصائدهم وقصصهم لتحريضهم على القتال (٣٢).

وهذا يدل على أن خلفاء رسول الله ﷺ لم يمنعوا القصاص من القيام بهذا الدور، وهو ما أخذ به من جاء بعدهم من الحكام، فقد ذُكر أن رجلاً يسمى أبا العباس أحمد بن أبى أحمد الطبرى المعروف بالقاص، سُمى بذلك لأنه كان مع جيوش المسلمين فى حروبهم للديلم والروم يحرضهم ويقص لهم (٣٣).

أما فيما يتعلق بالتفرقة التى أوردها «جولد تسيهر» بين أنواع القصاص، حيث قسمهم إلى قصاص لهم الصفة الرسمية، أى يكلفون رواية القصص من جانب الحكام، وقصاص ليست لهم الصفة الرسمية، ثم تقسيمه لهؤلاء إلى قصاص دينيين يقصون القصص الدينى، وآخرين غير دينيين يسلون الناس بالنوادر والمضاحك على حد قوله، فهو تقسيم صحيح.

ويمكن القول إن القصاص كانوا فى أول الأمر يقومون بهذا العمل، تطوعاً، أى بصفة غير رسمية، وبدافع من إيمانهم بالعقيدة الإسلامية، وكان ميدانهم الرئيسى، على ما سبق أن ذكرنا، بين الجند وفى المعارك، سواء فى حياة الرسول ﷺ أو بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ومع ذلك فإن بعضهم كان يروى القصص فى المدينة فيما بين الغزوات، وقد ذكر ابن الجوزى فى كتاب «القصاص والمذكرين» أن النبى ﷺ امتدح الخطباء الصالحين الذين يسمون القصاص. ويقول أيضا :إن عمر بن الخطاب أجاز لتميم الدارى أو لعبيد بن عمر فى رواية أخرى أن يقص على الناس.

وإن كان للمقريزى (٣٤) رأى مخالف فهو يقول: إن القصص والقصاص لم يكن فى أيام الرسول ﷺ ولا فى زمن الخلفاء الراشدين، وإنما حدث فى زمن معاوية وقبل خلافة عثمان.

---

(٣٢) المرجع السابق ص١٤٧.

(٣٣) المرجع السابق ص١٤٨.

(٣٤) الخطط الجزء الثانى ص٢٥٣.

وكان تميم الدارى قد استشار عمر بن الخطاب قبل ذلك ليقص على الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر. فلما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان استأذنه تميم فأذن له أن يذكر الناس يومين فى الجمعة، فكان تميم يفعل ذلك (٣٥). وفى رواية أخرى عن الحسن أنه سئل: متى أحدث القصص؟ قال: فى خلافة عثمان. فسئل: من أول من قص؟ قال: تميم الدارى (٣٦).

أما الخليفة الرابع على بن أبى طالب، فقد جاء فى الإحياء (٣٧) للغزالى أنه أمر بطرد القصاص من المساجد، ومنع الناس من الجلوس إليهم والاستماع إلى قصصهم، واستثنى الحسن البصرى؛ لأنه كان يسلك فى قصصه مسلكاً سليماً. وفعل مثل ذلك عبدالله بن عمر، فاستعان على إخراجهم من المسجد بصاحب الشرطة (٣٨).

ظهور القُصاص الرسميين:

يكاد الإجماع ينعقد على أن أول من استعمل القصاص بصفة رسمية هو معاوية بن أبى سفيان بعد أن آلت إليه الخلافة، وأول من أصدر إليه معاوية أمره بقص القصص هو «تميم الدارى» الذى كان يقوم بهذا العمل فى آخر خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان على سبيل التطوع، فلما عهد إليه معاوية بأمر القصص على الناس أخذ يروى قصصه فى المساجد إذا فرغ المصلون من صلاة الصبح، وفى المجتمعات فى غير أوقات الصلاة.

وما لبث معاوية أن عهد إلى القضاة فى الأمصار بمهمة القصاص، فقد روى الكندى فى كتابه «القضاة» أن كثيراً من القضاة كانوا يقومون بمهمة القصاص إلى جانب مهنة القضاء بأمر من الحاكمين، وأن أول من قص بمصر «سليمان بن عمر التجيبى» سنة ٣٨هـ. وولاه معاوية أمر القضاء إلى جانب القصص، ثم لم

---

(٣٥) محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين صفحة ٢١٠ هامش رقم ٤.
(٣٦) أحمد أمين، فجر الإسلام ص ١٥٨.
(٣٧) الجزء الثانى ص ٥٨ — ٥٩.
(٣٨) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٨٨.

يلبث أن عزله من القضاء وخصصه للقصص لا غير[٣٩] إلا أن المقريزى يرى أن تولى القاضى للقصص لم يحدث إلا فى مصر، فلم يتم الجمع بين القضاء والقصص إلا فيها ، ويفسر هذا الوضع الفريد بقوله : إنه من المحتمل أن يكون نظاماً من أنظمة الكنيسة المصرية .

ومما لا شك فيه أن استحداث معاوية لوظيفة القُصاص ينم عن فطنة وبعد نظر، فقد أدرك ما لعملهم هذا من أهمية ، وما لدورهم من أثر واضح يشبه إلى حد كبير الأثر الذى تحدثه وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيون وصحف فى الدول المعاصرة ، حيث تروج مبادىء الحكام وتنشر أفكارهم ومذاهبهم سياسية كانت أم اجتماعية ، وهو ما فعله معاوية بن أبى سفيان ، إذ كان يواجه عداء شديداً من خصومه الذين انتشروا فى أنحاء الدولة الإسلامية يطعنون فى شرعية خلافته .

وقد وُجِدَ فى هذه الفترة ــ فضلاً عن القصاص الرسميين وغير الرسميين الذين يقصون القصص الدينى ــ قصاص من نوع آخر يروون أخبار الأمم الماضية فى القصور وعلى أسماع الخلفاء ، ومن هؤلاء عبيد بن شرية الجرهمى الذى قيل : إنه روى أخبار ملوك العرب من لخم وغسان ، لمعاوية بن أبى سفيان الذى كان قد استحضره من صنعاء فى اليمن إلى دمشق ليروى أخبار الأمم الماضية ، واستمر عبيد يقوم بهذا العمل إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وله كتاب (الملوك وأخبار الماضين) [٤٠] .

كذلك كان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القصاص ، ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور[٤١] . والظاهر أن وظيفة القاص أصبحت فى العهدين الأموى والعباسى من الوظائف السامية التى يسعى إلى شغلها عِلْيَةُ القوم ، فقد جاء فى لسان العرب لابن منظور: وقيل : أراد الخطبة لأن الأمراء كانوا يلونها فى الأول ويعظون الناسْ فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة .

ويبدو أن المبدأ الذى وضعه معاوية بن أبى سفيان ، والذى يقضى بتشجيع

---

(٣٩) أحمد أمين المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٤٠) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى الجزء الأول صفحة ٢٥٠ .

(٤١) ابن الجوزى ، نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس صفحة ١٢٠ .

القصاص باعتبارهم وسيلة من وسائل إعلامه، طبقه خلفاؤه من بعده، فشجعوهم بدورهم، حتى تضاعفت أعدادهم، وانتشروا فى كل مصر من أمصار الدولة الإسلامية، فلما سقطت دولة أمية وآل الحُكم إلى بنى العباس، لم يشأ هؤلاء ــ وبالذات الخلفاء الأول ــ أن يواجهوا ظاهرة القصاص التى أصبحت تمثل خطراً على الإسلام، بل أرخوا لهم العنان وتركوهم يصولون ويجولون فى أنحاء الدولة، ولم يعد القاضى يجمع بين منصب القضاء وقص القصص فحسب، بل جرى الجمع بين قراءة القرآن والقصص، فكان من يقرأ القرآن بالمسجد يقص القصص أيضاً.

وقد كثر القصاص بالعراق حتى حكى ابن عوف (المتوفى عام ١٥١هـ) أنه فى مساجد البصرة كان لعلماء الفقه حلقة واحدة، على حين كان للقصاص حلقات لا تحصى، حتى كانت المساجد مملوءة بهم. وفى بغداد ابتكر أحد القصاص، وهو موسى بن سيار الأسوارى، طريقة جديدة فى القصص، إذ كان يجلس وعن يمينه العرب، وعن يساره الفرس، فيقص لهؤلاء بالفارسية، ولأولئك بالعربية. وكان له قريب يدعى عمرو بن قائد الأسوارى كان قاصًّا مثله، وظل يقص ستًّا وثلاثين سنة، وكلاهما عاش فى القرن الثالث الهجرى. ثم انتشر القصاص فى آسيا الوسطى وفى غيرها من الأمصار.

أما فى الحجاز فكانوا نادرين، ويحكى عن مالك بن أنس أنه منعهم من دخول مسجد الرسول بالمدينة، وكانوا أيضاً قليلين فى المغرب، حيث كان يغلب على الناس العناية بالحديث والأمانة فى روايته، حتى يقول المقدسى: إن أهل المغرب لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك.

ويقول: «جولد تسيهر»: إن القصاص لم يلقوا معارضة من أحد، وخاصة العلماء، ولم يضايقهم أحد فى أدائهم لهذه المهمة، أى رواية القصص. وإذا كان ذلك صحيحاً فى عهد الدولة الأموية وبداية عهد الدولة العباسية، إلا أن سبب صحته ليس هو الذى قاله «جولد تسيهر» وهو: «أنهم كانوا عنصراً مكملاً فى الحياة الدينية الإسلامية» فهذا القول منه محض افتراء؛ لأن القُصاص لم يكونوا فى يوم ما عنصراً مكملاً فى الحياة الدينية الإسلامية، بل الصحيح أنهم كانوا عنصر هدم لهذه الحياة بما كانوا يروجونه من إسرائيليات وأساطير وخرافات

وأكاذيب أساءت أشد الإساءة إلى الإسلام، وما زالت تسيء إليه.

أما السبب الصحيح لعدم معارضة العلماء للقُصاص، فهو الصفة الرسمية أو شبه الرسمية لهؤلاء فى عهد الأمويين، وقيامهم بالدعوة لهم، وترويج أفكارهم، ونشر آرائهم فى خصومهم السياسيين، واستمرار هذا الوضع فى عهد الدولة العباسية. ومع ذلك فإننا نجد الحسن بن على رضى الله عنهما، فى العهد الأموى، ينكر على قاص صادفه يقص القصص قوله عن نفسه: إنه قاص، ودعاه إلى ترك رواية القصص. وكذلك سالم بن عبدالله بن عمر الذى لم يكن يحب أن يستمع إلى قاص الجماعة.

أما فى عهد الدولة العباسية فإنه فضلاً عما فعله الإمام مالك فى المدينة، فإن العلماء ــ وبالذات أئمة المذاهب ــ فعلوا مثله فى بغداد عاصمة الخلافة، فقد هاجمهم أبو حنيفة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والغزالى، وغيرهم ممن لمسوا عن كثب خطورة الدور الذى يلعبه القُصاص، وفى هذا يروى أن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين أديا الصلاة بمسجد الرصافة، فقام بين أيدى المصلين قاص، فقال: حدثنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبدالرازق عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً، منقاره من ذهب وريشه من مرجان.. ومضى يعدد أشياء غريبة وكائنات عجيبة يخلقها الله من كلمات لا إله إلا الله، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين وهذا ينظر إليه، ثم سأله: أنت حدثته بهذا ؟! قال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة، فلما انتهى القاص ــ أشار له يحيى، فجاء متوهماً أنه سيمنحه مالاً، فسأله يحيى: من حدثك بهذا ؟! قال: أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين، فقال أنا يحيى، وهذا أحمد، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله، فإن كان ولابد فعلى غيرنا، فقال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل أحمقان، ما تحققته إلا الساعة، فقال له يحيى: وكيف؟ قال: كأنه ليس فى الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما؟ لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين!! فما كان منهما إلا أن رضيا من النقاش بالسلامة. ليس ذلك فحسب، بل إن الشعراء أنفسهم لم يترددوا فى تحذير الناس من القُصاص، بعد أن تمادوا فى غيهم، وهددوا

بنشاطهم العقيدة الصحيحة، وتسلطوا على الناس يتلاعبون بعقولهم، فها هو ذا أبو دلف الخزرجي شاعر المُلح والطرف، والذى ألف قصيدة مشهورة تسمى القصيدة الساسانية، بيّن فيها أصناف المكدين والمخرقين والمحتالين من أسوأ طراز فسمى فيها القُصّاص فقال:

ومـــن قـــص لإســـرائـــيـــل أو شـــبـــراً عـــلـــى شبر

وكانوا يطلقون على الحكايات القصار الشبريات للتمييز بينها وبين القصص. ويقول ابن منظور فى «لسان العرب» وفى الحديث لا يقص إلا أميرٌ أو مأمور أو مختال، أى لا ينبغى ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا، أو مأمور بذلك فيكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسباً. أو يكون القاص مختالاً يفعل ذلك تكبراً على الناس، أو مرائياً يرائى الناس بقوله وعمله لا يكون وعظه وكلامه حقيقة.

ويقول: وفى الحديث: القاص ينتظر المقت لما يعرض فى قصصه من الزيادة والنقصان ومنه الحديث: «إن بنى إسرائيل لما قصوا هلكوا»، وفى رواية: «لما هلكوا قصوا»، أى اتكلوا على القول وتركوا العمل فكان ذلك سبب هلاكهم، أو العكس لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص.

كذلك فإنه لما كثر عدد القصاص وزاد طمعهم، اشتد الصراع فيما بينهم، واحتدمت المنافسة، وتفشى الحقد والبغضاء بينهم، فصاروا يكيدون لبعضهم بعضاً حتى أصبح من الأمثال الجارية أن القاص لا يحب القاص.

ويصور ابن قتيبة تأثيرهم على قلوب العامة قائلاً: «كانوا يميلون وجوه العوام إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير، والغريب، والأكاذيب من الأحاديث. ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب، ويستفز العيون، فإذا ذكر الجنة قال: فيها الحوراء من مسك أو زعفران، وعجيزتها ميل فى ميل.. الخ» وأصبح العامة يصدقونهم ولا يصدقون الفقهاء والعلماء، بل وكانوا يوجهون الإهانات إليهم إذا حاولوا تصحيح معلومات العامة فقد ذكر ابن الجوزى فى كتابه «القصاص والمذكرين» أن الشعبى نزل تدمر فى حكم عبد الملك بن مروان، فسمع شيخاً عظيم اللحية يقول:

إن الله خلق فى كل صور نفختان، نفخة الصعق، ونفخة القيامة، قال الشعبى: فرددت عليه وقلت له: إن الله لم يخلق إلا صورًا واحدًا وإنما هى نفختان، فقال لى يا فاجر: إنما حدثنى فلان عن فلان وترد على، ثم رفع نعله وضربنى، وتتابع علىَّ الضرب ممن معه، فما أقلعوا عنى حتى قلت لهم إن الله خلق ثلاثين صورًا.

وشبيه بهذا ما حدث للإمام الطبرى، فقد سمع أحد القصاصين يفسر قوله تعالى: (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) أن الله سبحانه يجعل للرسول ﷺ مكاناً على العرش بجانبه، فأنكر عليه ذلك، وكتب على باب داره ما ينزه به الله تعالى عن ذلك، فلما فهم القصاص ما يقصد إليه أوعز إلى العامة فأخذوا يقذفون داره بالحجارة حتى سدوا عليه طريقه.

ويقول ابن الجوزى وغيره ممن تعرضوا لأحوال القُصاص: إن الإسرائيليات وما يتصل بها من مواردهم الرئيسية التى اعتمدوها فى قصصهم، وكانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر من لا يجهل شيئاً ولا يعجزه الجواب عن شىء، ولا يتورعون عن الإجابة عن كل واقعة ولو كانت وهمية: فقد ادعى بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذى عبده بنو إسرائيل، واسم الذئب الذى أكل يوسف، فقال له بعض الحضور: إن الذئب لم يأكل يوسف، فأجابه بأنه يعرف اسم الذئب الذى لم يأكله (٤٢) وهذا ما دفع ببعض الفقهاء مثل الليث بن سعد إلى التفرقة بين نوعين من القصص، أحدهما هو ما سُمى بقصص العامة، وهو الذى يجمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، فذلك مكروه ممن فعله وممن استمعه، والآخر قصص الخاصة، وهو الذى جعله معاوية، وفيه يجلس القصاص بعد أن يسلم من صلاة الصبح فيذكر الله عز وجل ويحمده ويمجده ويصلى على النبى ﷺ، ويدعو للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده، ويدعو على أهل حربه وعلى المشركين كافة. وهذا النوع من القصص كان مقبولاً عند الليث بن سعد.

ويقول أحمد أمين(٤٣): إن هذا القصص هو الذى أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث

---

(٤٢) هاشم معروف الحسينى، الموضوعات فى الآثار والأخبار ص١٦٣.

(٤٣) فجر الإسلام ص١٦٠.

مزيفة أتعبت الناقد وأضاعت معالم الحق .

ولما استفحل خطر القصاص أمر الخليفة العباسى فى عام ٢٧٩ هـ بالنداء فى مدينة السلام (بغداد) ألا يقعد فى الطريق ولا فى المسجد قاصٌّ ولا مُنَجِّمٌ ولا عَرَّاف . وجدد هذا الأمر فى عام ٩٨٤ هـ .

ثم بطل نظام الجمع بين المنصبين ، القضاء والقصص ، وارتفع شأن منصب القضاء ، وانحط منصب القاص ، بل وبطل أيضاً الجمع بين قراءة القرآن والقصص ، ففى عام ١٣٠١ هـ أراد أبو بكر الملطى الذى تولى القصص فى هذه السنة أن يقرأ القرآن ويقص فى كل يوم ، فمنع القاضى من ذلك ، فرجع القاص إلى القراءة فى ثلاثة أيام وترك القصص .

ومع ذلك فقد بقى القصاص غير الرسميين يمارسون نشاطهم . وفى القرن الرابع الهجرى نزلوا إلى غمار العامة ، وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر فى المساجد والطرق ، وينالون منهم مالاً كثيراً . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء ، فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم .

وفى أواخر القرن الرابع كان القصاص أكثر مثيرى الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة ، وكان من نتيجة ذلك أن فقدوا كل ثقة من جانب أهل التقى والصلاح ، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم ، هى طائفة المذكرين ، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر .

وعلى الرغم من موقف الخلفاء العباسيين منهم ، أى من القصاص ، وعداء العلماء لهم ، فإنهم لم يكفوا عن القيام بنشاطهم ، بل ونوعوا فى أساليبهم ، وفى الموضوعات التى يقصونها للناس ، ففى القرن السادس الهجرى يقول ابن الجوزى (٤٤) : « إنهم تلمحوا ما يزعج النفوس ويطرب القلوب ، فَنَوَّعوا فيه الكلام ، فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية فى العشق .. ومنهم من يتحرك الحركات التى يوقع بها على قراءة الألحان التى قد أخرجوها اليوم مشابهة للغناء ، فهى إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة ، والقارىء يطرب ، والقاص ينشد الغزل مع تصفيق بيديه وإيقاع برجليه ، فتشبه السُكر ، ويوجب ذلك تحريك الطباع وتهييج

---

(٤٤) نقد العلم والعلماء صفحة ١٢٠ .

النفوس وصياح الرجال والنساء، وتمزيق الثياب لما فى النفوس من دفائن الهوى.. ومنهم من يتكلم بالطاقات والشطح الخارج عن الشرع ويستشهد بأشعار العشق، وغرضه أن يكثر فى مجلسه الصياح ولو على كلام فاسد، وكم منهم من يزوّق عبارة لامعنى تحتها، وأكثر كلامهم فى موسى والجبل، وزليخا ويوسف، ولا يكادون يذكرون الفرائض، ولا ينهون عن ذنب، فمتى يرجع صاحب الزّنى، ومستعمل الربا، وتعرف المرأة حق زوجها، وتحفظ صلاتها ؟».

ويقول: «ومن القصاص من يخلط فى مجلسه الرجال والنساء، وترى النساء يكثرن الصياح وَجْدًا على زعمهن، فلا ينكر ذلك عليهن، جمعاً للقلوب عليه، ولقد ظهر فى زماننا هذا من القصاص مالا يدخل فى التلبيس؛ لأنه أمر صريح من كونهم جعلوا القصص معاشاً يَسْتمنحُونَ به الأمراء والظَّلَمة، والأخذ من أصحاب المكوس، والتكسب به فى البلدان، وفيهم من يحضر المقابر فيذكر البلى وفراق الأحبة، فيُبكى النسوة، ولا يحث على الصبر».

وهكذا نلاحظ، على العكس مما ذهب إليه «جولد تسيهر» أن العلماء لم يكفوا عن معارضة القصاص والتحذير منهم ومن نشاطهم الضار، وأساليبهم الماكرة من اجتذاب الناس إليهم، والاستيلاء على أموالهم، وإفسادد عقولهم. وإذا كانوا فيما شنوه من حملات عليهم لم يحققوا نجاحاً ملحوظاً، فإن ذلك لا يرجع إلى تقصير من جانبهم، أو قصور فى وسائلهم، بقدر ما يرجع إلى أحوال المسلمين فى تلك العصور، حيث كانت مجتمعاتهم فى حالة من التفاعل الشديد بين عناصر ثقافية قديمة وأخرى جديدة، أو هى قديمة ولكنها تعد جديدة بالنسبة لمن وفد من العرب إلى الأقاليم المفتوحة، وقد وجد القُصاص ووجدت القصة كذلك سبيلها إلى البناء الثقافى للأمة الإسلامية الذى كان فى طور النمو.

ولعلنا لاحظنا فيما ذكره ابن الجوزى التطور الهام الذى أصاب رواية القصص فى القرن السادس الهجرى، حيث أصبحت تصاحبها إيقاعات بالأقدام وتصفيق بالأيدى، مع الغناء، أى أن القاص لم يعد، كما كان فى السابق، يقص القصص كما لو كان يقرأ من كتاب، أو حتى كما لو كان يتكلم كلاماً عادياً، وإنما أصبح يردده غناء مصحوباً بالإيقاع بالأقدام التى تدق الأرض وبالأيدى التى تصفق، وفى مرحلة تالية أضاف القصاص إلى الإيقاع، أنغام آلة الربابة التى

تصاحب غناءهم للقصص وهو ما نراه حتى اليوم فى الريف المصرى ، حيث ينتقل الراوى ـ أى القاص ـ بين القرى والنجوع يعزف على ربابته ويقص القصص ، فيتجمع حوله الرجال والنساء والأطفال يستمعون إلى قصص عنترة والزناتى خليفة والزير سالم ، كما يروى السيرة النبوية بطريقة تذكر بما كان يفعله سلفه فى القرون الهجرية الأولى من اللجوء إلى الإسرائيليات وذكر الأساطير والخرافات .

ومع ذلك فإنه يمكن القول إن تأثيرهم فى العامة آخذ فى الضعف إلى أن ينعدم ، أو بالأحرى إلى أن ينقرضوا ، خاصة بعد أن أقبل هؤلاء على التعليم واقتنوا أجهزة الاستقبال الإذاعى والمرئى ، فلم يعودوا بحاجة إلى الاستماع للقصاص . ولكن لا يزال للإسرائيليات التى طالما روج لها هؤلاء بابٌ واسع تنفذ منه إلى العقول ، هذا الباب هو كتب التفسير والكتب المسماة بقصص الأنبياء ، وقصص القرآن التى تستمد معظم مادتها من الإسرائيليات ، بل إن مادة هذه الكتب انتقلت إلى ما يقدمه التليفزيون والإذاعة من تمثيليات ومسلسلات دينية .

وهكذا يتبين لنا أن العوامل التى أدت إلى نجاح اليهود فى دس إسرائيلياتهم فى الإسلام هى :

أولاً : استبعاد المسلمين أن تتسلل الإسرائيليات إلى القرآن الكريم ؛ لأنه موثق ومحفوظ نصًّا ورسماً وقراءة ، ومن ثم فليس ما يمنع من سماع تأويلات أهل الكتاب وقصصهم .

ثانياً : أن الإسلام وهو يقر حرية العقل والفكر ، لم يفرض حظراً على تراث الملل والعقائد السابقة عليه ، ولم يلجأ إلى مصادرته .

ثالثاً : استغلال اليهود لما جاء فى القرآن من تصديق لما سبقه من الرسالات والكتب .

رابعاً : استغلال اليهود لسماحة الإسلام ودخولهم فيه لضربه من الداخل عن طريق بث أساطيرهم وخرافاتهم .

خامساً : أن الرسول ﷺ وإن كان قد نهى أصحابه عن العمل بما فى كتب اليهود والنصارى إلا أنه لم ينههم عن سماع أقوالهم دون تصديقها أو تكذيبها .

مدى نجاح التدوين فى تخليص السنة من الإسرائيليات:

يمكن القول إن تدوين السُّنة لم يبدأ بصورة منظمة وشاملة إلا على عهد عمر ابن عبد العزيز، أى فى مستهل القرن الثانى الهجرى، فَدُوِّنَتِ السنة فى صحف وكراريس ودفاتر، وكثرت الصحف فى أيدى طلاب الحديث، وعلى الرغم من خضوع عملية جمع السنة النبوية وتدوينها لأدق الشروط والضوابط وتناولها بالفحص الدقيق، سواء من حيث توثيق الإسناد أو صحة الرواية وعدالة الرواة وضبطهم، فإنه أفلت مع ذلك إلى كتب التفسير والحديث مرويات صح إسنادها إلى صحابة وتابعين، من أمثال كعب الأحبار والقرظى ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وغيرهم من النصارى واليهود الذين أسلموا. وهناك من يرجع ذلك إلى أن العلماء عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن، فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية ما نسب إلى النبى ﷺ لا يتفق والظروف التى قيلت فيه، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفى يخالف المألوف فى تعبير النبى، أو أن الحديث أشبه فى شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا (٤٥).

ولذلك فإننا نجد أن معظم كتب التفسير القديمة تمتلىء بالإسرائيليات، وخاصة بالنسبة للقصص، إلى الحد الذى أصبحت فيه هذه الإسرائيليات جزءاً من التفسير، فنجد الطبرى مثلاً يلجأ إلى المصادر اليهودية الأصل مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه، فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، وكتابه يعد أكثر كتب التفسير من حيث استعانته بالنصوص الإسرائيلية وبالأساطير النصرانية التى يرويها الطبرى راجعاً إلى «وهب بن منبه» ولا تقل الكتب الأخرى عنه إلا بقدر قليل من حيث رجوعها إلى وهب بن منبه وكعب الأحبار اللَّذَيْن يعدان من أعظم المصادر لقصص الأنبياء وأساطير الماضين، والتى على أساسها وضع جماعة من المفسرين تفاسيرهم لبعض الآيات والسور التى لا تزال كتب التفسير مشحونة بها على تفاوت فيما بينها، يرجع إلى القدر من الفضول والتطلع العلمى الذى يتوفر لدى كل مفسر، يضاف إليه ما يتميز به من بُعد نظر واتخاذ للحيطة وتسلح بالحذر إزاء ما تقع عليه عيناه من الإسرائيليات. ولا شك أن ابن قتيبة والنووى

---

(٤٥) أحمد أمين المرجع السابق ص ٢١٨.

والزمخشرى يأتون فى مقدمة هؤلاء، إذ أنهم لا يروون عن كعب الأحبار أبداً، فى حين يروى ابن جرير قليلاً عنه، وينقل الثعلبى والكسائى عنه كثيراً فى قصص الأنبياء ([46]).

كذلك فإن ابن كثير يُعد من بين المفسرين الذين يلتزمون بالحيطة ويأخذون بأسباب الحذر، حيث أنه حاول ما وسعه الجهد أن يتخلص من تأثير الأساطير والخرافات الإسرائيلية وينقى كتابه منها، أو على الأقل يلفت انتباه القارىء إلى مصدرها ويذكر تحفظه بشأنها على خلاف مع غيره ممن سبقوه والذين كانوا يباهون باستعانتهم بكتب اليهود والنصارى، مثل مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هجرية الذى ذكر فى تمييز خصيصته أنه: استمد علمه بالقرآن من اليهود والنصارى، وجعله موافقاً لما فى كتبهم.

وهكذا نرى أنه بمضى الزمن أصبحت الإسرائيليات والنصرانيات مرتبطة أشد الارتباط بالقرآن والسنة بعد أن تضمنتها كتب التفسير، وهذا الوضع الغريب والشاذ فى آن واحد أصبح يمثل مشكلة ليست بالهينة، أضيفت إلى غيرها من المشكلات التى واجهها الفقهاء المسلمون فى المرحلة الوسطى من عمر الدولة الإسلامية، ويمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى واحد ممن تصدوا لها، وهو ابن تيمية، وذلك فى كتابه «مقدمة فى أصول التفسير» ([47]) حيث ذهب إلى القول بأن: الاختلاف فى التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، إذ العلم: إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق. والمنقول: إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم. وهذا هو النوع الأول، فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه، وهذا القسم الثانى من المنقول، وهو ما لا طريق إلى الجزم بالصدق منه، فالبحث عنه مما لا فائدة فيه، والكلام فيه من فضول الكلام، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته: فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً.

فمثال ما لا يفيد، ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم فى أحوال «أصحاب الكهف» وفى البعض الذى ضرب به موسى المقتول من البقرة، وفى مقدار سفينة

---

(٤٦) المرجع السابق ص ١٦١.

(٤٧) ص ١٨ ــ ٢٠.

نوح ، وما كان خشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، وما لم يكن كذلك ، بل كان يؤخذ من أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ، ووهب ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن أخذ عن أهل الكتاب ، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ، ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوا بباطل فتصدقوه» .

وكذلك ما نقل عن التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل فى ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً : فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين ؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى من نقل التابعى ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله كيف يقال : إنه أخذه من أهل الكتاب وقد نُهوا عن تصديقهم !!

والمقصود بيان أن الاختلاف الذى لا يعلم صحيحه ، ولا يفيد حكاية الأقوال فيه : هو كالمعرفة ، لما يروى من الحديث الذى لا دليل على صحته ، وأمثال ذلك ، وأما القسم الأول الذى يمكن معرفة الصحيح منه : فهذا موجود فيما يحتاج إليه . ولله الحمد .

ويقول ابن تيمية فى موضع آخر : «وغالب ذلك : يعنى المسكوت عنه ـــ مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ، ولهذا : تختلف أقوال علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ويأتى من المفسرين خلاف ذلك ، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى ، من أى الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب المقتول من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك ، مما أبهمه الله فى القرآن الكريم ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ، ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ

﴿إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده على ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: (قل ربى أعلم بعِدَّتِهم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب، فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وتذكر فائد الخلاف، وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل عن الأهم، تماماً من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً، فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، ويرجع حاملها إلى قول، أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وأكثر مما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور.

ومن يقرأ كتب التفسير يلاحظ أن بعض المفسرين سبقوا إلى الأخذ بهذا المنهج الذى وضعه ابن تيمية إلا أنهم كانوا قلة، منهم ابن كثير، فهو كان ينبه إلى الخلاف بعد أن يستوعب الأقوال، ثم يستحسن ما يعتقد أنه صحيح منها، ويبدى تشككه فيما لا يثق فيه. فى حين أن غيره لم يفعلوا شيئاً من هذا، بل كانوا يذكرون روايات أهل الكتاب وتأويلاتهم وقصصهم دون تعقيب، وهذا من شأنه أن يوحى للقارىء بصحتها فضلاً عن ارتباطها بالسياق الذى وردت فيه، ولذلك فإن كتب التفسير بعامة وقصص القرآن بخاصة، يجب أن يعاد النظر فيها لتخليصها مما تحتويه من إسرائيليات وأساطير وخرافات، بل إن إعادة النظر هذه يجب أن تشمل كذلك كتب التراث الأخرى للكشف عما فيها من روايات غير

(٤٨) سورة الكهف، الآية ٢٢.

صحيحة وأحداث مفتراة، وأقوال لا تتفق مع الإسلام فى كثير أو قليل، أو على الأقل مراجعتها قبل إعادة طبعها وإضافة بعض الحواشى إليها يتم التنبيه فيها إلى ما فى المتن من مثل هذه الأمور.

وليس أدل على وجوب ذلك مما توصل إليه البحث الذى قام به أحد الباحثين وهو السيد مرتضى العسكرى، وتبين منه أن بعض المؤرخين الأعلام كابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ فى كتابه الكبير «تاريخ مدينة دمشق» والذهبى فى كتابه «تاريخ الإسلام» نقلاً عن كتابين، الأول: «فى الفتوح والردة» والثانى: «الجمل وسيرة عائشة وعلى» ألفهما فى القرن الثانى للهجرة «عمر بن سيف التيمى» وعنهما نقل المؤرخون ممن جاءوا بعدهما دون أن يتصوروا أنهما مظنة اتهام، حتى وقف عندهما الباحث فوصل به البحث الدقيق المقارن، والنقد الفاحص الثاقب إلى أن «الأسطورة السبئية» قد اختلقت صحابة وهميين، واخترعت أسانيد موضوعة، وزينت أخباراً جازت على المؤرخين فيما نقلوا من رواية «سيف ابن عمر التيمى» [٤٩].

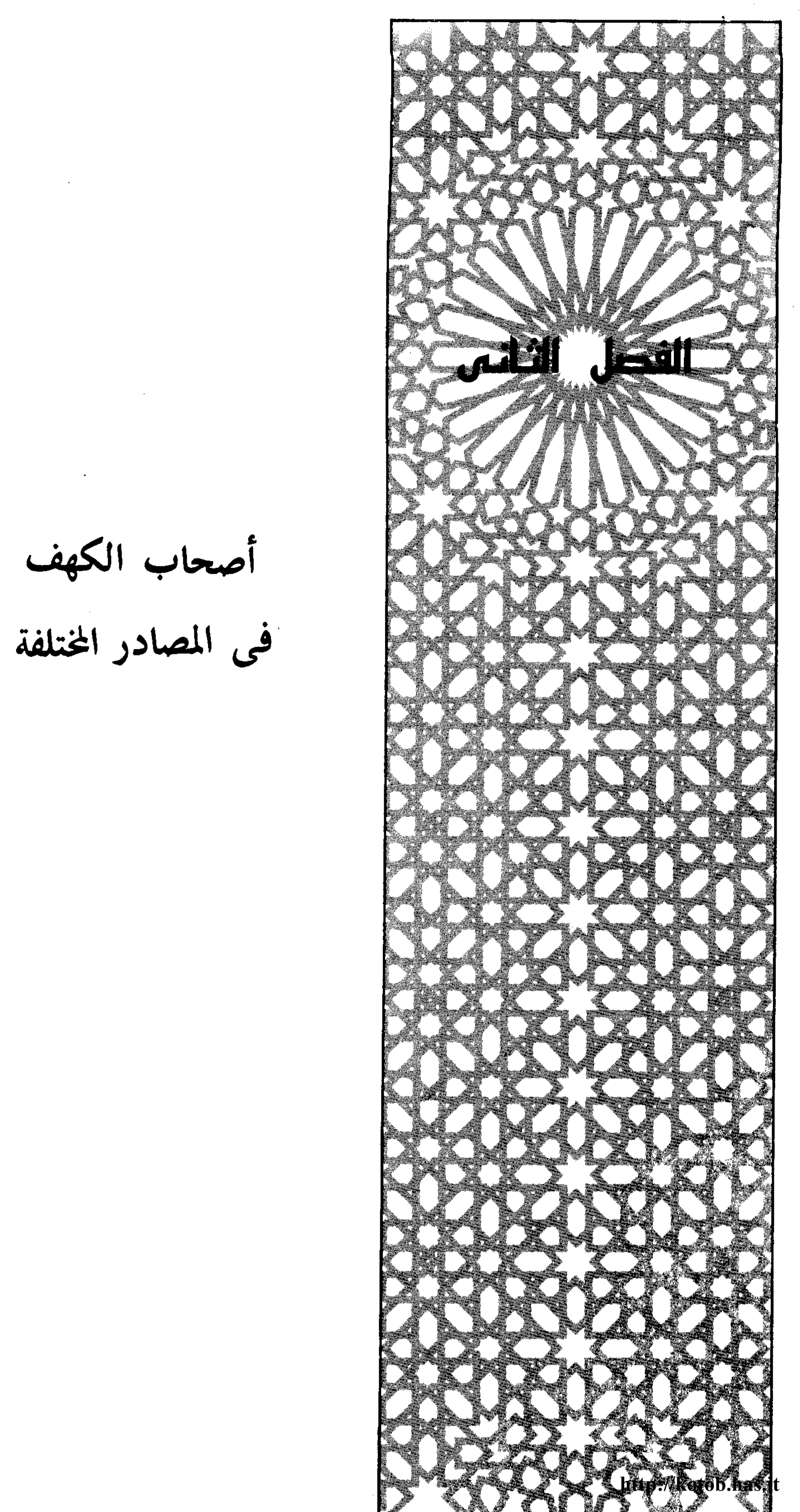
كذلك نبه ابن خلدون إلى ما فى النقل عن الغير دون تمحيص وتثبت من أخطار عظيمة ومضار جسيمة. «كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو ثميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط، ولذلك فإنه بعد أن يعرف فن التاريخ بقوله: «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا» يوجه المؤرخين والمفسرين إلى ما يجب عليهم عندما يكتبون فيه فيقول: «فهو، أى التاريخ، يحتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران

---

(٤٩) دكتورة عائشة عبد الرحمن، المرجع السابق، صفحة ٢٧.

والأحوال فى الاجتماع الإنسانى، ولاقيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق» (٥٠).

(٥٠) المقدمة، صفحة ١٢.



أصحاب الكهف
فى المصادر المختلفة

أصحاب الكهف فى المصادر المختلفة

أولاً : أصحاب الكهف فى المصادر اليهودية :

لم يرد لأصحاب الكهف ذكر فى المصادر اليهودية ، ولذلك فإن قصة أصحاب الكهف التى وردت فى القرآن الكريم تعد من القصص القليلة التى لم يرد لها ذكر فى التراث الدينى لليهود ، بعكس قصص القرآن الأخرى التى نجد لها ما يقابلها فى قصص التوراة وغيرها من القصص الدينى الذى وقعت أحداثه بعد التوراة ، ثم أقحمه اليهود على كتبهم الدينية .

وعدم وجود ما يشير ــ ولو من بعيد ــ إلى قصة أصحاب الكهف فى كتب اليهود ، يرجع إلى سبب واحد ، وهو أن الفتية الذين قال عنهم يهود المدينة : إنهم « ذهبوا فى الدهر الأول » (أى أصحاب الكهف) كانوا من اليهود الذين آمنوا بالمسيح عيسى بن مريم بشرًا رسولاً ، وهو الذى بشرت به التوراة على لسان أنبياء بنى إسرائيل المتعاقبين ، ومهد لظهوره النبى يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) . ولما كان زعماء اليهود وكذلك عامتهم يتوقعون أن يكون النبى المرتقب على شاكلة موسى وداود وسليمان ، أى نبيًّا محارباً وقائداً عسكريًّا ، وزعيماً سياسيًّا يحقق لهم النصر على أعدائهم ، بل وينكل بهؤلاء الأعداء فيشردهم ، بل ويذبحهم ، ويسبى نساءهم ، وينهب أموالهم ، كما هى عادة بنى إسرائيل دائماً ، وكما تحدثت توراتهم ، فإنهم ــ أى اليهود ــ أصيبوا بخيبة أمل عظيمة عندما وجدوا النبى الجديد (المسيح) يدعوهم إلى السلام والتسامح والحب والاستعداد لقيام ملكوت الله ، فسخروا منه وناصبوه العداء ، وغضبوا على كل من تبعه منهم وآمن بدعوته ، واعتبروه خارجاً على شريعة موسى وعدوًّا لليهود يجب عقابه والتنكيل به ، فكانوا يرجمون من تصل أيديهم إليهم من هؤلاء المؤمنين ، أما من لم تصل أيديهم إليهم

كأصحاب الكهف، فإنهم عاقبوهم بالتجاهل وتحريم ذكرهم، وهو ما فعلوه حين تعمدوا أن تَخْلو أسفارهم من أى إشارة إلى الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول، ومع ذلك ــ طبقاً لما ورد فى كتب السيرة والتفسير الإسلامية ــ فإن الذين حرضوا مشركى قريش على توجيه بعض الأسئلة إلى الرسول ﷺ بقصد اختبار صحة نبوته، ومن بنيها السؤال الخاص بأصحاب الكهف، أو «الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول وما كان من أمرهم» كانوا هم يهود المدينة (يثرب) مما يدل على أنهم كانوا يعرفون قصتهم.

وعلى أى الأحوال فإن عدم وجود قصة أصحاب الكهف فى التراث اليهودى لا يعنى أنها لم تحدث، فوجودها أو عدم وجودها لا أهمية له، خاصة بعد ما تبين من أن اليهود قد زوروا التاريخ وشوهوا وقائعه خدمة لمصالحهم، وتأييداً لمزاعمهم وافتراءاتهم، فهم معروفون بالجرأة على الحق إلى الدرجة التى لم يتورعوا معها عن الكذب على الله وتزوير كتابه المنزل على موسى عليه السلام.

ثانياً: أصحاب الكهف أو النيام السبعة فى المصادر المسيحية:

وردت قصة أصحاب الكهف أول ما وردت فى التراث الدينى المسيحى تحت اسم «النيام السبعة» أو «نيام أفسوس السبعة» منسوبة إلى الأسقف السورى «چيمس» من أهل ساروج؛ ولهذا سمى «چيمس الساروجى» ويقول إدوارد جيبون فى كتابه «سقوط الإمبراطورية الرومانية» [1] نقلاً عن «اسمانى» الذى يعد أول من أشار إلى هذه القصة فى كتابه قائلاً: «ومن بين قصص التاريخ الدينى أرانى مسوقاً إلى انتقاء القصة الشهيرة، قصة النيام السبعة، الذين يتفق تاريخهم المزعوم مع عهد «ثيودوسيوس الأصغر» وغزو الوندال لأفريقيا. فعندما تعرض المسيحيون لاضطهاد الإمبراطور ديكيوس، اختبأ سبعة من النبلاء الشبان بمدينة أفسوس داخل كهف فسيح غائر فى سفح جبل مجاور للمدينة. وهناك قضى عليهم الطاغية بالهلاك بأن أصدر أوامره بأن يغلق عليهم مدخل الكهف إغلاقاً محكماً بكومة من الأحجار الضخمة، وللحال راح الشبان فى سبات عميق طالت مدته بصورة معجزة إلى مائة وسبع وثمانين سنة، دون أن تتأثر قوى الحياة فيهم. وفى نهاية تلك الفترة أزاح عبيد أدوليوس، الذى آل إليه ميراث الجبل تلك

(١) الجزء الثانى ص ٢٦٦.

الأحجار الضخمة ليشيدوا بها بناء ريفياً، ونفذ ضوء الشمس إلى داخل الكهف، فكان هذا إيذاناً باستيقاظ النيام السبعة، وشعر هؤلاء النيام بالجوع بعد نوم ظنوه ساعات قليلة، فقرروا أن يعود واحد منهم سرًّا إلى المدينة لشراء ما يحتاجون إليه من خبز، ووقع اختيارهم على جامبليكوس، ولم يستطع الشاب ـ إذا جاز لنا أن نطلق عليه هذه التسمية ـ أن يتعرف على منظر بلده المألوف لديه، وزادت دهشته عندما رأى صليباً كبيراً منقوشاً على الباب الرئيسى بمدينة أفسوس، وارتبك الخباز عندما شاهد ملبسه الغريب وسمع لغته القديمة، ثم قدم له جامبليكوس عملة عتيقة من عهد ديكيوس على أنها العملة المتداولة فى الإمبراطورية، وهنا ارتاب الخباز فى أن الشاب قد عثر على كنز خفى، فساقه أمام القاضى، وترتب على ما دار بين الرجلين من استفسارات أن وضحت القصة المذهلة، وهى أن قرنين من الزمان تقريباً قد انصرما منذ أن فر الشاب وأصدقاؤه من غضب الطاغية الوثنى، وسارع إلى زيارة كهف النيام السبعة أسقف أفسوس، والكهنة، والحكام، والشعب، بل الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه، كما يقال. وما إن منح هؤلاء السبعة بركتهم للحاضرين وقصوا عليهم قصتهم حتى وافتهم المنية فى سكون وهدوء، ويعلق «جيبون» على هذه القصة قائلاً: «ولا يمكن أن يكون اليونان الحديثون هم الذين لفقوا هذه الأسطورة العجيبة بدافع من السذاجة والتقوى؛ لأن القصة المتواترة الصحيحة يمكن تتبعها إلى تاريخ انقضاء خمسين سنة على حدوث المعجزة المزعومة. فالأسقف السورى چيمس من أهل ساروج، الذى ولد بعد سنتين من موت ثيودوسيوس الأصغر، خصص إحدى عظاته المائتين والثلاثين للإشادة بشبان أفسوس. وقبل أن ينتهى القرن السادس كانت أسطورتهم قد ترجمت من اللغة السريانية إلى اللاتينية بفضل عناية جريجورى، أسقف مدينة تور، كما أن الطوائف الشرقية المعادية تحتفظ بذكراهم بالاحترام نفسه، وكذلك دونت أسماؤهم بصورة مشرفة فى التقويم الرومانى والحبشى والروسى».

ويضيف «جيبون» إلى ذلك قوله: «ولم تقتصر شهرتهم على العالم المسيحى وحده، بل إن هذه القصة الشائعة التى لابد أن النبى محمداً قد سمعها عندما ذهب بقوافله إلى أسواق سوريا، قد نزلت فى القرآن كوحى إلهى، وأخذت الأمم التى تدين بالإسلام من البنغال إلى إفريقيا، قصة النيام السبعة ونمقتها».

كذلك جاءت قصة النيام السبعة فى دائرة المعارف للأخلاق والديانات، ولكن بتفصيل أكبر من ذلك الذى أوردها به جيبون فقد جاء بها :

إن الإمبراطور «ديسيس» Decius يدخل في المدينة اليونانية القديمة «أفسيس» ويجدد فيها عبادة الأوثان، ويأمر أهل المدينة والمسيحيين بصفة خاصة، بتقديم الذبائح والقرابين لها، وأقلع عدد من المسيحيين عن عقيدتهم النصرانية. وبقى عدد منهم متمسكين بديانتهم، محتملين اضطهاد رجال الحكومة، وتعذيبهم. وهنا يقدم إلى الإمبراطور سبعة من الشباب (وتقول بعض الروايات: إنهم كانوا ثمانية) وكانوا مقيمين فى السراى، وقد اختلف فى أسمائهم وقد اتهموا باعتناق النصرانية سرًّا، وهو يرفضون تقديم القرابين إلى الأوثان، ويمهلهم الإمبراطور لمدة طمعاً فى أن يرجعوا إلى صوابهم، ويتوبوا عن النصرانية، أو يخرجوا من المدينة.

وفى خلال هذه المدة يغادر هؤلاء الشباب المدينة، ويأوون إلى كهف فى جبل قريب كان يسمى بـ Anchilus ويخرج أحدهم واسمه Diomedes أو Imblicus متنكراً،وفى ثياب متسخة مرقعة ــ إلى البلد ؛ليتعرف الأخبار، ويشترى الطعام، ولا يمضى على ذلك كثير حتى يرجع «ديسيس» إلى المدينة، ويأمر بأن يقدم إليه الشباب، ويخبر Diomedes زملاءه بهذا الأمر السلطانى، فيتناولون الطعام، وقد استولى عليهم الحزن والقلق، ثم يستغرقون فى نوم عميق طويل يسلطه الله عليهم، ولما لم يهتد الإمبراطور إلى هؤلاء الشباب، طلب آباءهم، فأبدوا براءتهم من هذا التهرب، وأن تكون لهم يد فى هذه المؤامرة، وأخبروه بأنهم مستترون فى جبل Anchilus وهنا يأمر الإمبراطور بأن يسد مدخل هذا الكهف بحجارة كبيرة، فيموتوا هناك حتف أنوفهم، ويبقوا مَوْءودين فى هذه المغارة، ويكتب مسيحيان، أحدهما Theodore والآخر Rufinus قصة هؤلاء الشهداء الشباب على لوحة من معدن، ويدفنانها تحت الحجارة التى سد بها الغار، وبعد أن مضى عليهم ثلاثمائة سنة وسبع سنوات فى عهد الإمبراطور ثيودوسيس الثانى Theodosius تقوم ثورة يقودها بعض المسيحيين، وتنكر جماعة منهم على رأسهم القس ثيودور Theodore عقيدة بعث الأموات وإمكان حشر الأجساد، فيفزع ذلك الإمبراطور المسيحى ويشغل باله، وهنا يلهم الله رجلاً اسمه Adolius أن

يبنى زريبة لغنمه فى الميدان الذى يقع فيه الكهف، ويستخدم البناءون لبناء هذه الزريبة الحجارة التى سد بها هذا الغار، وهكذا ينكشف هذا الكهف ويوقظ الله هؤلاء الشباب فى هذه الساعة، فيخطر ببالهم أنهم ناموا ليلة، ويتواصون بأن يموتوا شهداء على يد «ديسيس» إذا ألجأتهم الضرورة.

ويذهب أحدهم وهو Diomedes إلى المدينة كالعادة ويقف حائراً أمام الصليب المنقوش على رتاج المدينة حتى يضطر إلى أن يسأل أحد السابلة: هل هى مدينة أفسس حقاً، ويصبح تواقاً إلى إخبار زملائه بهذا الانقلاب العظيم، ولكنه يملك عاطفنه ويشترى الطعام، ويقدم فى ثمنه النقود التى كان يحملها، وهى العملة التى كان يتداولها الناس فى عهد ديسيس، ويعتقد صاحب الدكان وأهل السوق أن الشاب قد عثر على كنز قديم، ويريدون أن يكون لهم نصيب فيه، ويهددون الشاب ويخوفونه، ويقودونه من بين وسط المدينة وأسواقها، ويتألب عليه الناس، ويبحث الشاب فى هذا الجمع الحاشد عن رجل يعرفه، فلا يجده، ويستخبره الأسقف حاكم البلد عن شأنه، فيخبره بالقصة بطولها، ويدعوهم إلى أن يرافقوه إلى الكهف، ويزوروا زملاءه الآخرين، فيرتقون قمة الجبل، وهناك يجدون لوحتين رصاصيتين تصدقان قصة الشاب، فيدخلون الكهف ويجدون زملاءه أحياء، يغشى وجوههم النور والسكينة، وينمى الخبر إلى الإمبراطور Theodosius فيزور الكهف، وهنا يقول له Maximilian أو Achillides أو شاب آخر: إن الله قد سلط عليهم النوم ليبرهن على الحشر والنشر، ثم أيقظهم قبل أن تقوم القيامة، وبعد ذلك مات الشباب موتهم الأخير، وقد بنى هيكل رومى فى تذكارهم (٢).

ويلاحظ على هذه القصة التى أوردتها دائرة المعارف للأخلاق والديانات ظهور شخصيتين جديدتين هما المسيحيان اللذان كتبا قصة الفتية عندما دخلوا الكهف، وتم إغلاقه عليهم بأمر من الإمبراطور ديكيوس ويسمى أحدهما ثيودور Theodore والآخر Rufinus وقد كتبا القصة على لوح من المعدن دفناه تحت الحجارة التى سد بها الكهف، أما القصة التى رواها (جيبون) فلم يرد فيها ذكر لأحد قام بكتابة قصة الفتية، وإنما ذكر فقط أن الأسقف جيمس الساروجى الذى كان كاهناً لمقاطعة ساروج فى العراق، هو الذى كان أول من ذكر هذه القصة فى

(٢) راجع فى ذلك: محمد تيسير ظبيان، أهل الكهف ص ١٨٨ وما بعدها.

إحدى عظاته ، ولم يبين كيف وصلت إليه أو اتصل علمه بها .

وكان چيمس هذا وقد ولد سنة ٤٥٢ ميلادية ، ومات عام ٥١٨ ، وفى قول آخر أنه قد مات سنة ٥٢٠ ، أى أن ولادته كانت بعد وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الثانى المعروف بالأصغر، فهو من معاصرى الامبراطور جستينيوس الأول الذى حكم من سنة ٥١٨ إلى سنة ٥٢٧ أى أنه حسب القول الثانى الذى يجعل وفاته سنة ٥٢٠ يكون قد عاش العامين الأخيرين من عمره تحت حكم جستنيوس .

أما المستشرق الألمانى فنسنك A.J. Wensinck (٣) فإنه يقول فيما كتبه عن أهل الكهف : «إن قصة أهل الكهف ظهرت لأول مرة فى الشرق فى كتاب سريانى يرجع تاريخه إلى القرن الخامس ، ذكرها ديونيس من تل مهرة ، ووردت عند الغربيين فى كتاب ثيودوسيوس عن الأرض المقدسة ، وأسماء الفتية فى هذه المصادر أسماء يونانية ، وليس هناك اتفاق على ما إذا كانت الرواية التى ذكرها ديونيس قد نقلت عن اليونانية أم أنها كتبت بالسريانية من أول الأمر» .

ويتفق فنسنك مع جيبون فيما قاله من أن القرآن يقصد بأصحاب الكهف الإشارة إلى الفتية الذين جرت العادة فى الغرب على تسميتهم «نوام أفسوس السبعة» .

ومما رواه «جيبون» عن «النيام السبعة» يتبين أن عدد الفتية كان سبعة ، وأن سباتهم العميق طالت مدته إلى مائة وسبع وثمانين سنة ، وأن الكهف الذى لجئوا إليه ولبثوا فيه نياماً كل هذه المدة يقع قريباً من مدينة أفسوس بآسيا الصغرى ، وأن الملك الوثنى الذى أوى الفتية إلى الكهف فى عهده كان يسمى ديكيوس (٢٤٩ ــ ٢٥١) ميلادية .

أما الملك الذى بعث الفتية فى عهده فهو الملك ثيودوسيوس الأصغر أو الثانى (٤٠٨ ــ ٤٥٠) كذلك يعد بياناً هامًّا ما ذكره جيبون من أن الفتية عندما اختبئوا فى الكهف أصدر ديكيوس أوامره بأن يغلق عليهم مدخل الكهف إغلاقاً محكماً بكومة من الأحجار الضخمة . وأنهم استيقظوا لما أزاح العبيد تلك الأحجار الضخمة ليشيدوا بناء ريفيًّا ، فنفذ ضوء الشمس إلى داخل الكهف .

---

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، طبعة الشعب ، المجلد الثالث ص ٤٥٥ .

كذلك جاء ذكر لقصة أهل الكهف فى الكتاب الذى وضعه سعيد بن البطريق (٤) وأسمـــاه «نظم الجوهر» قال ابن البطريق : وفى ثمانى سنين من ملك ثدوس ظهـر الفتية الذين كانوا هربوا من « ذاقيوس » الملك ، واختفوا فى الكهف .

ذلك أن الرعاة على طول الزمان كانوا إذا مرُّوا بذلك فى الموقع الذى هو الكهف قلعوا الطوب المبنى على باب الكهف حتى عاد مفتوحاً كالباب ، فلما انتبه الفتية توهموا أنهم كانوا نياماً ليلة واحدة ، فقالوا لصاحبهم الذى كان يذهب يبتاع لهم الطعام : امض واشتر لنا طعاماً واستعلم خبر « ذاقيوس » .

فلما خرج إلى باب الكهف نظر إلى البنيان والهدم ، ثم مضى حتى بلغ المدينة وهى « أفسس » فرأى باب المدينة عليه صليب كبير منصوب ، فأنكر ذلك فى نفسه ، وقال : أحسب أنى نائم ، فأقبل يمسح عينيه وينظر يميناً وشمالاً : هل يرى من يعرفه ، فلم ير ، فبقى متحيراً وقال : لعلى أخطأت الطريق ، ولعل هذه مدينة أخرى .

ثم دخل المدينة فدفع دراهم مما كان معه ، عليها صورة «ذاقيوس» الملك ، فأنكروا عليه ، وقالوا : لعله أصاب كنزاً ، ثم قالوا : من أين لك هذه الدراهم ، وإلا قتلناك ؟ فلم يكلمهم .

وصاح الناس ، فاجتمع إليه خلق كثير وكلموه فلم يكلمهم ، فصاروا به إلى بطريق المدينة ، وكلمه فلم يتكلم ، فهدده فلم يتكلم ، فجاء إليه أسقف المدينة فكلمه وخوفه وقال : إنك إن لم تكلمنى وتقل لى من أين لك هذه الدراهم قتلتك ، إنما كان يمتنع عن الكلام خوفاً من « ذاقيوس » الملك .

فقالوا له : إنه قد مات وملك بعده جماعة ملوك ، فضربوه حتى آلمه الضرب فخبرهم بحاله على جليتها فقالوا له : إن ذاقيوس قد مات وملك بعده ملوك كثيرة ، وملك اليوم «ثدوس» وقد ظهر دين النصرانية .

---

(٤) سعيد بن البطريق وكنيته ابن البطريق ، أقيم بطريقاً على الإسكندرية فى العام الأول لخلافة القاهرة (٣٢٠ هـ ــ ٩٣٢ م) وله من العمر ستون سنة وبقى فى منصبه لحين وفاته عام ٣٢٨ هـ .

ثم سار معهم إلى الكهف فنظروا إلى أصحابه والصندوق النحاس الذى فيه الصحيفة الرصاص مكتوب فيها قصتهم وخبرهم ، فكثر تعجبهم وكتبوا إلى الملك يعلمونه بخبرهم ، فركب وسار إلى مدينه أفسس فنظر إليهم وكلمهم .

وبعد ثلاثة أيام دخل إليهم فوجدهم أمواتاً ، فأمر أن يتركوا فى الكهف ولا يخرجوا ، ولكن يدفنون فيه وتبنى عليهم كنيسة ، وتسمى بأسمائهم ويعيد لها عيد فى كل سنة فى ذلك اليوم ، وانصرف إلى القسطنطينية .

قال : فمن وقت هرب الفتية من ذاقيوس إلى الكهف ، إلى الوقت الذى ظهروا فيه وماتوا ، مائة وسبع ، أو تسع وأربعون سنة ، وذكر شاروبيم فى كتابه (الكافى) أن أهل الكهف كانوا من سكان منبج وأن كهفهم كان بها (٥) .

وهناك دراسات حديثة لموضوع (أهل الكهف) منها الدراسة التى أجراها المستشرق الفرنسى (لويس ماسينيون) الذى نشر كتاباً عام ١٩٦١ باسم (النائمون السبعة ـــ أهل الكهف) باللغة الفرنسية أتى فيه ببعض البيانات والاستنتاجات التى تدعم وجهة نظره الدينية ، وقال نقلاً عن الدكتور جيشوند : (لقد كان لأهل الكهف فضل كبير على تقوية إيمان المسيحيين فى مدينة (أفسوس) وذلك لأن المسيحيين نظروا إلى نوم السيدة مريم المجدلية والقديس يوحنا كنوم أهل الكهف من حيث إخلادهم للرقاد ثم بعثهم) .

ومن هذه الدراسات أيضاً الدراسة التى أجراها (جان كلود بيكارد) وهو فرنسى أيضاً ، والتى أطلق فيها على قصة النيام السبعة عنواناً هو (حجر الزاوية للحوار الإسلامى المسيحى) ركز فيها على ما أسماه اتفاق الديانتين على فكرة (الإخلاص والفناء فى عبادة الله ، والصمود فى وجه الاضطهاد والتعذيب ، وإثبات نظرية إحياء الجسد والروح (٦) .

ثالثاً: قصة أهل الكهف فى المصادر الإسلامية:

بغض النظر عما ورد بشأن (أهل الكهف) فى كتب المفسرين والمؤرخين وغيرهم ، فإن قصة أهل الكهف بشكلها الصحيح والمحدد ، وردت فى القرآن

(٥) محمد عزة دروزه ، تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى بلاد الشام ص ٣٢٣ .

(٦) راجع محمد تيسير الظبيان ، أهل الكهف ص ٤٥ .

الكريم فى السورة رقم ١٨ التى تحمل نفس الاسم أى (سورة الكهف) وهى مكية فيما عدا بعض آياتها، فقد نزلت بالمدينة. وليس فى الأحاديث النبوية ولا فى أقوال الصحابة ما يشير إلى تفاصيل هذه القصة. فالقرآن الكريم هو المصدر الوحيد لمجمل هذه القصة التى وردت فى سورة الكهف، التى كان نزولها فى الفترة السابقة على هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وهى الفترة التى عدلت قريش فيها عن السياسة التى تعتمد على السخرية من الرسول والاستهزاء به، واتهامه وتخويفه واستعداء الناس عليه، إلى سياسة جديدة تعتمد على الإيذاء والتعدى والاضطهاد والضغط الاقتصادى، وفرض العزلة عليه وعلى أتباعه من المؤمنين ويقول المودودى (٧): إن هذه السورة نزلت قبل هجرة الحبشة، فرويت قصة أصحاب الكهف فى الوقت الذى كان المسلمون يضطهدون، ويُنكل بهم، ليثبتوا ويتشجعوا، ويعرفوا ماذا فعل المؤمنون من قبل ليحفظوا إيمانهم».

ومما يلاحظ على هذه السورة أن القصص هو العنصر الغالب فيها، ففى أولها تجىء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفى وسطها تجىء قصة موسى مع العبد الصالح، وفى نهايتها قصة ذى القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها (٨).

وقد ورد فى سبب نزول قصة أهل الكهف ونزول قصة ذى القرنين، أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول ﷺ ـ عنها وعن الروح، أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود باعتبارهم أهل كتاب أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول ﷺ، فصاغوا لهم ثلاثة أسئلة، أحدها خاص بأهل الكهف، والثانى خاص بذى القرنين، والثالث خاص بالروح.

وفيما ذكره ابن هشام (٩) أن قريشاً بعثت بالنضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته،

(٧) تفسير سورتى الكهف ومريم ـ ترجمة أحمد إدريس ص ٨.
(٨) الأستاذ سيد قطب، فى ظلال القرآن الجزء الرابع ص ٢٢٥٦.
(٩) السيرة النبوية الجزء الأول ص ٣٠٠.

وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، فَرَوْا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح : ما هى ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل ، فهو رجل مُتَقَوِّل ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو حتى قدما مكة على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرَوْا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كانَ طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هى ؟ قال : فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً ، ولم يستثن (أى لم يقل إن شاء الله) فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون ــ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه فى ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

ويرى المودودى (١٠) أن السؤال الثالث لم يكن عن الروح ، ولكن كان عن حقيقة قصة موسى مع العبد الصالح ، وهو يرتب الأسئلة بحسب هذا الرأى على النحو التالى : السؤال الأول : من هم أصحاب الكهف ؟ والثانى : ما هى حقيقة

(١٠) المرجع السابق ص٨.

قصة موسى والرجل الصالح ؟ والثالث : ما هى حكاية ذى القرنين ؟ ويستند فيما ذهب إليه إلى أن السؤال الخاص بالروح أجيب عنه فى سورة الإسراء، وليس فى سورة الكهف ، وبين السورتين عدة سنوات ، وقد رويت فى سورة الكهف ثلاث قصص لا اثنتان ، وعلى هذا يرى أن السؤال الثانى فى الحقيقة كان عن الرجل الصالح (الخضر) لا عن الروح وهو نفس ما ذهب إليه السيد الطباطبائى فى تفسيره المسمى (الميزان).

وربما يكون هذا القول من المودودى ــ رحمه الله ــ هو الصحيح ، حيث إنه وردت أحاديث تدل على أن السؤال عن الروح جاء على حدة دون السؤال عن الفتية وذى القرنين ، ففى حديث عمر بن حفص بن غياث مرفوعاً إلى عبد الله قال : بينما أنا أمشى مع النبى ﷺ فى حرث وهو متكىء على عسيب ، إذ مر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقالوا : ما رأيكم إليه لا يستقبلكم بشىء تكرهونه ، قالوا : سلوه. فقام بعضهم فسأله عن الروح ، قال : فأسكت النبى ﷺ فلم يرد عليه شيئاً ، فعلمت أنه يوحى إليه ، قال : فقمت مكانى فلما نزل الوحى قال :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١١) رواه مسلم والبخارى .

ومعنى هذا أن السؤال عن الروح وجهه اليهود إلى الرسول بعد هجرته إلى المدينة ، فى حين أن السؤال عن الفتية وذى القرنين وجهه إليه مشركو قريش قبل هجرته من مكة . ولشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى رأى فيما رواه محمد بن إسحاق عن بعث قريش وفداً منهم إلى أحبار يهود بالمدينة وسؤاله إياهم عن أسئلة يختبرون بها صدق النبى ﷺ، واتصاله بالسماء ، فاختاروا لهم أسئلة فيها سؤال عن أصحاب الكهف . فهو يقول : «وعامة المفسرين يربطون كل آية من آيات المخاصمة وآيات الأحكام بقصة ، ويعتقدون أن تلك القصة كانت سبب نزولها ، والمحقق أن الغاية الأساسية من نزول القرآن هى تهذيب

---

(١١) سورة الإسراء، الآية ٨٥

النفوس البشرية، والقضاء على العقائد الباطلة فى المكلفين، وهى سبب مستقل لنزول آيات المخاصمة. ووجود الأعمال الفاسدة، وانتشار المظالم فيما بينهم سبب كاف لنزول آيات الأحكام. وعدم انتباههم وازدجارهم بما جاء فى القرآن من ذكر آلاء الله، وأيام الله، ومايقع عند الموت وبعده، علة حقيقية لنزول آيات التذكير. أما القصص الجزئية، والحكايات المعينة التى أتعب المفسرون نفوسهم فى نقلها، وأطالوا النفس فى ذكرها، والحديث عليها ــ فليس لها دخل كبير، ولا أهمية ذات بال، إلا فى بعض الآيات، حيث وقع التعريض فيها لحادثة من الحوادث وجدت فى زمنه ﷺ، أو قبل ذلك، ولا يزال ما يعرض للسامع من التشوف عند سماع ذلك التعريض إلا ببسط هذه القصة».

ويقول الأستاذ محمد تيسير الظبيان (١٢): وقد جاءت هذه القصة فى أوانها ومكانها، فقد كان المسلمون فى مكة يواجهون نفس الأوضاع التى واجهها الفتية فى أوج الاضطهاد والاستبداد فى عهد القياصرة، وكانوا يعيشون فى فترة تشبه الفترة التى عاش فيها الفتية المؤمنون قبل أن يغادروا البلد، ويلجئوا إلى الكهف، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ (١٣).

ودواوين الحديث، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم والقسوة، والتعذيب والتنكيل، وتحكى من أخبار محنة بلال، وعمار، وخباب، ومصعب، وسمية، وأصحابهم ما تقشعر منه الأبدان، ويشمئز منه الوجدان، ويصور القرآن والسيرة الجو الرهيب الخانق، الذى أحاط بالمسلمين فى مكة، الجو الذى لا تظهر فيه بارقة أمل، ولا يتفتح فيه منفذ يدخل منه النور والهواء، فكأنهم كانوا بين طبقى الرحى، فى براثن الأسد الضارى، ولا تعبير أدق من تعبير القرآن:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ

(١٢) المرجع السابق ص ٨.

(١٣) سورة الأنفال، الآية ٢٦.

﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ (١٤).

هنالك ينزل الوحى، ويقص عليهم القرآن قصص الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والعزة بعد الذلة.. فقص الله فى هذه الفترة الرهيبة، التى يستولى فيها اليأس والتشاؤم، وتزيغ الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر ـ قصة يوسف مع إخوته، وقصة موسى مع فرعون، وقص عليهم قصة أصحاب الكهف مع الملك الجبار. والسلطان الطاغية، وهى قصص تختلف عصورها وبيئاتها، وتختلف فيها الأشخاص الذين تدور حولهم القصة وتتفق فى غايتها، وتتشابه فى نهايتها، وتتفق على نقطة واحدة، وهى الإرادة القاهرة التى تنصر المؤمن على الكافر.

ونضيف إلى هذا القول أن قصة أهل الكهف، وقد نزلت قبل الهجرة بعامين أو ثلاثة، إنما كانت تمهد لهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وهى الهجرة التى تخللها لجوءُهُ إلى الغار حتى لا يصل إليه كفار مكة بعد أن فشلت محاولتهم لقتله غيلة وهو نائم. ولعل ابن كثير قد لمس هذا التشابه بين الحادثين، حادث الكهف وحادث الغار، عندما أشار إلى هروب الفتية إلى الكهف وبحث الملك الطاغية عنهم فقال: إنه لم يظفر بهم وعمى الله عليهم خبرهم. كما فعل بنبيه ﷺ وصاحبه الصديق حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش فى الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندما قال النبى ﷺ ـ حين رأى جزع الصديق فى قوله: «يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا» فقال ـ «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» وقد قال الله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥).

---

(١٤) سورة التوبة، الآية ١١٨.

(١٥) سورة براءة، آية ٤٠.

ولاشك أن ما قاله «الدهلوى» عن عامة المفسرين وتعمدهم ربط ايات القرآن بالقصص، لاعتقادهم أن هذه القصة أو تلك كانت سبب نزول الآيات. هذا القول منه صحيح، حيث إن الباحث فى أسباب نزول الآيات كثيراً ما يجد أمامه كما هائلاً من القصص الذى يتحدث عن أسباب هى فى أغلب الأحيان أبعد ما تكون عن الأسباب الحقيقية. وقد بينا فى الفصل الأول من هذه الدراسة الأضرار التى تسبب فيها القُصاص وغيرهم ممن أخذ عنهم.

موقف المفسرين والمؤرخين المسلمين من قصة أهل الكهف:

من يقرأ كتب التفسير والكتب التاريخية الإسلامية يلاحظ أن المفسرين والمؤرخين المسلمين ينقسمون إلى فريقين، سواء فيما يتعلق بالتفسير أو فيما يتعلق بتناول الوقائع التاريخية، وهو الانقسام الذى فرضه المنهج الذى أخذ به كل فريق عند دراسته للأمرين، فبينما نجد الفريق الأول ينحو فى تفسيره لقصص القرآن نحو الاستقصاء والإحاطة بقصد إرضاء فضول المهتمين بهذا القصص الدينى مما جعله لا يتحرى الدقة فيما رواه من أخبار وما جمعه من نقول امتزجت فى أكثر الأحيان بالخرافات والأساطير والإسرائيليات، ومن هذا الفريق الطبرى وابن عساكر والذهبى والمسعودى — فإن الفريق الثانى يلتزم فى تحليله لقصص القرآن الكريم بحدود النص القرآنى، وذلك بتوضيح ما فى القصة من إشارات وعبر، والإجابة عما أثير فيها من مشكلات وشبهات وإجلاء عوامل التأثير فى أسلوبها البيانى، أو حججها العقلية، أو لمساتها الوجدانية. وأصحاب هذا المنهج يعتمدون غالباً طريقة تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة والأثر الصحيح، وإذا أوردوا بعض الأخبار فى القصة عن أصحاب السير، فإما لأنها متواترة مشهورة تلائم حقائق القرآن والسنة، وتلقى الأضواء على ما يحتاج إلى الإيضاح والبيان، وإما لأنها مزيفة تحتاج إلى الرد والتنبيه. ومن هذا الفريق ابن كثير والرازى والزمخشرى والبيضاوى من القدامى، ومن المحدثين محمد عبده وسيد قطب ومحمد الطاهر بن عاشور [١٦].

وقصة أهل الكهف لا تختلف عن غيرها من قصص القرآن من حيث موقف

---

(١٦) الدكتور التهامى نقرة، سيكولوجية القصة فى القرآن ص ٣١.

الفريقين منها، فبينما ينحو الفريق الأول فى تفسيره لها وسردها نحو الاستقصاء والإحاطة، مستعينين بالإسرائيليات والنصرانيات، على الرغم مما فيها من مبالغات وأخطاء، وما يعيبها من تناقض وعدم اتساق، فإن الفريق الآخر يلتزم فى تفسيره للقصة بالغاية التى وردت من أجلها، مستعيناً على بلوغ هدفه ببيان المعانى، وإيضاح المواقف، والكشف عما قد يكون هناك من علاقات بين المواقف، وإبراز حيوية السياق والتنبيه إلى ما فيه من إيقاع واتساق، سواء فى ذاته أو فى علاقته بغيره من القصص.

ومن يقرأ ما ورد فى كتب الفريق الأول عن أهل الكهف يلاحظ الافتعال الواضح والحشو المتعمد والإضافات الغريبة عن السياق مما تضمنته التفاصيل الكثيرة التى نقلت عن المصادر غير الإسلامية، فهم يذكرون أسماء الفتية، واسم الكلب الذى صحبهم إلى الكهف، واسم الملك الذى فروا منه، واسم الملك الذى بعثوا فى عهده، وكذلك اسم المدينة التى يقع الكهف قريباً منها، وغير هذا وذاك من التفاصيل التى يناقض معظمها ما ورد فى القرآن. وفيما عدا ابن كثير الذى حرص على إبداء ملاحظاته وبيان تحفظاته على ما أضافه إلى تفسيره من الإسرائيليات وغيرها مما قد يساعد القارىء على إدراك زيف الروايات غير الإسلامية، فإن غيره ممن ينتمون إلى الفريق الأول لم يحذوا حذوه، وإنما أضافوا ما أضافوه دون تعقيب أو تعليق، حتى بدا كما لو كان حقيقة لا تقبل الشك ولا يجوز التحرى عن مدى صدقها.

وقد لجأ أصحاب هذا النوع من الكتب، سواء أكانت تفاسير أم كتباً تاريخية إلى تفسير الآيات أو تأويلها بقصد رفع التناقض بينها وبين ما أوردوه من تفاصيل، ومن أجل أن يتطابق معناها مع ما ورد فى المصادر النصرانية. وهذا يبدو أوضح ما يكون بالنسبة لعدد الفتية والمدة التى لبثوها فى الكهف، فقد جاء فى بعض الروايات أن عدد الفتية ثمانية، وقيل: إنهم كانوا ثلاثة عشر، وفى روايات أخرى أنهم كانوا ثلاثة، أما عن المدة التى لبثوها فى الكهف ففى الرواية الشائعة المنسوبة إلى الأسقف (چيمس الساروجى) أنها مائة وسبع وثمانون سنة فى حين ذكر سعيد بن البطريق أنهم لبثوا نياماً مائة وسبعاً أو تسعاً وأربعين سنة، فى حين ذهبت رواية أخرى إلى أنهم لبثوا فى الكهف ثلاثمائة واثنين

وسبعين عاماً . وقد أدى هذا الاختلاف سواء فى عدد الفتية أو فى المدة التى لبثوها فى الكهف إلى اختلاف مماثل فيما ذكره المفسرون المسلمون فى هذا الشأن ، مما جعل بعضهم يذهب إلى القول بأن ما ورد فى القرآن فى هذا الصدد ليس على سبيل التقرير ، وإنما على سبيل الإخبار عما كان يقوله قوم الفتية .

كذلك تضمنت بعض الروايات كثيراً من المعلومات التاريخية والجغرافية ، غير أن الكثير منها متناقض ، وبعضها لم يتيسر تعليله تعليلاً مقبولاً ، وهو ما سوف نبينه بعد عرض بعض هذه الروايات ، سواء منها ما ورد فى كتب التفسير أو ما ورد فى الكتب التى تحمل اسم « قصص القرآن » وما أكثرها .

من المفسرين الذين أوردوا ما روى عن أهل الكهف : الطبرى فى تفسيره ، فقد ذكر عدداً من الروايات المختلفة ، إلا أن أكثرها يتفق على القول بأن عدداً من الفتية نبذوا عبادة الأوثان واعتنقوا المسيحية فى مدينة من مدن الروم (اليونان أو آسيا الصغرى) ثم فروا من تلك المدينة وأووا إلى الكهف ، وكان معهم كلب عجزوا عن إبعاده ، وناموا فى هذا الكهف ، ثم جاء الملك الوثنى داقيوس (ويسمى أيضاً داقينوس وداقيانوس) ومعه أتباعه للقبض عليهم ، ولكن لم يستطع أى واحد منهم دخول الكهف ، فبنى عليهم داقيوس باب الكهف ليموت الفتية جوعاً وعطشاً ، ونسى الناس أمرهم بعد ذلك ، وفى يوم من الأيام بعث أحد الرعاة برجاله وأمرهم بفتح الباب ليتخذ من الكهف حظيرة لغنمه ، ولما دخل رجاله الكهف لم يروا أول الأمر الفتية الذين بعثهم الله فى الأجل الذى ضربه ليقظتهم ، وعندما استيقظوا كانوا لا يزالون يملؤهم الفزع والرعب من الخطر الذى نجوا منه ، فعمدوا إلى الحيطة وبعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشترى لهم طعاماً ، ولم يعرف بائع الطعام النقود التى دفعها إليه الفتى ، فقد نام الفتية ثلاثمائة سنة وتسعاً ، وكانت الوثنية قد انقرضت خلال هذه المدة ، وحلت النصرانية محلها ، وفرح الملك بأصحاب الكهف فرحاً عظيماً ؛ لأن بعثهم أيد عقيدة دينية كان البعض يشك فى صحتها ، وهى أن الناس يبعثون بالجسد والروح معاً . ولم يكد الفتى يعود إلى الكهف ثانية حتى ضرب الله على آذانهم مرة أخرى ، فشيدوا فى ذلك المكان كنيسة .

وفى الطبرى رواية أخرى تنسب إلى وهب بن منبه وتقول هذه الرواية: «إنه جاء حوارى من أصحاب عيسى إلى تلك المدينة وأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً، لا يدخلها أحد حتى يسجد له، فلم يدخلها وأتى حماماً قريباً من المدينة، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام البركة على قدومه، وعلقه الفتية فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة، حتى آمنوا به وصدقوه. فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيره الحوارى فاستحيا، ثم رجع مرة أخرى فعيره فسبه وانتهره، ودخل الحمام ومعه المرأة فماتا فى الحمام، فقيل للملك: إن الذى بالحمام قتلهما، فطلبه الملك فلم يجده، فقال: من كان يصحبه؟ فذكر له الفتية، فطلبهم فهربوا إلى الكهف مع صاحب لهم، وتبعهم كلهم أيضاً».

وفى رواية أخرى رواها الطبرى فى تفسيره لقصة أهل الكهف يقول عن عكرمة قال: كان أصحاب الكهف أبناء ملوك الروم رزقهم الله الإسلام، فتفردوا بدينهم واعتزلوا قومهم حتى انتهوا إلى الكهف، فضرب الله على أصمِخَتِهم، فلبثوا دهراً طويلاً حتى هلكت أمتهم، ثم جاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلماً، واختلفوا فى الروح والجسد فقال قائل: تبعث الروح والجسد جميعاً، وقال قائل: تبعث الروح، وأما الجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً، فشق على ملكهم اختلافهم، فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد، ثم دعا الله عزو وجل فقال: يارب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم ما يبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف. ثم يذكر بقية القصة.

أما ابن كثير فإنه يقول عنهم: «ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف، أنهم (أى أصحاب الكهف) كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً فى بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له «دقيانوس» وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغى إلا لله خالق السموات والأرض، فجعل

كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز عنهم ناحيته. فكان أول من جلس منهم أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان، والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدرى أنه مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون ـــ والله يا قوم ـــ أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم ما بأمره فقال آخر: أما أنا فإنى (والله) رأيت ما قومى عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذى يستحق أن يعبد (وحده) ولا يشرك به شيء، هو الله الذى خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما، فقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ (١٧).

فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجّلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذى كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله لهم ذلك، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأوَوْا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليهم خبرهم.

وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، ووقفوا على باب الغار الذى دخلوه، فقالوا:

---

(١٧) سورة الكهف، الآية ١٤.

ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم ، فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم فَفُعِلَ ذلك .

ومن الفريق الذى يفسر القرآن بالقرآن السيد أبو الأعلى المودودى ، ففى تفسير له لسورتى الكهف ومريم ، بدا حرصه واضحاً على الالتزام بهذا المنهج وعلى الرغم من أنه أشار إلى قصة النيام السبعة المسيحية ولم يستبعد أن تكون هى بعينها قصة أهل الكهف فإنه كان حريصاً على تسجيل تحفظاته بشأن نقاط الاختلاف بين القصتين .

أما المرحوم سيد قطب فإنه يقول فى تفسيره (فى ظلال القرآن) ما نصه : « وفى القصة روايات شتى ، وأقاويل كثيرة : فقد وردت فى بعض الكتب القديمة وفى الأساطير بصور شتى ، ونحن نقف فيها عند حد ما جاء فى القرآن ، فهو المصدر الوحيد المستيقن ، ونطرح سائر الروايات والأساطير التى اندست فى التفاسير بلا سند صحيح . وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها ، وعن المراء فيها والجدل رجماً بالغيب » (١٨) .

كذلك نجد الكتب التى تحمل اسم « قصص القرآن » تتحدث عن أهل الكهف نقلاً عما ورد بكتب التفسير ، مع اختلاف بينها فى اعتماد هذه الرواية أو تلك ، فمنهم من نقل عن الطبرى مما هو منسوب إلى وهب بن منبه ، ومنهم من نقل عن ابن كثير مع إضافة بعض التعديلات التى تجعل القصة غير متعارضة مع ما ورد فى القرآن (١٩) .

وقد نسجت دوائر المعارف والموسوعات العربية على نفس المنوال ، فذكرت قصة النيام السبعة بإيجاز ، مثال ذلك ما جاء بالموسوعة العربية الميسرة تحت مادة أهل الكهف : سبعة من الشهداء حبسوا فى كهف أحكم إغلاقه بالقرب من أفسوس أيام اضطهاد الإمبراطور ديسيوس (حوالى ٢٥٠ ميلادية) وبعد فترة طويلة أفاقوا وكأنهم كانوا فى سبات عميق ، وقدموا للإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (المتوفى ٤٥٠ ميلادية) الذى اطمأن إيمانه المتزعزع بسماع قصتهم ، ثم عاد الشبان

---

(١٨) المجلد الرابع ص ٢٢٦١ .

(١٩) محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، أصحاب الكهف ص ٢٧٤ .

إلى كهفهم لمواصلة نومهم إلى اليوم الآخر. قصتهم شائعة فى المسيحية، ورد فى ذكرهم فى القرآن.

أما القاموس الإسلامى الذى وضعه الأستاذ أحمد عطية الله فقد حرص فى روايته للقصة على الالتزام بما ورد فى القرآن بشأن أصحاب الكهف، مكتفياً بالإشارة إلى أن بعض المستشرقين يقولون: إن قصة أصحاب الكهف هى أسطورة يونانية أو مسيحية قديمة، جرت أحداثها فى مدينة أفسوس بآسيا أيام حكم الإمبراطور وشياس، الذى كان حرباً على المسيحية. وتكاد الموسوعة الثقافية لا تختلف فيما أوردته بشأن أهل الكهف عما أوردته الموسوعة العربية الميسرة، ولعل ذلك يرجع إلى أن الموسوعتين قد تم وضعهما بتوجيه وإشراف من مؤسسة فرانكلين الأمريكية، أو ربما يكون الأستاذ الذى كتب مادة أهل الكهف قد استعان بما سبق أن ورد فى هذا الشأن بالموسوعة العربية الميسرة التى أشرفت على طبعها وأنفقت عليها مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع مؤسسة فورد الأمريكية، كذلك فإن معظم مادة الموسوعة العربية الميسرة مستقاة من الموسوعة الأمريكية «كولومبيا فايكنج دسك».

ولم يقف الأمر فى النقل عن القصة المسيحية (النيام السبعة) على كتب التفسير وكتب التاريخ والكتب التى تتناول قصص القرآن، بل تجاوزها أخيراً إلى الإذاعة والتليفزيون فيما قدماه من قصص القرآن والأنبياء فى قالب درامى، وكانت قصة أهل الكهف من بين القصص التى قدمتها الإذاعة والتليفزيون، واعتمد فيها واضعوها على ما جاء فى كتب التفسير والتاريخ وغيرها من أحداث وأسماء للأشخاص والأماكن استقيت كلها من القصة المسيحية، فرأى الناس وسمعوا يمليخا ومكسميلينا وافريكانوس وغيرهم ممن زعم أنهم فتية الكهف، وعرفوا أن الكهف يقع فى أفسوس، وأن الملك الذى دخلوا الكهف فى عهده هو ديكيوس، فى حين بعثوا فى الكهف فى عهد ثيودوسيوس الثانى أو الأصغر. وعلى الرغم مما بذل من محاولات لتلافى الاختلافات الجوهرية بين قصة أهل الكهف وقصة النيام السبعة بحيث تبدو القصتان متطابقتان، إلا أن التوفيق بينهما كان متعذراً إن لم يكن مستحيلاً، ذلك أن الربط بين القصتين هو من أصله ليس له أساس. ولا يبرره بأى حال وجود بعض أوجه الشبه بينهما، وهى الأوجه التى

دفعت بعض المفسرين إلى أن يتخذوا من القصة المسيحية دليلاً على صدق القرآن فيما رواه عن أصحاب الكهف، وجعلتهم يفسرون بعض الآيات تفسيراً من شأنه أن يزيل الاختلافات بين القصتين، وهو ما لم يكن يجوز لهم أن يفعلوه، وبطبيعة الحال فإنهم لم يجرءوا على المساس بالقصة المسيحية؛ لأنها كما وقع فى روعهم، ثابتة تفصيلاً فيما كتبه النصارى عنها، فبقى أن يمسوا بالقصة الإسلامية خاصة وأنها جاءت مجملة موجزة مما يتيح لهم أن يقمحوا عليها كثيراً من التفاصيل التى وردت فى القصة المسيحية، أما نقاط الاختلاف التى لم يسعفهم التفسير بتغييرها فقد عمدوا إلى إهمالها فى القصة المسيحية، مثل سد باب الكهف على الفتية الذى يتعارض مع ما ورد بالقرآن بشأن شروق الشمس وغروبها على الكهف، وأنها كانت تميل عنه فى الحالين حتى لا تنالهم بأشعتها. وغير هذا من الاختلافات التى سنعرض لها فى الفصول التالية.

ولعلنا قد لاحظنا اختلاف المفسرين والمؤرخين المسلمين حول اسم الملك الذى هرب الفتية إلى الكهف فى عهده، فنهم من قال إن اسمه دقيانوس، ومنهم من قال إن اسمه دقيوس أو ذاقيوس، ومنهم من قال: أن اسمه داشيس، وقال عنه سعيد بن البطريق: إن اسمه ذاقيوس، وهذا ما جعل البعض يعتقد أن كل اسم من هذه الأسماء يخص شخصاً آخر غير شخص الملك الذى قيل إن الفتية فروا منه إلى الكهف، من ذلك ما قاله الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد وهو الذى قام بتحقيق كتاب (مروج الذهب) للمسعودى تعليقاً على ما ذكره الأخير من أن الملك الذى هرب الفتية منه يدعى «دقيوس» فقال: «المعروف أن الملك الذى هرب منه أصحاب الكهف اسمه دقيانوس» ويضيف إلى ذلك قائلاً: «والتاريخ فى مثل هذه المواضيع ليس محلاً للثقة والجزم، فلا معنى لوقوفنا لتحقيق مثل هذه المباحث، والقرآن نفسه لم يتعرض لاسمه ولا لزمنه ولا لمكانه» (٢٠). والواقع أن ما ذكره المسعودى من أن اسم الملك هو «دقيوس» هو الصحيح حيث إنه طبقاً لما ورد فى الروايات المسيحية عن قصة النيام السبعة، فإن الملك الذى زعمت هذه الروايات أن الفتية هربوا منه كان اسمه ديكيوس أو ديسيوس على ما سوف نرى فى الفصل التالى

---

(٢٠) مروج الذهب الجزء الأول ص ٣١٤

ولكن الذى أخطأ فيه المسعودى هو قوله إن الملك الذى استيقظ الفتية فى عـهـده يـدعـى «أوالـس» الـذى كـان مـلـكـاً للـروم ، وقـولـه : إن مـدة مُلْك (أوالس) هذا كانت أربع عشرة سنة ، وإن مدة دقيوس كانت ستين سنة[21]. فالشائع أن الملك الذى استيقظوا فى عهده كان يدعى (ثيودوسيوس الثانى) الذى حكم فى الفترة من ٤٠٨ إلى ٤٥٠ ميلادية ، أى أن مدة ملكه كانت ٤٢ سنة وليس أربع عشرة سنة ، فى حين أن مدة حكم دقيوس لم تزد على العامين فقط ، فقد حكم من عام ٢٤٩ إلى عام ٢٥١ . كذلك ذكر سعيد بن البطريق أن الفتية استيقظوا فى عهد ملك اسمه «ثندوس» الكبير. وهذا يختلف مع ما ذكره (جيبون) من أن الفتية استيقظوا فى عهد ثيودوسيوس الأصغر الذى تولى الملك بعد والده ثيودوسيوس الأكبر. كما أنه ذكر أن استيقاظ الفتية كان قرب نهاية حكم ثيودوسيوس وليس كما ذكر سعيد بن البطريق.

وهكذا نجد أن الروايات المسيحية نفسها تختلف فيما بينها فى أمور كثيرة ، وهذا الاختلاف ينعكس على الروايات التى وردت فى كتب المفسرين والمؤرخين المسلمين ؛ لأنهم استمدوا معلوماتهم من الروايات المسيحية المليئة بالخلط والتناقض ، والبعد عن المنطق ، وهو أمور ترجع فى جملتها إلى حقيقة طالما غابت عن أعين الدارسين والمهتمين ، وهى أن القصة النصرانية ليس فيها من الحقيقة إلا أقل القليل ، وأن معظم ما تضمنته من تفاصيل وبيانات ومعلومات لا أساس له من الصحة ؛ لأن القصة لم تقع حيث قيل إنها وقعت ، أى فى (أفسوس) ولم يكن من بين أشخاصها لا هذا الملك المسمى (داقيوس) الذى قيل إنه اضطهد الفتية ففروا منه إلى الكهف ، ولا الملك الآخر المسمى ثيودوسيوس الذى قيل إن الفتية استيقظوا فى عهده ، وكان ملكاً صالحاً بل مسلماً أيضاً . فكل ذلك من الأكاذيب التى أضافها «جيمس الساروجى» إلى القصة الحقيقية ، ونقلها عنه المفسرون والمؤرخون المسلمون.

ويقول ابن خلدون فى تفسير إضافة الكذب إلى ما كتبه هؤلاء وأولئك : «إنه لما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه

---

(٢١) المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٢٣.

من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص. فتقع فى قبول الكذب ونقله. ومن الأسباب المفضية للكذب فى الأخبار أيضاً، الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والجرح، ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه فيقع فى الكذب، ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجىء فى الأكثر من جهة الناقلين، ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهى بالتصنع على غير الحق فى نفسه، ومنها تقرب الناس فى الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح، وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقته، فالنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا فى الأكثر براغبين فى الفضائل، ولا متنافسين فى أهلها، ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهى سابقة على جميع ما تقدم: الجهل بطبائع الأحوال فى العمران، فإن كل حادث من الحوادث — ذاتاً كان أو فعلاً — لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته، وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض» (٢٢).

(٢٢) المرجع السابق، صفحة ٣٣.

الفصل الثالث

تحليل قصة النيام السبعة

تحليل قصة النيام السبعة

ونبدأ تحليلنا للقصة ببيان الظروف والملابسات التى أحاطت بظهورها، فقد سبق أن ذكرنا أنها وردت أول ما وردت فى عظات الأسقف السورى (جيمس الساروجى) الذى يقال إنه ولد عام ٤٥٢ ميلادية حسب ما ذكره (جيبون) من أنه ولد بعد موت ثيودوسيوس الأصغر بسنتين، ومات عام ٥١٨ وقيل عام ٥٢٠ ميلادية. أى أنه مات عن عمر يناهز الثامنة والستين. وليس معروفاً على وجه التحديد متى سمع (جيمس) بقصة النيام السبعة التى قيل إن أبطالها استيقظوا فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى، أو الأصغر الذى مات عام ٤٥٠، والذى دام حكمه قرابة الاثنين والأربعين عاماً حيث إنه ورثه عن أبيه عام ٤٠٨ ميلادية، فلو أننا استطعنا أن نحدد العام الذى استيقظ فيه الفتية، لأمكننا بالتالى أن نحدد كم كان (جيمس) من العمر عندما سمع بالقصة.

ولما كانت كل الروايات التى تناولت قصة «النيام السبعة» لم تذكر العام الذى استيقظ فيه الفتية، وإنما ذكرت أنهم استيقظوا فى عهد ثيودوسيوس، فإننا سنضطر إلى تحديد هذا العام باللجوء إلى إضافة المدة التى قيل إنهم لبثوها نائمين فى الكهف إلى التاريخ الذى قيل أيضاً إنهم دخلوا فيه الكهف، حيث سلط الله سبحانه وتعالى عليهم النوم، ولحسن الحظ فإن هذا الحدث قد وقع فى عهد ملك يدعى (ديكيوس) لم تزد مدة حكمه للامبراطورية الرومانية على عامين فقط، من ٢٤٩ إلى ٢٥١ ميلادية، وبالتالى فإن افتراض أن نومهم حدث فى العام الأول لحكمه أو فى العام الثانى لن يؤدى إلى اختلاف كبير.

فإذا افترضنا أن الفتية قد دخلوا الكهف فى العام الأول من حكم

(ديكيوس) على اعتبار أن هذا الرجل الرافض المسيحية، والكاره لأهلها قد بادر على الفور إلى اضطهاد المسيحيين عقب توليه الحكم مباشرة، فمعنى ذلك أن الفتية قد استيقظوا عام ٤٣٦ بحسب ماذكره (جيبون) من أنهم لبثوا فى الكهف ١٨٧ عاماً، أو أنهم استيقظوا عام ٥٥٦ ميلادية بحسب ماذكرته دائرة المعارف للأخلاق والديانات من أنهم لبثوا فى كهفهم ٣٠٧ أعوام. أو أنهم أستيقظوا عام ٣٩٦ أو ٣٩٨ ميلادية، بحسب ماذكره ابن البطريق من أنهم لبثوا فى كهفهم ١٤٧ عاماً أو ١٤٩ عاماً. والملاحظ أن كلتا المدتين اللتين ذكرتها دائرة المعارف للأخلاق والديانات، والتى ذكرها ابن البطريق تجعلان واقعة الاستيقاظ فى الكهف فى وقت لم يكن فيه (جيمس) موجوداً، إما لأنه كان قد مات أو لأنه لم يكن قد ولد بعد، وكذلك بالنسبة للإمبراطور ثيودوسيوس نفسه فإنه حسب ماذكرته دائرة المعارف للأخلاق والديانات عن المدة التى لبثها الفتية فى الكهف تكون يقظتهم قد حدثت بعد وفاة ثيودوسيوس الذى مات عام ٤٥٠.

أما حسب رواية ابن البطريق فإنه لم يكن قد ولد بعد، على الرغم من أن كل الروايات المسيحية تجمع على أن اليقظة حدثت فى عهد ثيودوسيوس، بل وتصر على أنه قابل الفتية. وعليه فإننا سوف نطرح الروايتين جانباً ونعتمد رواية (جيبون) التى يفهم منها أن الفتية استيقظوا عام ٤٣٦ أى قبل أن يولد (جيمس الساروجى) بستة عشر عاماً، ومعنى هذا أن الرجل لم يكن حاضراً وقت استيقاظ الفتية وإنما سمع بقصتهم بعد ولادته، وربما يكون هذا قد حدث وهو فى الخامسة أو فى التاسعة، أو فى الخامسة عشرة أو بعد ذلك، وفى هذه الحالة يكون سماعه لها كحدوتة من هذه الحواديت التى يشغف الأطفال بسماعها، والمعروف أن الحواديت تتعرض للتبديل والتعديل أثناء انتقالها من بيئة إلى بيئة، ومن مجتمع إلى آخر، فيحذف منها ويضاف إليها وهكذا. غير أنه قيل إن (جيمس) هذا ألقى إحدى عظاته التى تضمنت قصة النيام السبعة حوالى سنة ٤٧٤ ميلادية، أى أنه كان وقتئذ قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، وأصبح أسقفاً أى من رؤساء الكنيسة وعمدها. وقد ترجمت القصة من السريانية إلى اللاتينية قبل أن ينتهى القرن السادس الميلادى.

ونحن هنا نتساءل: لماذا اهتم (جيمس الساروجى) بقصة أو معجزة «النيام

السبعة »،وضمنها إحدى عظاته، وهو لم يحضرها ولم يعاينها، بل ولم يكن من بين الذين عاصروها، فى حين لم يرد لها ذكر فيما تركه ثيودوسيوس من وثائق، بل إنه حسب ما ذكرته دائرة المعارف للأخلاق والديانات وكذلك ما ذكره سعيد بن البطريق كان هناك أسقف مسيحى فى أفسوس وقت استيقاظ الفتية وهو الذى أجرى التحقيق مع زميلهم الذى ذهب ليشترى له الطعام، ثم هو الذى صحب ثيودوسيوس عند ذهابه إلى الكهف لمقابلة الفتية، وهو كما نعتقد رجل أمين متحمس وغيور على عقيدته التى تقول: «بأن الإنسان يبعث بعد موته بالروح والجسد، وهو ما حدثت المعجزة لإثباته والقضاء على كل ما أثير من شك حوله، وقد كان من المعقول أن يتأثر هذا الأسقف بالمعجزة التى شاهدها وعاينها إلى الدرجة التى تدفعه إلى تضمينها فى عظاته، خاصة وأنه يشرف على كنيسة تقوم فى مدينة تشكك سكانها فى البعث، وأفرطوا فى التلذذ والاستمتاع بالدنيا، ومع ذلك فإن هذا الأسقف المجهول لم ينبس ببنت شفة، وكأن شيئاً هاماً وخطيراً بل معجزة لا عهد للقوم بمثلها قد حدثت!! ليس ذلك وحسب، بل إن أحداً من سكان أفسوس وهى مدينة كبيرة ومركز مسيحى عظيم تعقد فيها الاجتماعات التى تضم رؤساء الكنائس فى الشرق والغرب،ويوجد فيها الفلاسفة والحكماء والمفكرون والمؤرخون ــ إن أحداً من هؤلاء جميعاً وغيرهم لم يهتم بالإشارة إلى ما حدث، وتركوا المعجزة بكل تفاصيلها حتى يأتى (جيمس) ومن أين؟ من ساروج فى العراق لكى يتكلم عنها ويحيى ذكراها ويشيد بالفتية ويختلق لهم أسماء وأسراً ينتمون إليها، وينسب إليهم أحاديث، بل وأغانى وأشعاراً منها ما قالوه لأحدهم وهو المدعو (مليخا) حين دعوه للتوجه إلى المدينة ليأتيهم بطعام: (قم ياعينى واذهب إلى المدينة واشتر لنا خبزاً وطعاماً؛فقد كان الطعام قليلاً وتناولناه فى عشائنا أمس). بل الأغرب من هذا أن القصة أو المعجزة التى حدثت فى مدينة رومانية وأبطالها من الروم، لم تكتب بالرومية بواسطة أحد من أهل هذه اللغة، وإنما كتبت بالسريانية التى يتكلم بها (جيمس) ثم ترجمت بعد هذا إلى اللاتينية قبل أن ينتهى القرن السادس الميلادى، منسوبة إلى هذا الرجل الذى لم يشاهد المعجزة، وإنما اعتمد فيما رواه عنها على سمعه فى مرحلة ما من مراحل حياته.

ولعلنا لاحظنا فى القصة التى وردت فى دائرة المعارف للأخلاق والديانات، أن هناك شابين يدعى أحدهما ثيودور والآخر روفينوس قاما عقب إغلاق الكهف

على الفتية بكتابة أسمائهم على لوح من المعدن (وليس من الحجر) ووضعاه أو دفناه تحت الحجارة التى سد بها الكهف ، فإذا صح هذا فأين هو هذا اللوح الذى قيل إن الناس عثروا عليه ساعة الالتقاء بالفتية فى كهفهم ؟ ولماذا لم يكتب هذان الشابان النجيبان أسماء غير هؤلاء الفتية ممن صب عليهم (ديكيوس) جام غضبه ، وأنزل بهم عذابه وطاردهم وقتلهم ، أم لعل هذين الشابين كانا مطلعين على الغيب ، يعلمان أن الفتية لن يموتوا داخل الكهف المغلق وأنهم سوف يبعثون ، فلابد من وجود دليل على أنهم هم الفتية الذين دفنهم (ديكيوس) أحياء . أما سعيد بن البطريق فإنه على ما يبدو لم يقتنع بهذه الفكرة فقال : إن الذى أثبت للناس وللملك ثيودوس أن الفتية هم الذين هربوا إلى الكهف فى عهد (ديكيوس) هو (الصندوق النحاس الذى فيه صحيفة الرصاص المكتوب فيها قصتهم وخبرهم) فهم إذن كانوا يحتفظون بالصحيفة فى صندوق معهم فى الكهف كتبوا فيها قصتهم وخبرهم ، ولا ندرى أى قصة وأى خبر، هل يقصد بالقصة أنهم آمنوا بعقيدة التثليث التى تقول :إن (يسوع) ابن الله وشريكه فى ملكه ، وإن أمه إلهة ، وأنهم فروا من ملك مشرك يعبد آلهة متعددة ، وماذا فى ذلك وقد كان كثيرون غيرهم على ملتهم ، ومنهم من عذب واضطهد وقتل ، ومع ذلك لم تكتب قصته فى صحيفة لا من رصاص ولا من نحاس ، وبماذا تفيد مثل هذه الصحيفة ، اللهم إلا إذا كان الفتية قد اطلعوا على الغيب ، وأرادوا أن يعدوا العدة لإثبات حقيقتهم عندما يبعثون أحياء !! . وعلى فرض حدوث هذا فأين هى هذه الصحيفة ؟ ولماذا لم تحتفظ بها الكنيسة طالما أنه قد عثر عليها فى الكهف ؟

ومع ذلك فسوف نفترض جدلاً أن أسماء الفتية وكذلك قصتهم قد كتبت على لوح من المعدن ، أو فى صحيفة من الرصاص كما زعم ابن البطريق ، وأنه قد عثر على هذه الصحيفة يوم بعث الفتية فى الكهف ، ومنها عرف الناس أسماءهم ، وصدقوا قصتهم ، وفى هذه الحالة يواجهنا فرضان لا ثالث لهما ، الأول : أن تكون القصة ليست مطابقة لما ذكره «جيمس الساروجى» وأن من شأن إفشائها أن تتضح الحقيقة التى لا تلائم آراء الكنيسة فى المسيح ومذهبها فى عبادته باعتباره ابن الله ، ولذلك بادرت إلى إخفائها مفضلة أن يحيط الشك بالقصة كلها على أن يظهر أن الفتية لم يكونوا على عقيدة التثليث . والثانى : أن تكون الصحيفة قد

ضاعت أو فقدت لسبب أو لآخر، على الرغم من أن هناك من الآثار المقدسة ما يقل فى الأهمية كثيراً عن هذه الصحيفة، ومع ذلك تحتفظ بها الكنيسة وتحرص على حمايتها من الضياع أو التلف، ثم هل يعقل أن تهمل صحيفة كهذه مصنوعة من النحاس أو من الرصاص فى حين تحتفظ الكنيسة بآثار هى بطبيعتها من مادة هشة قابلة للتلف والبلى مثل الصليب (المقدس) الذى صلب عليه المسيح، والذى يقال إنه قد تم العثور عليه فى فلسطين.

كذلك فإنه من المعروف أن (جيمس الساروجى) عندما روى القصة فى إحدى عظاته لم يكن قد مرّ على المعجزة غير ثمانية وثلاثين عاماً فقط، أو على حد قول (جيبون) خمسين عاماً. فلماذا لم يقم بالبحث عن الصحيفة المذكورة ليبرهن على صحة القصة. والمعروف أن استيقاظ الفتية كان فى عهد ملك صالح وكنيسة قوية، تهتم بجمع الآثار المقدسة، ولا شك أن صحيفة كهذه لها من القداسة والأهمية ما يبرر الاحتفاظ بها والحرص عليها؛ لأنها تتضمن بيانات خاصة بسبعة من الفتية الذين لا نظن أنهم يقلون فى القداسة والصلاح والورع عن كثيرين من آباء الكنيسة الذين وصفوا بالقديسين، وتحتفظ الكنائس بآثارهم ومخلفاتهم، ولكن جيمس الصالح الغيور على عقيدته التثليثية لم يفكر فى هذا الأمر، ربما لأنه لم يقدر أهميته البالغة فاكتفى بأن يعظ الناس ضارباً المثل بالفتية، ثقة منه بأن كلامه المجرد من أى دليل كاف جدًّا لإقناعهم بصحة ما يقول، على الرغم من أنه لم يكن قد مضى على الفترة التى ساد فيها لدى الناس الشك فى البعث وقتاً طويلاً يصح معه القول بأن هذا الشك حل محله إيمان راسخ بالبعث، يكفى للتدليل عليه رواية يرويها أسقف متحمس.

والمثير للدهشة حقًّا ما حدث عند البحث فى أحد الكهوف الموجودة فى (خربة قمران) حيث عثر على اللفائف الخاصة بطائفة الآسينيين، التى رجحنا فى هذه الدراسة أن يكون فتية الكهف بعض أعضائها، فقد وجد من بين ما تركته هذه الطائفة لفيفة نحاسية تبين من فحصها أنهم تضم قائمة بمحتويات كنز مدفون، ويقول (آليجرو) إنه الكنز الذى ظل مدفوناً لمدة طويلة، والخاص بالحرم المقدس لأورشليم (القدس) الذى دمره (تيطس) عام ٧٠ بعد الميلاد. ويقول آليجرو إنه قبل أن يفرض تيطس الحصار على أورشليم قام يهود المدينة بحمل هذه الثروة الكبيرة بعيداً إلى أماكن سبق أن حدودها فى داخل المدينة وما حولها، وفى

الصحراء التى تقع فى الشمال الشرقى وفى الشرق، وكان من بين أسماء الأماكن التى ذكرت مرات كثيرة (سيكاكا) التى كانت قد ذكرت مرة فى العهد القديم باعتبارها إحدى المدن البرية، ويعتقد آليجرو أنه يمكن أن نطابق، ونحن مطمئنون بين هذه المدينة وبين خربة قمران وطن الطائفة الآسينية أو طائفة قمران، فإذا كانت هذه اللفيفة النحاسية قد بقيت فى الكهف الموجود فى خربة قمران كل تلك المدة، والتى تصل إلى ألف وتسعمائة سنة إلى أن عثر عليها فى ١٤ مارس سنة ١٩٥٢، أفلم يكن من الأولى أن تعثر الكنيسة الكاثوليكية على اللوح المعدنى الذى قيل إن أسماء الفتية كانت قد كتبت عليه، خاصة وأنه لم يكن قد مضى على بعثهم فى الكهف غير وقت قصير لا يسمح بضياع اللوح المزعوم!

هذا عن الأسقف (جيمس الساروجى) وما ذكر منسوباً إليه، أما عن قصة النيام السبعة نفسها فإنها مثلها مثل غيرها من القصص، تتكون من أربعة عناصر هى: الأشخاص، والزمان، والمكان، والحادثة أو الحوادث التى تربط العناصر الثلاثة. وقد يضيف البعض عنصراً خامساً وهو مغزى القصة أو الهدف منها، وإن كنا نعتقد أن هذا العنصر مفترض، إذ أنه لا يتصور أن تكون هناك قصة بلا مغزى، أو بدون هدف أو غاية، والقصة التى ذكرت منسوبة إلى (جيمس الساروجى) عن النيام السبعة تستوفى هذه العناصر جميعاً على النحو التالى:

أولاً: الأشخاص:

وعددهم سبعة وهو ما تبين من اسم القصة ذاتها (النيام السبعة) وإن كان بعض العلماء الذين اهتموا بالموضوع باعتباره أسطورة اختلفوا حول عدد الفتية، فمنهم من يقول إنهم خمسة، ومنهم من يقول إنهم ثلاثة عشر. كذلك كان الحال بالنسبة للمفسرين، فقد اختلفوا حول عدد الفتية فمنهم من قال أنهم ثلاثة، ومنهم من قال إنهم خمسة أو تسعة أو أحد عشر، وهذا أمر طبيعى؛ لأن الواقعة لم تكن محل معاينة عدد كبير من الناس، أما أسماء الفتية فيونانية؛ لأن أفسوس كانت تابعة لليونان، التى كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، وإن كانت أطلال أفسوس القريبة من مدينة أزمير تتبع تركيا الآن ولا يسكنها أحد من اليونانيين. وقد وردت أسماء الفتية فى الروايات المسيحية ونقلها المفسرون المسلمون عن هذه الروايات وضمنوها كتبهم. وهذه الأسماء هى: مكسملينا، يمليخا، ديمودس

(ديموس) ، امبليكوس ، مرطونس ، بيرونس وكشطونس . وتتضمن كتب التفسير الإسلامية أسماء أخرى مثل محسيميلنينا ويطونس وقالوش ، وبعضها تحريف للأسماء الأصلية الواردة فى الروايات المسيحية ، والبعض الآخر تقسيم للأسماء الثنائية مما جعل العدد يزيد على سبعة فيرتفع إلى ثمانية تارة وإلى تسعة تارة أخرى ، مثال ذلك أن ابن البطريق ذكر اسم يطونش قالوش على أنه اسم واحد ، فيكون عددهم بإضافة هذا الاسم ثمانية ، فى حين أن هذا الاسم يرد فى مخطوطة الأزهر كاسمين وليس كاسم واحد حيث تسبق الواو اسم قالوش ، ومن ثم يصبح عددهم تسعة . ولكننا سنعتمد على ما ذكرته المصادر المسيحية من أن عددهم كان سبعة ، وليس ثمانية أو تسعة ، ويحتمل أن الاسمين الآخرين من نوع الأسماء المركبة التى يشيع استخدامها فى الغرب مثل جون بول وغيرها .

وفيما يتعلق بالوضع الاجتماعى للفتية فقد ذكرت بعض الروايات أنهم كانوا من الأمراء ، أو من علية القوم ، فهم فى رواية دائرة المعارف للأخلاق والديانات يقيمون فى قصر الملك ، فهم على الأقل من الموظفين الذين يعملون فى خدمة الحاكم ، وينتمون إلى أسر معروفة ، لأن الملك اهتم باستدعاء آبائهم لسؤالهم عنهم ، وهو ما لم يكن يحدث بالنسبة لعامة الناس .

أما ديانة الفتية ، فإن الروايات المسيحية على اختلافها تقول إنهم كانوا مسيحيين يرفضون عبادة الأديان التى فرضها (ديكيوس) على رعايا الدولة الرومانية ، وهناك من قال إنهم رفضوا عبادة الامبراطور ذاته استناداً إلى أنه كان قد أصدر أمراً بأن يقدم الناس القرابين لتمثاله باعتباره إلهاً . وهذا إن صح بالنسبة لغير (ديكيوس) فإنه لا يصح بالنسبة له ، وهو ما سوف نتناوله بالبيان عند دراستنا للظروف التى دخل الفتية الكهف فيها .

ثانياً : الزمان :

ليس معروفاً على وجه التحديد متى أوى الفتية إلى الكهف ، فقد قيل إن ذلك كان فى عهد الإمبراطور ديكيوس أو ديسيوس الذى حكم بين عامى ٢٤٩ و ٢٥١ ميلاديـــة ، والذى عرف عنه أنه أمر بأول اضطهاد عام للمسيحيين عقب توليه الحكم . وقد أعدمه القوط فى واليا عام ٢٥١ ميلادية .

كذلك ليس معروفاً على وجه التحديد السنة التى استيقظ فيها الفتية داخل الكهف، وإن كان قد قيل إنهم استيقظوا فى عهد ثيوديوس الأصغر أو الثانى الذى يمتد حكمه بين عامى ٤٠٨ و٤٥٠ ميلادية إلا أنه بناء على ما ذكره المؤرخ «إدوار جيبون» من أن النيام السبعة لبثوا فى الكهف مدة بلغت ١٨٧ عاماً، فإننا لو افترضنا أنهم لجئوا إلى الكهف فى أول عام من حكم ديكيوس أى ٢٤٩ ميلادية، فمعنى هذا أن يقظتهم كانت فى عام ٤٣٦ ميلادية. ومع ذلك فإن هناك رواية تقول إن يقظتهم كانت فى العام الثامن والثلاثين من حكم الإمبراطور ثيوديوس أى سنة ٤٤٥ أو ٤٤٦ ميلادية تقريباً، وهذا يعنى أنهم لبثوا نائمين فى الكهف مائة وستة وتسعين عاماً، وهكذا يتضح أنه ليس هناك خلاف بين غالبية المؤرخين المسيحيين حول العهد الذى لجأ فيه الفتية إلى الكهف، ولا العهد الذى استيتيقظوا فيه فهم يجمعون على أن الأول كان عهد ديكيوس أو ديسيوس، أما الثانى فعهد ثيوديوس الأصغر أو الثانى، أما الخلاف بشأن المدة التى لبثوها فى الكهف فيرجع إلى طول المدة التى حكم فيها ثيوديوس الإمبراطورية الرومانية، والتى بلغت ٤٢ عاماً، حدثت اليقظة أثناءها،ولكن متى على سبيل التحديد؟ فهذا ما لم يتفق عليه المؤرخون المسيحيون، فبينما يقول سعيد بن البطريق إن الفتية استيقظوا فى السنة الثامنة من حكم ثيودوسيوس أى سنة ٤١٦، ومعنى هذا أنهم قد لبثوا فى الكهف ما بين ١٦٥ سنة و١٦٧ سنة، إذا اعتبرنا أنهم أووا إليه فى أول عهد ديكيوس ٢٤٩. ومع ذلك فإن ابن البطريق يقول إن مدة لبثهم كانت مائة وسبعاً أو تسعاً وأربعين سنة، وهذا يعنى أنهم إما أن يكونوا قد أووا إلى الكهف بعد موت ديكيوس (٢٥١) أو قبل تولى ثيودوسيوس الملك (٤٠٨) أما (جيبون) فيقول: إن استيقاظ الفتية كان قرب نهاية حكم ثيودوسيوس (مات سنة ٤٥٠).

ويقول (أسمانى): إن استيقاظ أهل الكهف كان سنة ٧٣٦ رومية، أى ٤٢٥ ميلادية أو ٧٤٨ رومية أى ٤٣٧ ميلادية من تاريخ سلوقس. أما المؤرخ اليونانى فوتيوس فإنه يقول: إنهم استيقظوا سنة ٨٣٠ من حكم ثيودوسيوس أى سنة ٤٣٩ ميلادية.

ويقول الأستاذ رفيق وفا الدجانى[1] مكتشف الكهف: إن البينة الأثرية

(١) اكتشاف كهف أهل الكهف، صفحة ٣٠.

التى عثر عليها فى مدافن كهف الرجيب توافق سنة ٤٢٥ ميلادية، فلو أننا افترضنا صحة هذا الكلام لكان معنى ذلك أن الفتية لبثوا فى الكهف ١٨٨ سنة وليس ١٨٧ سنة كما قال جيبون، الذى وفقاً لما قاله يكون الفتية قد لجئوا إلى الكهف بعد موت ديكيوس (٢٥١). إلا إذا كان ما قاله مكتشف الكهف هو الذى يفتقر إلى الدقة، أما طبقاً لما قاله (أسمانى) من أن الفتية استيقظوا سنة ٤٢٥ ميلادية، فإنهم يكونون قد لبثوا فى الكهف ١٧٤ سنة.

وهكذا يظهر الخلاف بين المؤرخين المسيحيين حول المدة التى لبثها الفتية فى الكهف، على الرغم من أهمية هذا البيان، مع ملاحظة ما ادعاه «چيمس الساروجى» من قرب العهد بحادثة الكهف وما زعمه من أنها وقعت فى (أفسوس) تلك المدينة التى كانت أكبر المدن فى الدولة الرومانية الشرقية والتى لا يتصور بحال من الأحوال أن يصعب على علمائها وكهنتها أن يحددوا المدة التى لبثها الفتية فى الكهف، خاصة وأنه كان هناك لوح من النحاس نقشت عليه أسماؤهم، كما يزعمون، والتاريخ الذى أووا فيه إلى الكهف. فأين ذهب هذا اللوح أو (الرقيم) كما يسميه المفسرون المسلمون الذين نقلوا عن الأسطورة المسيحية بدون إعمال نظر أو تدبر. أم أن التاريخ الذى كان قد نقش على اللوح محاه الزمن والعوامل الجوية فلم يبق إلا أسماء الفتية فقط لاتخاذها دليلاً على أنهم كانوا يونانيين.

إن هذا الاختلاف بين المؤرخين المسيحيين إن كان يدل على شىء فإنما يدل على أن القصة التى قيل إن الأسقف (چيمس الساروجى) كان قد ضمنها عظاته الكثيرة هى فى الحقيقة قصة مزورة، وأنها لم تحدث حيث ادعى أنها حدثت، أى فى (أفسوس) ولا كان حدوثها فى الفترة الزمنية التى زعم أنها حدثت فيها، كما أن أبطالها لم يكونوا مكسميلينا ولا تمليخا ولا غيرهما ممن ذكر أنهم هم الذين أووا إلى الكهف.

ثالثاً: المكان:

جاء فى قصة النيام السبعة أن الفتية كانوا من سكان (أفسس) أو (أفسوس) التى كانت أكبر وأشهر ميناء للرومان على الساحل الغربى لآسيا

الصغرى ، والتى توجد آثارها على مسافة عشرين أو خمسة وعشرين ميلاً جنوب مدينة أزمير الآن فى تركيا ، وأن الكهف الذى أوى إليه الفتية يقع قريباً من هذه المدينة ، وهو ما تكاد تجمع عليه المصادر الغربية ، تتفق معها فى هذه القصة المصادر الإسلامية أيضاً مثل الطبرى وابن كثير وغيرهما . إلا أن المستشرق الألمانى فنسنك Wensinck يقول فى دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة أصحاب الكهف : «على أن العرب يعرفون مدينتين بهذا الاسم : إحداهما المدينة المعروفة والأخرى مدينة عربسوس القديمة فى تركيا . وكانت تسمى أيضاً (أبسوس) وتسمى اليوم بربوز، فهل كانت مدينة (أبسوس) هذه هى المسرح الذى وقعت فيه تلك الأحداث التى أوحى بها الخيال ؟ أما دى جويه فيؤيد هذا الرأى معتمداً على براهين استمدها من الكتب التى تقول بذلك .

وفى الحق أن بعض الرحالة قالوا إنهم رأوا فى مدينة أبسوس هذه كهفاً به جثث ثلاثة عشر رجلاً قد تيبست وهو ما ذكره ياقوت فى المعجم عن (أبسس) وإن لم يذكر شيئاً عن الجثث ، فهو يقول عن تلك المدينة «اسم لمدينة خراب قرب (ابلستين) من نواحى الروم يقال : منها أصحاب الكهف والرقيم ، وقيل هى مدينة دقيانوس ، وفيها آثار عجيبة مع خرابها » (٢) . ومع ذلك فإنه فى تعريفه بـ(أفسوس) قال إنها بلد بثغور طرسوس ، يقال : إنه بلد أصحاب الكهف .

ولا ندرى من أين جاء دى جويه بهذا الكلام الذى نسبه إلى ياقوت الحموى ؟

ويضيف (فنسنك) إلى ذلك قوله : وفوق هذا فقد تضمنت مجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة ما ينص صراحة على أن عربسوس هى مدينة أصحاب الكهف والرقيم ، وربما كان اكتشاف الجثث الثلاث عشرة هو الأصل الأول لقصة أهل الكهف ، ثم حرف الناس (أبسوس) فيما بعد إلى (أفسوس) . وهذا الذى قاله (فنسنك) استنتاج غير صحيح لا يوجد ما يؤيده بالمرة ، وفضلاً عما قيل من أن الكهف يوجد فى (أبسوس) أو فى (أفسوس) فقد ظهر من يدعى أن الكهف يوجد فى اسكندنافيا ، حيث زعم أنه قد وجدت فى كهف هناك سبع جثث ، وصاحب هذا القول شماس فى مدينة أقويليا وضع كتاباً باللاتينية .

---

(٢) معجم البلدان ، الجزء الأول ، صفحة ٧٣ .

رابعاً: الحوادث:

تتضمن قصة النيام السبعة حدثين رئيسيين: الأول لجوء الفتية إلى كهف يختبئون فيه من ملك وثنى أراد أن يكرههم على ترك المسيحية إلى عبادة الأوثان الرومانية. ونومهم فى هذا الكهف مدة بلغت قرنين إلا قليلاً بعد أن أغلق عليهم الطاغية باب الكهف بالأحجار الضخمة تخلصاً منهم.

الحدث الثانى: استيقاظهم من نومهم فى عهد ملك مؤمن بالمسيحية، بعد أن قام بعض العبيد برفع الأحجار عن باب الكهف إما دفعة واحدة كما قيل فى بعض الروايات، أو على دفعات استغرقت زمناً طويلاً وبواسطة الرعاة الذين قيل إنهم كانوا يرعون أغنامهم على مقربة من الكهف، وهناك فضلاً عن هذين الحادثين أحداث أخرى فرعية، مثل مصاحبة الكلب لهم وهم فى طريقهم إلى الكهف، ثم ذهاب أحدهم إلى السوق لشراء طعام لهم بعد استيقاظهم من النوم وانكشاف أمرهم، واكتشافهم أن الدين الذى كانوا قد فروا من أجله وحتى لا يجبروا على تركه ــ وهو المسيحية ــ قد انتشر وأصبح دين الدولة الرسمى.

أما العنصر الخامس: من عناصر هذه القصة وهو الخاص بالمغزى أو الهدف منها، فإنه يظهر فى أمرين: الأول؛ حماية الله للفتية من الحاكم الوثنى بجعله إياهم ينامون فى الكهف مدة بلغت القرنين تقريباً، دون أن يصيبهم أذى، أو يتسرب إلى أجسادهم البلى. والثانى: بعثهم فى وقت تسرب فيه الشك إلى نفوس الناس فى البعث بعد الموت والحشر والنشر مما دفع الإمبرطور ثيوديوس إلى أن يدعو الله أن يريه آية يؤمن بها الناس بالآخرة.

ومن هذا التحليل لعناصر قصة النيام السبعة يتبين أنه فى الفترة التى فر الفتية فيها إلى الكهف كانت الدولة الروماينة على دين الوثنية، فى حين كان المسيحيون قلة لا حول لها ولا قوة، وكان الحاكم يضطهد المسيحيين وينكل بهم فى قسوة بالغة، ومع ذلك نراه يستدعى الفتية ويسألهم عن دينهم فيقولون له بصراحة وبلا خوف إنهم يعبدون الله الذى خلق السموات والأرض، فيغضب غضباً شديداً ويمهلهم ثلاثة أيام ليرجعوا إلى دين أهلهم وإلا ضرب أعناقهم، فما كان من الفتية إلا أن استغلوا المهلة الممنوحة لهم فهربوا من المدينة صوب الجبال واختبئوا فى الكهف.

ولسنا ندرى لماذا خص ديكيوس هؤلاء الفتية بهذه المعاملة الطيبة دون غيرهم ، ألأنهم ــ كما جاء فى القصة ــ كانوا صغار السن فأشفق عليهم من الموت !! أم لأنهم كانوا من الأمراء ، كما قيل فى بعض الروايات ، فعز عليه أن يقتلهم لتركهم دين آبائهم واعتناقهم المسيحية ؟! وإذا افترضنا أنه عاملهم هذه المعاملة الخاصة ، لأنهم كانوا صغار السن ، فهل كانوا هم وحدهم الذين اعتنقوا المسيحية فى هذه السن المبكرة ؟! إن من يقرأ تاريخ المسيحية سيجد أن أفراداً من مختلف الأعمار فى أفسوس وفى غيرها اعتنقوا المسيحية ، ومنهم الصبية والشباب والشيوخ والكهول ذكوراً وإناثاً ، أحراراً وعبيداً وثنيين ويهوداً . ومع ذلك لم نقرأ أن ملكاً ممن اضطهدوا المسيحيين أشفق على بعضهم لصغر سنه أو لكبره ، أو لكونه أنثى أو لغير هذا وذاك ليس ذلك وحسب ، بل إن وثائق الدولة الرومانية فى هذه الفترة وما كتبه المؤرخون عن الأحداث التى وقعت فيها لم تتضمن أى إشارة إلى أن ديكيوس أو غيره التقى بالفتية أو حادثهم أو أمهلهم ، على الرغم من أننا نجد فيما كتب عن هذه الفترة الكم الوفير من الأحداث التافهة والعديمة القيمة .

وفيما يتعلق بالعقيدة التى كانت سائدة يوم لجأ الفتية إلى الكهف ، فإنها كانت عقيدة عبادة الأوثان وهى العقيدة التى كانت عليها الإمبراطورية الرومانية منذ مئات السنين ، قبل ميلاد المسيح ، وبعد ظهور دعوته وحتى صدور مرسوم التسامح الدينى مع المسيحيين فى عهد قسطنطين عام ٣١٣ ميلادية ، فلم تكن الحكومة الرومانية تفرض على أتباع الديانات الأخرى عبادة الإمبراطور، ولكن مجرد إحراق البخور أمام تمثاله باعتبار ذلك دليل الولاء للإمبرطور، وتوكيداً لهذا الولاء ، فهو من ناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التى تطلب إلى من ينالون حق المواطنية فى هذه الأيام (٣) ومع ذلك فإن القانون الرومانى كان حتى عهد نيرون يعفى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور، ونال المسيحيون فى أول أمرهم هذه الميزة ، لأنهم لم يكن يستطاع التفريق بينهم وبين اليهود ، وكانت معارضة الدين الجديد قد جاءت من قِبَل الشعب أكثر مما جاءت من قِبَل الدولة ، ذلك أن الحكام كانوا فى كثير من الأحيان رجالاً مثقفين متسامحين ، ولكن جمهور السكان الوثنيين قد

---

(٣) قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الثالث ص ٣٧٠ .

ساءهم عزلة المسيحيين وتعاليهم وثقتهم بأنفسهم، وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدين الذين يهينون الآلهة (٤).

وما حدث فى عهد ديكيوس أو ديسيوس (٢٤٩ ميلادية) الذى يقال إنه أصدر أمره بإجبار المسيحيين على عبادته، لم يكن كذلك، وإنما الحقيقة كما يرويها ديورانت (٥) أن الإمبراطورية كانت منهمكة فى حرب عوان، تزعجها الهزائم المنكرة، وتتوقع أن يغزو بلادهم الأعداء وتجتاح الامبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية عام ٢٤٩، ويهرع الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلاة والدعوات، وفى وسط هذه الحمى التى تتأجج فيها نيران الوطنية والخوف، يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهدين الذين لا يعنيهم الأمر، ويظلون كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها، ويسخرون من الآلهة، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير «بابل» وعودة المسيح.

وأراد ديسيوس أن يتخذ من حال الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماسة الوطنية والوحدة القومية فأصدر مرسوماً يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة روما بعمل يتقربون به إليها، ويردون به غضبها، ويلوح أن المسيحيين لم يطلب إليهم أن ينكروا دينهم، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل إلى الآلهة التى طالما أنجت روما من الخطر المحدق بها كما يعتقد العامة، واستجاب كثرة المسيحيين إلى هذا الأمر، ففى الإسكندرية كانت الدعوة عامة على حد قول الأسقف ديونيشيوس، وحدث ذلك بعينه فى قرطاجنة وأزمير، وأكبر الظن أن المسيحيين من أهل تلك المدن وأمثالها كانوا يرون أن هذا التوسل لا يعدو أن يكون نوعاً من الوطنية، ولقد امتد إضطهاد ديكيوس للمسيحيين إلى قيصرية أيضاً بفلسطين، فقبض على الفيلسوف أرجن عام ٢٥٠، وكان وقتئذ فى الخامسة والستين من عمره، ومُد على العذراء وقُيد بالأغلال، ووُضع فى عنقه طوق من الحديد، ولم يطلق سراحه إلا بعد موت ديكيوس ٢٥١ ميلادية.

وهكذا لا نجد فيما كتب عن عهد ديسيوس أو ديكيوس أى ذكر لتلميذا

---

(٤) المرجع السابق ص ٣٧٢.

(٥) المرجع السابق ص ٣٧٧

وزملائه ولا تصريحاً بأن ديكيوس أصدر أمره للمسيحيين أن يعبدوه ، وكذلك فإن الإمبراطورية الرومانية فى كل عهودها لم تكن تعبد حكامها وحدهم ، وإنما كانت تعبد الآلهة المتعددة ، مثل ديانا وارتيس وجوبيتر وغيرها ، فلا يصح القول إن أصحاب الكهف رفضوا عبادة الملك ، فإنه حتى عام ٢٧٦ ميلادية ، كانت روما هى عاصمة الدولة ومقر الحاكم وعليه فإن ديسيوس أو ديكيوس لم يكن يقيم فى أفسوس التى لم تكن فى أى وقت من الأوقات مقر الحاكم ، حتى بعد أن انقسمت الامبراطورية الرومانية وأصبحت القسطنطينية أى بيزنطية كما كانت تسمى عاصمة للدولة الشرقية (عام ٣٣٠ ميلادية) كذلك فإن أحداً من سكان أفسوس ، غير الأسقف جيمس الساروجى ، لم يذكر ما وقع لأصحاب الكهف ، على الرغم من أن هذه المدينة كانت من المدن الكبرى العامرة بالسكان والكنائس ، بل إنها كانت معقلاً من معاقل المسيحية فى الفترة التى استيقظ فيها الفتية فى الكهف ، ومقرًّا لواحدة من الكنائس الخمس الكبرى فى العالم المسيحى فى ذلك الوقت ، وفيها من العلماء والمؤرخين ورجال الدين والفلاسفة وغيرهم الكثيرون الذين يستحوذ على اهتمامهم ويثير فضولهم مثل هذا الحدث الفريد ، بل المعجزة .

ولقد بلغ من شهرة وذيوع صيت فلاسفة أفسوس أن يوليان الذى تولى الحكم بعد الإمبراطور قسطنطين ، كان يتردد على أفسوس ابتداء من عام ٣٥١ ميلادية ، ليدرس الفلسفة على فلاسفتها ، وذلك قبل أن يصبح إمبراطوراً فى نهاية عام ٣٦١ ميلادية ، فلما آل إليه الحكم أعلن ارتداده عن المسيحية إلى الوثنية ، وأظهر تأثره الشديد بطقوس اليوسيز وأفسوس الرمزية (٦) ، وكانت أفسوس مركزاً كبيراً للوثنية ، إذ كانت تعبد فيها إلٰهة القمر التى كانت تسمى ديانا ، وكان معبدها الكبير الضخم يعد من عجائب الدنيا فى قديم الزمان ، ولذلك وجدت فيها أفكاربولس عن التثليث وموت الإله ، ثم بَعْثِه-ترحيباً ورواجاً لمماثلتها للأفكار الوثنية ، ويذكر أن بولس قضى فى هذه المدينة عامين يبشر بالدين الجديد . ولا يقتصر الأمر على الادعاء بأن الفتية كانوا ينتمون إلى أفسوس ، بل إن هناك ادعاء آخر لا يقل عن هذا الادعاء مدعاة للسخرية ، وهو أن جثمان السيدة العذراء يرقد داخل أفسوس ،

---

(٦) قصة الحضارة الجزء الأول المجلد الرابع ص ٣٨ .

على الرغم مما هو معروف من أن السيدة العذراء لم تغادر فلسطين ، وأنها ماتت ودفنت بها ، غير أن مسيحيي القرون الأربعة كانوا يجهلون هذه الحقيقة ، بل إنهم لم يتصوروا ، جرياً على ما زعم بولس عن قيامة المسيح وأنه إله وابن إله ــ أن أم الإله يمكن أن تموت وتدفن كما يدفن البشر. وقد ساعد على شيوع هذه البدعة ما رآه بعض الحجاج إلى بيت المقدس،حيث قصدوا ما قيل لهم إنه ضريح العذراء الذى وجدوه خاوياً ، فقالوا إنها هى الأخرى بعثت من الموت وصعدت إلى السماء ، وهى القصة التى اعترفت بها الكنائس اليونانية واللاتينية (٧) .

ولقد ظلت أفسوس معقلاً للآراء الضالة التى تجعل من المسيح إلهاً وابن إله ، ومن أمه إلهة حتى بعد إعدام بولس الذى وضع فى تربتها بذرة الشرك ، فما لبثت أن نمت وترعرعت ، ولقد بلغ نشاط رجال الدين فى أفسوس ذروته فى عهد ثيوديوس الأصغر الذى قيل عنه إنه هو الملك الصالح الذى استيقظ الفتية فى عهده ، ونظراً لطول مدة حكمه ، فقد عقدت فى عهده الطويل الذى بلغ اثنين وأربعين عاماً عدد من المجامع الكنسية ، أولها الذى انعقد عام ٤١٨ ميلادية ، وحضره الأساقفة ، وقرروا فى نهايته أن (بلاجيوس) كافر وضال ؛ لأنه قال : « إن الله ، فى واقع الأمر ، يعيننا على الخير بما ينزله علينا من الشرائع والوصايا ، ولكنه لا يرجح كفة خسراننا ، بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها ، فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه ، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه » وقد أغضب هذا الكلام الكنيسة فقضت بحرمانه .

كذلك يبدو حماس أهل أفسوس لهذه الأفكار التى روجتها الكنيسة ، من موقفهم المعادى لنسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨ ميلادية) الذى قال : إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية فى المسيح ، بل أم طبيعته البشرية ، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح ، فقد قام سكان أفسوس بمظاهرات صاخبة يعلنون فيها ابتهاجهم بقرار الحرمان الذى أصدره مجمع أفسوس (عام ٤٣١ ميلادية) . ويقول ديورانت : « وكانت مظاهرات أحيت بلا ريب ذكريات ديانا ــ أرتميس » (٨) .

---

(٧) جيبون ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٠٦ .

(٨) المرجع السابق ص ١٠١ .

ثم عقد الإمبراطور ثيوديوس مجلساً آخر فى أفسوس (عام ٤٤٩ ميلادية) أصدر قراراً بلعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح، أى الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، أو كما يقولون الناسوتية واللاهوتية، وقرر أن للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية.

وهكذا نلاحظ أن أفسوس سواء قبل أن يستيقظ الفتية أو بعد استيقاظهم، لم تكن تؤمن بالله الواحد، بل العكس هو الصحيح، فقد كانت معقلاً للشرك، تحارب كل صاحب رأى يدعو إلى إعادة النظر فى مبدأ التثليث، أو فى علاقة المسيح بالله، أو فى طبيعة المسيح، أو فى علاقته بأمه مريم العذراء.

أما الملك الذى قيل إنهم استيقظوا فى عهده واسمه ثيوديوس الثانى أو الأصغر، والذى وصف فى كثير من كتب التفسير الإسلامية بأنه كان مَلِكا صالحاً تقيًّا، بل وصف أيضاً بأنه كان مسلماً، فإننا سنكتفى بما ذكرته كتب التاريخ الغربية عنه لنعرف مدى صحة الأوصاف التى أضفاها المؤرخون والمفسرون المسلمون عليه.

يقول عنه وليم لانجر(٩): «كان حاكماً ضعيفاً خضع لسيطرة أخته بولكيريا Poicheria وقد تولى الحكم فى عام ٤٠٨ خلفاً لأبيه اركاديوس إمبراطور الشرق، وقد ظل حتى وفاته عام ٤٥٠ خاضعاً لأخته التى كانت قد تزوجت ماركيانوس أحد قواد الجيش اللامعين، فلما مات ثيودوسيوس تولى حكم الإمبراطورية، وكان ثيودوسيوس فى السابعة من عمره حين مات أبوه الملك أركاديوس الذى كان قد ترك وصية تقضى بوضع ولى عهده تحت وصاية الملك يزدجرد الفارسى، فتولت أخته بولكيريا الحكم ولم تكن تكبره بأكثر من عامين، وقد ظلت تحكم الإمبراطورية الشرقية قرابة الأربعين عاماً طوال الفترة التى كان فيها أخوها قاصراً، وبعد وفاته، وذلك باسمها وباسم ماركيانوس الذى كان زوجها بالاسم فقط، ويقول (جيبون) عن ثيودسيوس: إنه كان يهتم بألوان التسلية التافهة والدراسات غير الجدية، وكان الصيد هو النشاط الوحيد الذى يغريه على تجاوز حدود القصر؛ لأنه كان كسولاً قاعد الهمة، وأنه أى ثيودوسيوس عبد فى ورع وخشوع من مات ومن

---

(٩) موسوعة تاريخ العالم جـ١ ص٣٣٣.

كان حيًّا من قديسى الكنيسة الكاثوليكية، وحدث مرة أن راهباً وقحاً أصدر ضد مليكه حرماناً كنسياً، فرفض أن يتناول الطعام حتى يتنازل الراهب بشفاء الجرح الروحى الذى أصابه به(١٠).

وإذا كنا لانستطيع أن نحمل ثيودسيوس المسئولية باعتباره ملكاً عن القرار الذى أصدره مجلس الأساقفة الذى انعقد فى أفسوس عام ٤١٨ ميلادية، وقضى فى نهايته بإدانة (بلاجيوس) بتهمة الكفر والزيغ والضلال؛ لأن ثيودسيوس كان يومئذ فى التاسعة من عمره لايمارس أى سلطات حقيقية، فإننا لايمكن أن نخليه من المسئولية عن القرار الأهم والأخطر الذى أصدره مجمع أفسوس الذى انعقد عام ٤٣١ ميلادية، وأدان فيه نسطوريوس أسقف القسطنطينية، وأصدر قراره الشهير بوحدة طبيعة المسيح الإلهية، أى أنه إله وأن أمه إلهة أيضاً. فقد كان ثيودوسيوس يومئذ فى الثلاثين من عمره يتولى سلطاته كاملة، بل إنه خط بيده مرسوماً يضع نسطوراً فى مرتبة الساحر سيمون، ويحظر آراءه ويحرم أتباعه من حماية القانون، ويحكم على كتاباته بالحرق، ويقرر نفيه إلى البطراء فى بلاد العرب، ثم فى نهاية الأمر إلى واحة فى الصحراء الليبية، ليس ذلك فحسب، بل إنه فى عام ٤٤٩ ميلادية، وقبل موت ثيودسيوس بعام واحد، انعقد مجلس آخر فى أفسوس أصدر قراراً بلعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح؛ لأن للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية، وقد دافع ثيودسيوس دفاعاً حاراً عن قرارات هذا المجمع، وعارض البابا ليو الذى وصف هذا المجمع بأنه مجمع اللصوص.

فهل يمكن بعد هذا أن نصف ثيودسيوس بأنه كان ملكاً صالحاً مسلماً، يؤمن بالله، وأنه دعا الله أن يظهر معجزة ترد الناس إلى الإيمان بالبعث واليوم الآخر!!

النتائج التى أسفر عنها التحليل

ومن تحليلنا لقصة النيام السبعة يتبين الآتى:

أولاً: أنه لم يكن هناك ملك يأمر الناس أن تعبده من دون الله، وإنما كان هناك أمر من الإمبراطور الرومانى ديكيوس أو ديسيوس لرعايا الدولة الرومانية أن يتقدموا إلى آلهة روما بعمل يتقربون به إليها، ويردون به غضبها.

(١٠) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها الجزء الثانى ص ٢٤٩.

ثانياً: كانت عقيدة الدولة الرومانية هى عقيدة الوثنية، وليس عقيدة عبادة الملك، فهم وثنيون يعبدون آلهة متعددة.

ثالثاً: أن ديسيوس أو ديكيوس لم يكن يقيم فى أفسوس، وإنما كان مقره ـ مثل الأباطرة الرومان ـ فى روما، ومن ثم فإنه لا يتصور أن يحضر من روما إلى أفسوس ليقابل فتية لا أهمية لهم ليناقشهم فى عقيدتهم ويمهلهم للرجوع إلى دين آبائهم، وكان الأولى به، لو أننا افترضنا أنه حضر خصيصاً من روما إلى أفسوس لمقابلتهم ـ أن يسافر إلى قيصرية ليقابل فيلسوفاً كبيراً ورجل دين مرموقاً هو أرجن الذى أمر بحبسه وتعذيبه لاعتناقه المسيحية.

رابعاً: أن أفسوس لم تكن المكان الملائم لظهور إحدى معجزات الله، فأهلها جبلوا على عبادة الأوثان، وكان اعتناقهم للمسيحية فى صورتها المحرفة التى وضع أسسها بولس، فهم يعبدون مع الله إلهين هما المسيح وأمه العذراء، وقد بينا كيف أن سكان أفسوس ثاروا ضد كل صاحب رأى، يرمى إلى إعادة النظر فى طبيعة المسيح وأمه.

خامساً: أن الملك الذى استيقظوا فى عهده لم يكن مسلماً صالحاً، أو حتى مسيحيًّا سليم العقيدة، بل كان مشركاً، صدرت فى عهده قرارات كنسية تقرر الطبيعة الإلهية للمسيح ولأمه التى اعتبرتها هذه القرارات إلهة، كما أن أفسوس لم تكن قد تحولت إلى الإسلام أو حتى العقيدة المسيحية الصحيحة التى تقوم على مبدأ أن المسيح بشر ورسول فحسب، وأن أمه قديسة ليس إلا. ولم تكن شخصية ثيودسيوس التافهة لتسمح لمثله بأن يفكر فى البعث أو الحشر والنشر كما قيل.

سادساً: أن أثر حادثة الكهف، إذا كانت قد وقعت حقيقة فى أفسوس، لم يظهر فى أى صورة، بل العكس هو الصحيح، فقد انعقدت المجامع المسيحية وأصدرت قراراتها التى تتهم بالكفر والزيغ والضلال كل من يجرؤ على إبداء رأى فى الطبيعة الإلهية للمسيح.

وفضلاً عن هذه الأسباب التى تجعلنا نستبعد أن تكون حادثة الكهف قد وقعت فى أفسوس، فإن هناك أسباباً أخرى بعضها مستمد من الطريقة التى ذكرت القصة المسيحية أن الفتية حُبسوا بها فى الكهف، والبعض الآخر مستمد

من أوصاف الكهف كما وردت فى القرآن الكريم ، ومدى مطابقتها لما قيل إنه قد تم الكشف عنه فى أفسوس من كهف زعم أنه هو الكهف الذى أوى إليه الفتية .

والبعض الثالث مستمد من تاريخ الديانات والنبوات والمعجزات ، وما قيل من أن أحداثها جميعاً قد جرت فى منطقة معينة لم تتجاوزها إلى سواها ، مما يدخل فيه أفسوس التى زعم أن معجزة الكهف وقعت فيها ، ولعل الذى دعانا إلى بحث هذا الموضوع ما ورد بكتاب الأستاذ المودودى الذى شرح فيه سورتى الكهف ومريم ، حيث قال : « وقد اعترض البعض بأن القصة جرت فى مدينة من مدن آسيا الصغرى ، والقرآن لا يبحث فى الوقائع التى وقعت خارج أرض العرب . ومن هنا الإقران بين هذه القصة المسيحية ، وبين أصحاب الكهف انحراف عن أسلوب القرآن » .

والذى أراه هو أن هذا الاعتراض غير صحيح ، حقيقة أن القرآن قد التزم فى سوق العبر لأهل الجزيرة العربية بالحديث عن أحوال ما كانوا يعرفون من الأقوام والطاقات والقوى ، بقطع النظر عن كونهم داخل حدود أراضيهم أم خارجها ، وعلى هذا تكلم عن تاريخ مصر القديم مع أن مصر تقع خارج حدود بلاد العرب ، فالسؤال إذن هو: إذا كان من الممكن أن يذكر فى القرآن أحوال مصر وأوضاعها ، فلم لا يأتى فيه ذكر الروم ، وقد كان العرب يعرفون الروم كما يعرفون مصر ، وكانت حدود الدولة الرومانية تلتقى بحدود الحجاز الشمالية (١١) .

والذى لا شك فيه أن رد الأستاذ المودودى على من قالوا إن القرآن لا يبحث فى الوقائع التى وقعت خارج أرض العرب سليم ؛ لأن التسليم بصحة هذا القول يعنى التسليم بأن الإسلام إنما جاء من أجل العرب فقط ، فى حين أنه جاء للعالمين :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (١٢) .

---

(١١) المرجع السابق ، صفحة ١٩ ــ ٢٠ .

(١٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

ومن ثم فإن الوقائع التى وردت به إنما جاءت للعرب ولغيرهم ممن هداهم وممن سيهديهم الله إلى الإسلام.

إلا أن الأستاذ المودودى، فى رده، اهتم بإثبات أن القرآن التزم بسوق العبر لأهل الجزيرة بالحديث عن أحوال ما كانوا يعرفون من الأقوام والطاقات والقوى، بقطع النظر عن كونهم داخل حدود أراضيهم أم خارجها. وهذا الكلام يفهم منه أن القرآن اهتم بالعرب دون غيرهم، وهذا ليس صحيحاً كما ذكرنا، وإلا لكان معناه أن القرآن إنما جاء للعرب دون سواهم.

كذلك يفهم من معارضة المودودى رحمه الله لرأى القائلين بأن القرآن لا يبحث فى الوقائع التى وقعت خارج أرض العرب، واستدلاله بما ورد به خاصاً بالمصريين والروم لإثبات العكس، أنه يؤيد الرأى القائل بأن النيام السبعة هم أصحاب الكهف؛ لأنه ليس هناك ما يمنع من أن يبحث القرآن فى الوقائع التى وقعت خارج أرض العرب، وهذا ما نختلف معه فيه، ففرق بين إثبات أن القرآن يهتم بكل الوقائع ما كان منها فى أرض العرب وما كان منها خارج هذه الأرض، وبين أن نؤكد أن النيام السبعة هم أصحاب الكهف، وأن الكهف الذى أووا إليه يوجد فى أفسوس، إلى غير ذلك مما تضمنته القصة المسيحية، فبالإضافة إلى ما ذكرناه من أسباب استخلصناها من دراستنا للظروف التى كانت سائدة فى الوقت الذى قيل إن الفتية أووا فيه إلى الكهف، والوقت الذى استيقظوا فيه، نجد أن كل العقائد والنبوات والمعجزات وغيرها مما يتعلق بصلة المخلوق بالخالق، قد جرت فى منطقة معينة لم تتعدَّها، بحيث يبدو هذا الأمر وكأنه قاعدة مطلقة لم يرد عليها أى استثناء، اللهم إلا ما قيل عن أن معجزة أهل الكهف قد وقعت فى أفسوس، وهو ما يشكك فيه بعض المفكرين الغربيين الذين يعتبرون العقائد والأديان نقيصة أو عيباً ينزهون الغرب عنه، ويسجلونه على سكان الشرق بطريقة تنطوى على التهكم والسخرية، ومن هؤلاء (ت.أ. لورنس) الذى أطلق على أهل الشرق لقب «محتكرى الأديان المنزلة» وقال عنهم: «إن صناعتهم الأساسية هى المعتقدات». وهو ما لاحظه أيضاً بعض المهتمين بنشأة الأديان، وهو أن العنصر السامى أى المتكلمين باللغات السامية كالآرامية والعبرية والعربية اعتاد انبثاق الأديان المنزلة كاليهودية والمسيحية والإسلام (١٣).

(١٣) مورو بيرجير، العالم العربى اليوم ٣١.

وعلى ذلك فإن حادثة أهل الكهف، إذا صح ما قيل عن أنها وقعت فى أفسوس، تكون أول استثناء على هذه القاعدة.

وعلى الرغم من أننا لسنا من أنصار العنصرية، بحيث نذهب إلى جعل النبوات والمعجزات وقفاً على جنس دون جنس، خاصة وأن ما ورد بالقرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١٤).

يدل على أن الجماعات البشرية على اختلافها، سواء فى الغرب أو فى الشرق قد ظهر فيها الأنبياء، إلا أننا ــ فى ضوء ما كشفت عنه الدراسة ــ نستبعد أن يكون ما حدث من هروب الفتية إلى الكهف ونومهم فيه، ثم انبعاثهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع قد حدث فى أفسوس، وفى الظروف التى ذكرها المفسرون، وفيما يتعلق بالطريقة التى لجأ بها الفتية إلى الكهف، ثم ما قام به الملك من إصدار الأمر بإغلاقه عليهم بواسطة الأحجار الضخمة، قاصداً من ذلك إزهاق أرواحهم بمنع الهواء عنهم فضلاً عن الطعام والشراب، فإنه من الواضح أن الذى روى القصة على هذا الوجه لم يفطن إلى الحكمة الكامنة فى الحدث، والطبيعة المتميزة للمعجزة. وهذا يدل على أنه سمع بالقصة كما يسمع الصغار (الحواديت) فلم يمعن النظر فيها، ولم يحاول أن يتدبرها بعقله، ولو أنه فعل لأدرك أن هناك فرقاً كبيراً بين الموت والنوم، فما حدث للفتية طبقاً لما ذكره (جيمس الساروجى) هو موت وليس نوماً؛ لأنهم بمنع الهواء عنهم سيختنقون، ومن ثم لا يجوز اعتبارهم نياماً، ولا يجوز أن نسمى قصتهم قصة النيام السبعة. وهذا هو الفرق الجوهرى بين قصة أصحاب الكهف، كما وردت فى القرآن، وقصة النيام السبعة، فهؤلاء ماتوا ولم يناموا، فى حين أن أولئك، أى أصحاب الكهف، لم يموتوا، وإنما ظلوا أحياء يتنفسون ويتقلبون، يدخل إليهم ضوء الشمس دون حرارتها اللاهبة. وهذا هو جوهر المعجزة التى أراد الله بها أن يظهر قدرته للناس فى صورة مختلفة عن معجزة إحياء الموتى التى حدثت مع العزير، ثم بعد ذلك لما أذن الله تعالى لعيسى بن مريم أن يحيى الموتى:

---

(١٤) سورة فاطر، الآية ٢٤.

﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (١٥) .

ولكن عيسى عليه السلام لم يفعل ما فعله الله تعالى بأصحاب الكهف فى القصة القرآنية إلا إذا أذن له الله ، من ناحية ، وأطال فى عمره المدة الكافية لبعثهم بعد نومهم الطويل ، وقد يقول البعض : وما الفرق بين أن يكونوا قد ماتوا أو ناموا بعد إغلاق الكهف عليهم ؟ أليس الأمر سواء ، طالما أن الله قد بعثهم أحياء فى هيئتهم التى دخلوا عليها الكهف ؟ .

وردنا على هؤلاء هو أننا لسنا الذين نصر على أن هناك فرقاً بين الحالتين لمجرد العناد والمكابرة ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى أراد أن يكون هناك هذا الفرق ، وإلا لما ذكر فى القرآن الكريم حالهم فى الكهف يتقلبون ، وهذا يعنى أنهم لم يكونوا ميتين ، ووصفه لحال الكهف والكلب باسط ذراعيه على بابه المفتوح والشمس تميل عنه فى شروقها وفى غروبها ، فلو أنهم كانوا ميتين لما كان هناك مبرر بأى حال لذكر هذه الأوصاف فى القرآن ، ولكنها ذكرت لبيان الاختلاف بين معجزة بعث الموتى كما حدثت للعزير مثلاً ، ومعجزة بعث النيام كما حدثت لأصحاب الكهف ، فضلاً عما تضمنته الأوصاف من بيانات علمية على جانب كبير من الأهمية لم يفطن إليها العلماء إلا أخيراً ، ومنها اختيار الموقع الأمثل للسكنى ، والذى يكفل للمقيمين فيه الحياة الصحية ، وأهمية التقلب أثناء النوم الطويل وبالذات فى حالة المرض ، حتى لا يتلف الجانب الذى ينام عليه المريض مدة طويلة ، وهكذا .

هذا بالإضافة إلى ما لهذه المعجزة من طبيعة خاصة يكشف عنها الوضع الذى كان عليه الفتية أثناء نومهم ، فقد كان الكهف مفتوحاً وعلى بابه كلب باسطا ذراعيه ، وهم بداخله يتقلبون ، وهذه بلا شك أحوال مقصودة وليست مجرد أوصاف لما كانوا عليه ، وإلا لكان سواء أن يكون الكهف مغلقاً أو مفتوحاً ، ولكان سواء أيضاً أن يكون كلبهم معهم بداخله أو بعيداً عنهم على بابه ، وسواء كذلك أن يتقلبوا أو ألا يتقلبوا ، وسواء أيضاً أن يكون مظهرهم سبباً للرعب لدى من يقطع نظره عليهم أم لا (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم

---

(١٥) سورة آل عمران ، الآية ٤٩ .

رعباً)(١٦). فمع قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يبقيهم أحياء داخل الكهف، ثم يبعثهم من نومهم فى الوقت المحدد، وهو القادر على أن يبعث الموتى وقد استحالوا إلى رفات وعظام، إلا أنه أراد أن يبقوا بهيئتهم بداخل الكهف يتقلبون كالنيام، والأيام تمضى والسنوات تنصرم والقرون تتعاقب، وهم على حالهم التى دخلوا بها الكهف، وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك لحكمة، ولم يكن الأمر مجرد وضع فرضته الطبيعة الإنسانية، وحياة البشر التى تحتاج لكى تستمر إلى الضوء والهواء والحركة أثناء النوم، وكلها مما يقدر الله على توفيره لهم حتى ولو كان الكهف مغلقاً بالصورة التى وصفتها القصة المسيحية، بل إن الله سبحانه وتعالى لو أراد لبعث غيرهم من قبورهم، أو لأماتهم هم أنفسهم ثم بعثهم.

ثم إننا نسأل -ولنا الحق فى ذلك- كيف علم الناس الذين عاينوا بعث الفتية فى الكهف أنهم كانوا قد ماتوا، ولم يكونوا نائمين شأنهم شأن الأحياء من الناس؟ ألا يحتمل أنهم ماتوا بعد سد الباب عليهم بالحجارة، ثم بعثهم الله ساعة فتحه؟ وإذا قيل: ولكنهم قاموا بهيئتهم التى كانوا عليها دون أن يتأثروا بمضى السنين، سواء من حيث صورتهم، أو من حيث شكل وحالة ثيابهم، فإننا نرد على هذا القول بأن ذلك ليس بمانع من أن يكونوا قد ماتوا، فعوامل البلى لا يحول دونها ودون إحداث آثارها أن يكونوا موتى أو نياماً. ومعنى هذا أن إبقاءهم أحياء وهم نيام فى الكهف هو جوهر المعجزة الذى يجعلها تختلف عن معجزة البعث من الموت، ومن ثم فإن الحكمة تختلف فى الحالين، وهو ما سوف نوضحه عندما نتناول تفسير قصة أهل الكهف فى الفصل التالى. ولكن الذى يهمنا فى هذا الصدد أن نبين أن تسمية القصة المسيحية بالنيام السبعة يناقض تماماً الوصف الذى ورد بشأن لجوء الفتية إلى الكهف، وصدور الأمر من الملك بإغلاقه عليهم بالحجارة الضخمة.

أما بشأن الكهف نفسه، فإنه بالصورة التى وردت بالقصة المسيحية، ثم بالرجوع إلى ما قيل من أن الكهف الذى لجأ إليه الفتية قد عثر عليه فى ضواحى مدينة أفسوس، يتبين أنه ليس هو الكهف الحقيقى بأى حال، بل ولا أى كهف

(١٦) سورة الكهف، الآية ١٨.

آخر غيره مما يوجد فى هذه المنطقة، فقد تبين من الفحص الذى قام به أحد خبراء الأمم المتحدة ويدعى (شارلس هورتون) لكهف أفسوس الآتى:

١ـ إن الشمس تدخل من بابه فتطول من بداخله؛ لأنه يقع فى الشمال الشرقى.

٢ـ إنه لا توجد فجوة بداخله تسمح للفتية بالاختفاء فيه.

٣ـ إنه لا يوجد لا فوقه ولا بالقرب منه المسجد (المعبد) الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم.

٤ـ إنه لم يعثر بداخله على أى أثر للمدافن التى دفن فيها الفتية بعد موتهم.

وحتى مع استبعاد ما ورد بالقرآن الكريم خاصاً بأوصاف الكهف وموقعه مما لم يرد فى القصة المسيحية والاقتصار على ما ورد بهذه القصة بشأن الكهف، فإننا نلاحظ أن تقرير خبير الأمم المتحدة نفى وجود فجوة بداخل الكهف المزعوم تسمح للفتية بالاختباء فيه نياماً، ومعنى هذا أنهم قضوا قرابة القرنين وقوفاً وقد سد الباب عليهم. هذا إذا غضضنا النظر عما ورد فى القصة المسيحية من أن جنود الملك لما طاردوا الفتية فى الكهف عجزوا عن الوصول إليهم، فكيف حدث هذا والكهف ليس به فجوة؟ كذلك فإن خبير الأمم المتحدة لم يعثر، لا هو ولا غيره ممن عاينوا الكهف المزعوم، على أى أثر لمدافن أو قبور الفتية على الرغم مما ورد بالقصة المسيحية من أنهم عقب التقاء الملك بهم ماتوا، فأمر بدفنهم حيث هم. فإذا كان ذلك صحيحاً فأين دفنوا وليس بالكهف مكان يتسع لدفنهم؟

وإذا كانوا قد دفنوا فعلاً فأين الآثار التى تدل على ذلك، سواء أكانت أجداثهم أم رفاتهم أم حتى القبور التى دفنوا فيها؟

لعلنا بهذا نكون قد بينا بما لا يدع مجالاً للشك أن القصة التى رواها (جيمس الساروجى) ليست هى القصة الحقيقية، وأن ما فيها لا يتجاوز واقعة لجوء عدد من الفتية إلى كهف من الكهوف فراراً بدينهم، أما ما عدا ذلك فقد اختلقه هذا الأسقف، كاسم الملك الذى وقعت حادثة اللجوء إلى الكهف فى عهده، واسم الملك الذى استيقظوا فى عهده، واسم الفتية، وموقع الكهف وكيفية إغلاق الكهف عليهم، وما زعمه من أن ثيودوسيوس كان ملكاً صالحاً دعا الله أن يريه معجزة ترد الناس إلى الإيمان بالبعث، وإلى غير هذا وذاك من الأكاذيب التى أضافها الرجل إلى ما سمعه عن الفتية فى طفولته، فما كان منه عندما بلغ درجة الأسقفية

إلا أن خصص إحدى عظاته لترويج القصة التى نسجها خياله ومضى يرددها ، وتلقفها منه أسقف ليون وأمر بترجمتها وترديدها على أسماع المترددين على الكنائس .

ومن يقرأ تاريخ الكنيسة المسيحية الكاثوليكية فى الفترة التى أذاع فيها (جيمس الساروجى) هذه القصة ، يلاحظ أنها كانت فى حاجة ماسة إلى مدد جديد يدعم من مكانتها لدى الناس ، وتواجه به الشك الذى بدأ يساورهم فى صحة هذه العقيدة التى تكونت من خليط من الأساطير والحقائق التى استعارها مؤسسو الديانة من بلدان وثقافات مختلفة . فوجد (جيمس الساروجى) ومن بعده (جريجورى) أسقف مدينة «تور» فى قصة النيام السبعة ، أو أصحاب الكهف ضالتها المنشودة وبادرا : جيمس أولاً بصياغته للقصة صياغة تلائم الأفكار المسيحية ، ثم جريجورى بترجمتها ونشرها وإضافتها إلى التراث المسيحى وترويجها .

والواقع أن هذا ليس من قبيل الاستنتاج ، وإنما هو تفسير للكيفية التى ظهرت بها القصة فى التراث المسيحى ، يتفق تماماً مع المنهج الذى انتهجه آباء الكنيسة منذ بولس الذى وضع أسسها وصاغ مبادئها ورتب أفكارها . فقد انتقلت الطقوس اليونانية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وجاءت من مصر الفرعونية آراء الثالوث المقدس ، وعبادة أم الطفل ، ونظام الأديرة . ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس . وربما كانت تراقيا هى التى بعثت للمسيحية بطقوس ديونيتس ، وموت الإله ونجاته ، ومن بلاد فارس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه للأرض ألف عام وعصور الأرض واللهب الأخير الذى سيحرقها وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور .

فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً «يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه» كذلك ومن عبادة ديونيتس وايثس ومتراس أخذت المسيحية الطقس الذى يقوم فيه القس بمباركة الخبز والخمر على أساس الاعتقاد بأنهما كانا هما لحم المسيح ودمه أو أنهما يمثلان لحمه ودمه ، وهو ما كان شائعاً لدى عبادة ديونيتس وايثس ومتراس الذين كانوا يقيمون المآدب التى يأكلون فيها الأجساد المسحورة لآلهتهم ، أو رموز هذه الأجساد .

ولقد أدى التشابه بين الطقوس المتراسية والقربان المقدس فى القداس إلى حدٍّ

أحرج الآباء المسيحيين فلم يجدوا له تفسيراً أو تبريراً إلا الزعم بأن إبليس هو الذى ابتدعه ليضل به ضعاف العقول (١٧).

كذلك أخذت الكنيسة من روما الوثنية العادات والمراسيم الدينية التى كانت سائدة فيها قبل قيام المسيحية كالبطرشيل وغيره من ثياب الوثنيين، واستعمال البخور والماء المقدس فى التطهير، وإيقاد الشموع، ووضع ضوء دائم لا ينطفى أمام المذبح، وعبادة القديسين وهندسة الباسلقا، وقوانين دوما التى اتخذتها الكنيسة أساساً للقانون الكنسى، ولقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus الذى أطلق على كبير الأساقفة، مضافاً إلى اللغة اللاتينية التى أضحت فى القرن الرابع تؤدى بها الشعائر الكاثوليكية، بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع المماثل لما كان قائماً قبل المسيحية من الجمع بين السلطة الزمنية والدينية فى يد القيصر أو الإمبراطور الوثنى، فبعد عجز السلطة الزمنية أمام مؤامرات الأساقفة والباباوات ومكائدهم لم يلبث هؤلاء، لا الحكام الرومان، أن أصبحوا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان فى مدائن الإمبراطورية (١٨).

فإذا كان هذا هو أسلوب رجال الكنيسة منذ البداية، وهذا هو منطقهم، فما الذى جد فى القرن الخامس حتى يمنعهم من اللجوء إلى نفس الطريقة لدعم العقيدة التى تعرضت للضعف والاهتزاز، فيستعير أحدهم أو بالأحرى أحد كبرائهم، قصة حدثت فى مكان آخر لم يكد يسمع بها أحد إلا عدد قليل من الناس الذين يقيمون فى صحراء لا يكاد يطؤها أحد فيزعم أنها حدثت فى «أفسوس» حيث مقر إحدى أكبر خمس كنائس فى العالم المسيحى، وحيث نشب الخلاف بين الناس حول أمور خطيرة تعد من المبادىء الأساسية التى قامت عليها الكنيسة.

ويمكن القول إن انتحال «جيمس الساروجى» بتشجيع من جريجورى أسقف كنيسة تور لمعجزة أهل الكهف، إنما كان بدافع من الرغبة الدفينة لدى الآريين فى مناوأة الساميين ومنافستهم فى ميدان، ظل لحقبة طويلة من التاريخ، حكراً عليهم، هو ميدان النبوات والديانات والمعجزات فأرادوا من ناحية، أن يكون لهم

---

(١٧) ول ديورانت المرجع السابق، صفحة ٢٧٥.

(١٨) المرجع السابق، صفحة ٣١٩.

نصيب فيه ، ومن ناحية ثانية أن يدعموا عقيدتهم التثليثية بالادعاء أن فتية من الرومان يعتنقون المسيحية التثليثية كانوا موضوعاً لمعجزة عظيمة ، حيث فروا بعقيدتهم هذه من حاكم وثنى إلى الكهف ، فناموا فيه لمدة طويلة ، ثم بعثوا من نومهم ليجدوا أن عقيدة التثليث قد انتصرت ، وأن الصليب المظفر يعلو أبواب المدينة ومبانيها .

ولم تكن تلك هى المحاولة الأولى التى يقوم بها رجال الدين المسيحيون لدعم المسيحية ، بل سبقتها محاولات كثيرة جرت على امتداد القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، استهدفت دعم المسيحية بما كانوا يسمونه « الآثار المقدسة » والمعجزات ، وكان « أمبروز » أو كما يسمونه « القديس أمبروز » المتوفى سنة ٣٩٧ ميلادية ، فى صراعه من أجل هزيمة المذهب الأريوسى الذى لقى ترحيباً من كثيرين من الناس ، هو أول من نمى بطريقة منظمة حركة جمع الآثار المقدسة ، وكانت مدينة ميلانو فقيرة من هذه الناحية فلم يكن لها شهداء يحفظونها من المخاطر والكوارث ، فى حين أن روما كان يوجد بها الثنائى الذى لا يقهر ، على حد اعتقاد بعض المسيحيين وهما القديس بطرس والقديس بولس — فى حين أن القسطنطينية كان بها القديسون « اندراوس » و« لوقا » و« تيموثى » ، وخلال خمسين أو ستين سنة أجريت اكتشافات مدهشة فى أورشليم منها ما انتهى إلى الكشف عن جسد القديس أسطفانوس ، ورأس يوحنا المعمدان ، وكرسى القديس جيمس ، وسلسلة القديس بولس ، والعمود الذى استخدم فى جلد المسيح ، ومنذ سنة ٣٢٦ اكتشف الصليب الذى صلب عليه المسيح ، بل الأكثر من هذا أنهم ادعوا العثور على أظافر المسيح .

وخلال العقود الأخيرة من القرن الرابع كانت هناك موجة من الاكتشافات والتزوير ، والسرقات والاتجار فيما يسمى كنوز الكنيسة أو الكنوز المقدسة ، وقد بذل الوثنيون ما فى وسعهم للحد من هذه الجرائم التى كانت ترتكب باسم الدين ، وأعلن الكاتب « فوتيوس » إدانته للمسيحيين لقيامهم ببساطة شديدة بإحلال « الشهداء » محل أصنام الوثنية ولإحيائهم لفكرة المعجزات تحت اسم آخر[١٩] . كما أن كتاباً مسيحيين آخرين عبروا عن قلقهم مما كان يحدث ، مثل الكاهن

Paul Johnson, A History of Christianity, Athenuem, Niw York 1983, P 106.

« فيجيلنتوس Vigilontius » الذى اعترض على مزاعم الكنيسة بشأن المعجزات واستغلالها للآثار المقدسة لإغراء العامة بالتردد على الكنائس ، وتشجيعهم على تقبيل تلك الآثار، كذلك فقد أقدم كثير من الرهبان على سرقة مخلفات القديسين وبيعها ، وكثر نهب القبور وسرقة مافيها من أجساد ، مع ما قد يوجد معها من أشياء ثمينة وبيعها للناس على أنها آثار قديسين ، مما دفع الإمبراطور ثيودوسيوس إلى إصدار أوامره التى تقضى بتحريم نقل أجساد الموتى من مكان إلى مكان ، وتحريم بيع الآثار المقدسة ، وآثار الشهداء أو نقلها .

والغريب فى الأمر حقاً أنه فى عهد « ثيودسيوس » صدر قرار بإباحة إقامة الكنائس على قبور القديسين ، فكان ذلك بمثابة الأساس الذى قامت عليه نظرياً وعلمياً عبادة الآثار المقدسة ، وكان العالم فى حالة فزع من الشياطين ، فأصبح على يدى « أمبروز » مرتبطاً بآلهة الوثنيين وبشياطين الهراطقة وبالعظام وبغيرها من آثار القديسين التى ساد الاعتقاد بأنها تحمى من الشياطين ، وأصبحت أى كنيسة تستحوذ على شىء من تلك الآثار تستأثر بالحماية ، وينال كاهنها الاهتمام والحظوة ، ويصبح له مكانة هامة وكلمة مسموعة فضلاً عما يحصل عليه من مال من رعايا الكنيسة ، وبالرغم من كل هذه المساوىء فإن « أمبروز » ظل يشجع نظام « الآثار المقدسة » وادعى اكتشافه للهيكل العظمى للقديسين « جرفاسيوس » Gervasius وبروتاسيوس Protasius .

وبعد موت « أمبروز » ظهر أسقف آخر لا يقل عنه حماساً للاختلاق والتزوير هو « جريجورى » أسقف مدينة « تور » بفرنسا ، الذى وجد ضالته فى « جيمس الساروجى » أسقف « ساروج » الذى زور قصة النيام السبعة ، وادعى ما ادعاه بشأنها ، فقد بادر « جريجورى » إلى ترجمة القصة إلى اللاتينية وأذاعها فى أوربا ، وكان له فضلاً عن ذلك محاولات أخرى أراد أن يبارى فيها سلفه « أمبروز » حيث ادعى أنه أثناء قيامه بمراسيم القداس سقطت كتلة من سقف الكنيسة على رءوس ، أو بالأحرى ، جماجم بعض الشهداء التى كانت بالكنيسة فكشطتها فإذا بالدم يتدفق منها ! وغير هذا الكثير مما افتراه « أمبروز » و « جريجورى » وغيرهما من أساقفة الكنيسة ، وادعوا أنه من المسيحية فى حين أنه محض أكاذيب وأضاليل . وكان « أمبروز » يبرر أكاذيبه بأنها تزيد من ارتباط الناس بالكنيسة ،

وتدعم اقتناعهم بالعقيدة وتذكرهم بالآخرة، وتجعلهم يخافون من العقاب الذى سينزل بهم يوم الحساب، كما أن هذه الأكاذيب تشجعهم على التضحية من أجل الكنيسة، ولعلنا لا نكون نسينا أكاذيب وافتراءات «الباب إيربان الثانى» فى أواخر القرن الحادى عشر وكيف أدت إلى الحروب الصليبية، التى أزهقت أرواح مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال من المسلمين لا لشىء إلا لمجرد إشباع نهمه ونهم أعوانه من رجال الكهنوت إلى السلطة والثروة، وإشباع رغبتهم فى القضاء على الإسلام والمسلمين.

ومن المعلوم أن المسيحية ــ كعقيدة ــ قامت على فكرة البعث والحساب فقط، ولذلك فإن الإنجيل لم يتضمن شيئاً خلاف المبادىء والأقوال التى تدعم هذه الفكرة وتثبتها فى الأذهان، أما ما قيل إنه ورد على لسان المسيح من أقوال تضمنتها الأناجيل المختلفة، فإن ما بينها من تناقض واضح يدل بذاته على اختلاقها ونسبتها زوراً إلى المسيح، وهو ما كشف عنه «هردر» فى دراسته للأناجيل ودفعه إلى القول إن: «ما بين مسيح متى، ومرقص، ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها» (٢٠).

وكان بولس واضع أساس اللاهوت المسيحى قد نسب إلى المسيح أقوالاً لا أساس لها من الصحة، يزعم بها أنه، أى المسيح (الإله) سوف يبعث مرة أخرى لينقذ العالم مما انحدر إليه، ويرجح كفة المؤمنين على الكفار، وهى مقولة صحيحة فى نصفها الأول كاذبة فى نصفها الثانى، أو بمعنى أدق فيما عناه بولس بكلمة «المؤمنين» فهم بدون شك ليسوا من يعبدون الثالوث، وزعم بولس أن نزول الرب (يقصد عيسى) سيكون قريباً جدًّا وعلى وجه التحديد فى حياة بولس نفسه، فلما طال انتظار الناس لهذا البعث دون جدوى، بدا إيمانهم بالفكرة ذاتها يتزعزع ويضعف، حتى وصل بهم الأمر إلى الشك فى البعث، وكان بولس قد كتب إلى أهل «فيلبى» قائلاً: «ننتظر مُخلصاً هو الرب يسوع المسيح.. الرب قريب» فلما تأخر مجىء الرب، على حد قوله، وبدأ الناس يهملون شئون العالم انتظاراً لقرب مجىء المسيح، حاول بولس أن يوفق بين عقيدته الأولى وبين تأخر مجىء المسيح للمرة الثانية، وأخذ يضع أمله فى أن يراه بعد أن يموت.

---

(٢٠) ول ديورانت المرجع السابق صفحة ٢٠٣.

واستمر خلفاء بولس فى ترديد كلامه بشأن عودة الرب يسوع المسيح إلى الأرض، والقول بأنه قريب فلما أن بدأ هذا الأمل يضمحل، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى، وضعفت الأخلاق المسيحية، وشاهد ذلك أن رسالة لا يعرف كاتبها تسمى راعى هرماس (حوالى عام ١١٠) تندد بعودة البخل والخيانة وأصباغ الشفاه، وصبغ الشعر، وتلوين الجفون، والسكر، والزنى بين المسيحيين (٢١).

وكانت ردود الفعل تختلف فى كل مرة يردد فيها الأساقفة ادعاء بولس بعودة المسيح الرب يسوع، فتارة يكون رد الفعل الزهد والتقشف وإهمال شئون العالم، وتارة يكون رد الفعل هو الإغراق فى الفساد وشيوع الرذائل. ومع ذلك استمر الأساقفة فى ترديد الادعاء بعودة الرب يسوع المسيح، فسار أحدهم وهو أسقف سورى على رأس أتباعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق، وفى بنطس، أفسد أسقف آخر نظام أتباعه بأن أعلن أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد، ولما لم تصدق كل هذه العلامات، ولم يعد المسيح، رأى عقلاء المسيحية أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً، فقيل فى رسالة معزوة إلى برنابا: إنه سيعود فى خلال ألف عام ويقول ول ديورانت (٢٢): «وملاك القول أن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هى التى أقامت صرح المسيحية، وأن الأمل فى الدار الآخرة هو الذى أبقى عليها».

وقد تضاعفت خيبة أمل المسيحيين فى البعث وعودة المسيح فى عام ١٥٦، عندما قام رجل يدعى مونتانس Montanus تنبأ بأن ملكوت السموات قد دنت ساعتها، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها سفر الرؤيا ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل، ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلت معها بعض المدن من سكانها، وحدث فى هذا الوقت ما حدث فى بداية عهد المسيحية، فامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل، وجعلوا متاعهم ملكاً مشاعاً بينهم وعمدوا إلى التقشف والزهد استعداداً لمجيء المسيح (٢٣).

---

(٢١) المرجع السابق صفحة ٢٨٢.
(٢٢) المرجع السابق السابق ص ٢٩١.
(٢٣) المرجع السابق ص ٢٩٤

وفضلاً عن مشكلة عودة الرب يسوع المسيح ، وما أسفرت عنه من نتائج خطيرة ، فإن الأيام ما لبثت أن حملت إلى الكنيسة عدداً آخر من المشكلات ، منها ما هو ناشىء عن الاختلاف فى تفسير طبيعة المسيح ، وهل هى طبيعة لاهوتية أم طبيعة ناسوتية أم مزيج من الاثنتين ، وتفرق المسيحيون شيعاً كثيرة ، حتى أصبح هَمُّ كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً « واستطاع إيرينيوس أن يحصى فى عام ١٨٧ عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين ، وأحصى إيفانيوس فى عام ٣٨٤ ثمانين شيعة ، وكانت الأفكار الأجنبية تتسرب إلى العقيدة المسيحية فى كل نقطة من نقاطها ، وأخذ المؤمنون المسيحيون ينضمون إلى هذه الشيع الجديدة » .

وفى تطور لاحق انتقلت الخلافات بين الشيع والكنائس المختلفة إلى المجامع الكنسية ، التى لم تسفر المناقشات التى دارت فيها إلا عن مزيد من الخلاف حول طبيعة المسيح ونزوله وغير ذلك ، ووقف إثناسيوس ضد آريوس (مجمع نيقية ٣٢٥) وبعد طرد آريوس أعيد إلى كرسيه ، وصدر القرار بخلع إثناسيوس الذى ما لبث أنصاره أن دسوا السم لآريوس فمات لساعته ، وبعد عودة إثناسيوس إلى كرسى الإسكندرية طرد منه للمرة الثانية بعد موت الإمبراطور قسطنطين ، واعتناق ابنته وخليفته قسطنطيوس الآريوسية التى تذهب إلى القول بتشابه المسيح والآب دون اتحادهما فى المادة ، ولكن إثناسيوس ظل يقاوم هذا الرأى حتى عادت عقيدة التثليث من جديد .

غير أن الآراء المعارضة للتثليث لم تنفك تظهر بين الحين والحين ، بل ذهب بعضها إلى حد إنكار أن للمسيح طبيعة غير طبيعته البشرية ، وهو ما رددته شيعة الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان (٢٤) .

وفى القرن الخامس الذى استيقظ فيه أهل الكهف ثار الخلاف من جديد حول طبيعة المسيح ، فقد خرج على الناس المدعو أوتيكيس Eutyches وهو رئيس دير قريب من القسطنطينية ، بادعاء يقول فيه: إن المسيح ليست له طبيعتان بشرية وإلهية ، بل إن له طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية ،وأيده فيما قاله ديوسكوراس أسقف الإسكندرية ، فى حين أنكرها فلافيان بطريق القسطنطينية ، الذى عقد مجمعاً محلياً مقدساً أنكر هذه البدعة ، وحرم أوتيكيس من الكنيسة المسيحية ،

٢٤) المرجع السابق ص ٢٩٤ .

ولكن بطريق الإسكندرية أقنع الإمبراطور ثيودوسيوس الذى يقال إن أهل الكهف استيقظوا فى عهده، وإنه الملك الصالح الذى ذهب بنفسه إليهم فى كهفهم فى أفسوس والذى كان، طبقاً لما جاء فى الروايات المختلفة التى رويت عن أهل الكهف، أنه لما رأى ضعف إيمان الناس بالبعث دعا الله أن يأتى بمعجزة تعيد إليهم هذا الإيمان، فاستجاب له لصلاحه وورعه وحدثت المعجزة. هذا الإمبراطور الصالح عقد مجمعاً كنسيًّا فى أفسوس عام ٤٤٩ أصدر قراره ببراءة أوتيكيس وبإعلان أن اللعنة على كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح، وإنما هى طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية فأى إله هو الذى صلى لـه ثيودوسيوس الصالح وطلب منه المعجزة: أهو الرب يسوع أم الله الواحد الأحد؟

والغريب فى الأمر أن بابا روما ليوالأول ارتاع لهذا القرار، وأطلق على المجلس الذى أصدره اسم «مجمع اللصوص» وأبى أن يوافق على قراراته، ثم عقد مجلساً آخر فى خليقدون Chalcedoon عام ٤٥١ أيد قرارات البابا وأعلن سخطه على أوتيكيس، وأيد من جديد ازدواج طبيعة المسيح [٢٥] ليس ذلك وحسب، بل إن الإمبراطور ثيودوسيوس لم يكتف بإعلان إيمانه بفكرة الطبيعة الواحدة للمسيح، وهى الطبيعة الإلهية، بل أضاف إلى ذلك إيمانه بأن السيدة العذراء هى أم الطبيعة الإلهية فى المسيح، وأصدر قراره بنفى أسقف القسطنطينية المدعو نسطوريوس؛ لأنه كان يقول إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية فى المسيح، بل أم طبيعته البشرية، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح. وهكذا جعل ثيودوسيوس الصالح مع الله إلهين المسيح وأمه [٢٦].

كذلك يلاحظ من يقرأ قصة النيام السبعة أن (جيمس الساروجى) الذى لم يشاهد دخول الفتية الكهف ولا استيقاظهم فيه، زعم أن الفتية هربوا إلى الكهف فى عهد القيصر (ديكيوس) أو ديسيوس الذى تعمد أن يشوه سمعته ويسىء إليه، مدعياً أنه فرض على المسيحيين أن يعبدوه ويسجدوا لتمثاله، كما ادعى أنهم استيقظوا فى عهد ثيودوسيوس الأصغر، الذى وصفه بأنه صالح وتقى؛ لأنه كان ألعوبة فى أيدى الأساقفة، يضع خاتمه على كل ما يصدر عن مجامعهم

---

(٢٥) ديورانت، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ١٠٢.

(٢٦) المرجع السابق ص ١٠١.

من قرارات ، حتى ولو كانت تدعى كذباً أن المسيح إله وأمه إلهة أيضاً ، وهكذا دأب هؤلاء الناس دائماً على تشويه صورة من لا يسايرهم فيما يذهبون إليه ، ويحسنون ويجملون صور من يسايرهم ولو كان ما ذهبوا إليه كذباً وافتراء على الله .

كذلك يوجد دليل آخر على أن قصة النيام السبعة ليست صحيحة بل مزورة ، وهو الدليل المستمد مما أجمع عليه المؤرخون والباحثون الذين كتبوا عنها ، فقد أجمعوا على أنها كانت قد كتبت بالسريانية لغة سكان الشام قديماً ، ثم ترجمت إلى اللاتينية بفضل عناية جريجورى أسقف مدينة (تور) بفرنسا وهو أمر غريب حقاً ؛ ذلك لأن الحادثة وقعت فى مدينة رومانية كبيرة هى (أفسوس) وأبطالها من سكان هذه المدينة ، أى من الروم الذين حضر الإمبراطور (ثيودوسيوس) بنفسه ومعه الوزراء وكبار رجال دولته إليهم فى الكهف ، وتكلم معهم وسمع قصتهم العجيبة ، ولاشك أنه تكلم معهم باللاتينية أو باليونانية ، فكيف لم تكتب القصة بهذه اللغة أو بتلك وكتبت بالسريانية التى هى لغة شعب يستعمر اليونانيون بلاده ؟

إن هذا الذى حدث يشبه أن تكون حادثة هامة وقعت فى (يوركاشير) بإنجلترا فى بداية هذا القرن ، فقام بعض الإنجليز بكتابتها باللغة العربية لا لشىء إلا لأن بلادهم تحتل مصر ، فهل هذا معقول ؟ ومع ذلك فإن المستشرقين ، على الرغم مما يتظاهرون به من ذكاء وفطنة وبعد نظر ، يقبلون ببساطة تبلغ درجة السذاجة أن يحدث ذلك بالنسبة لقصة النيام السبعة ، وبطبيعة الحال فإن ما فعله هؤلاء الناس من تغاضيهم عما فى القصة المزورة من تناقضات وأخطاء لا يفعلون مثله مع الموضوعات الإسلامية ، حتى ولو كانت صحيحة ، فهم يشحذون أفكارهم ويستنفرون ذكاءهم من أجل أن يستخلصوا منها أخطاء ، ويفتعلوا لها مثالب ويلصقون بها عيوباً غير عابئين بحكم التاريخ على سلوكهم هذا ، فكل ما يهمهم هو أن يسيئوا إلى الإسلام وأن يشوهوا صورته .

ومما يدعو إلى السخرية حقاً أن يلصقوا بالإسلام تهمة انتحال هذه القصة من المصادر المسيحية ، فى حين أنهم هم الذين انتحلوها من مصدرها الأصلى وزوروها وأضافوا إليها تفاصيل ليست منها لا لشىء إلا لاستغلالها فى الترويج لأفكارهم الضالة وتزيين مبادئهم التثليثية المشركة فى نظر الناس السذج . فها هو

(ادوارد جيبون) المؤرخ الإنجليزى يقول مفسراً وجود قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم: «لابد أن النبى محمداً قد سمعها عندما ذهب بقوافله إلى أسواق سوريا» وهكذا دأب الغالبية العظمى من علماء الغرب الذين يتعرضون للإسلام بالدراسة والبحث، فهم يصدرون أحكامهم عليه بطريقة تنطوى على الكثير من التعسف، إن لم يكن الافتراء الذى لا يستند إلى أساس، حتى ولو كان واهياً.

ولكن مما لا شك فيه أن «جيبون» قد كشف بالرغم عنه عن الكيفية التى انتقلت بها أحداث القصة من مكانها الأصلى إلى «أفسوس» على يدى «جيمس الساروجى» الذى سمع عن القصة من آخرين فذكرها فى عظاته على أنها حدثت فى «أفسوس»، وما قاله «جيبون» يسمى فى علم النفس «إسقاطاً» يقوم فيه الشخص بإسناد واقعة معينة إلى غير أصحابها، سواء أكانت الواقعة تخصه هو شخصياً أم تخص جماعته، التى ينتمى إليها، وفى جميع الأحوال فإن الواقعة التى تتناولها عملية الإسقاط تكون من النوع الذى لا يشرف، كالكذب والسرقة وسوء السلوك وغير ذلك، ولما أن كان «جيبون» ملحداً لا يؤمن بالله، وبالتالى لا يهمه أن يدافع عن المسيحية أو أن يهاجم الإسلام، لأن الأديان ـ فى اعتقاده ـ تتساوى من حيث ترويجها لأفكار لا يؤمن بها هم، فإن عملية الإسقاط لا تنسب إليه لأنه مجرد ناقل للأحداث من مصادر قديمة، ومردد لآراء صدرت عن غيره، وبالتالى فإن الإسقاط ينسب إلى أولئك الذين نقل عنهم وردد آراءهم.

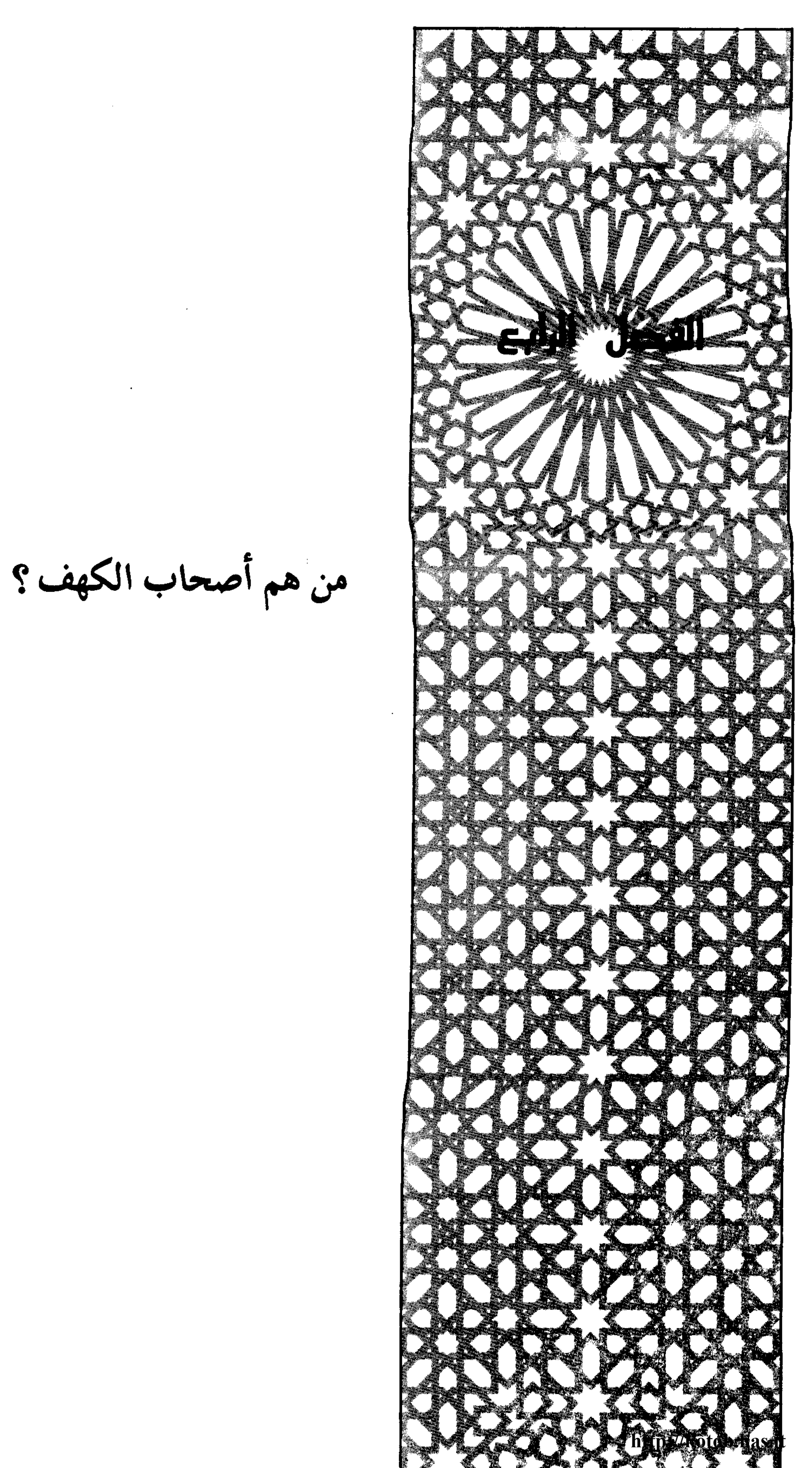
وكان بمقدور «جيبون» الذى كان فى كثير مما ذكره عن الإسلام، أقرب إلى الإنصاف من كثير من المؤرخين الغربيين، وبخاصة المتعصبون منهم الذين ضربوا عرض الحائط بالحقائق الثابتة، وزيفوا وزوروا بلا وازع من ضمير أو خوف من حكم التاريخ عليهم، كان بمقدوره أن يكتشف ببساطة شديدة أن ما زعمه من أن الرسول ﷺ قد سمع قصة أهل الكهف عندما ذهب بقوافله إلى أسواق سوريا، ليس صحيحاً من ناحية، ويتضمن بذاته دليلاً على أن القصة لم تحدث فى (أفسوس) كما زعم «جيمس الساروجى» من ناحية أخرى، أما من حيث عدم صحة ما قيل من أن الرسول ﷺ كان قد سمع بالقصة عند تردده على أسواق سوريا ثم إضافته إياها بعد ذلك إلى القرآن الكريم، فإن الرسول لم يذهب

إلى سوريا غير مرتين كان فيهما صغيراً دون الثانية عشرة، ليس لديه فكرة لا من قريب ولا من بعيد عما سوف يصير إليه عندما يبلغ الأربعين، ويبعثه الله رسولاً للبشرية، ولا نتصور أن القصة بصورتها الدقيقة بل البالغة الدقة التى أوردها بها القرآن يمكن أن تكون مجرد ذكريات قديمة اختزنتها ذاكرة الطفل، أو حتى صبى صغير لمدة تزيد على الثلاثين عاماً. ومع ذلك فإنها لما أفرزتها بعد أن أصبح رسولاً إذ بها تأتى متسقة تخلو من التناقض الذى يعيب قصة النيام السبعة التى يزعم «جيمس الساروجى» أنها القصة الحقيقة، فكيف تسنى لمحمد ﷺ أن يخلص القصة (الحقيقية) على حد زعمهم من التناقض، ويعيد إليها اتساقها، اللهم إلا إذا كان ما قاله هو الحق الذى جاء به من ربه.

أما من حيث إن ما قاله «جيبون» من أن الرسول ﷺ سمع بالقصة فى سوريا، على الرغم من أنها وقعت فى (أفسوس) بآسيا الوسطى، فمعنى ذلك أنها كانت شائعة فى سوريا فى صورة تختلف عن الصورة التى ترسمها قصة النيام السبعة التى تنسب إلى «جيمس الساروجى» والتى إذا ما قارنا بينها وبين الصورة السورية، التى ينبغى أن تكون طبقاً لما زعمه «جيبون» هى التى ذكرها القرآن، فسوف يتبين لنا أى الصورتين هى الصحيحة والدقيقة والمتسقة، وأيتها الكاذبة والمشوشة والمضطربة والمتناقضة، مما يدل ــ مع افتراضنا جدلاً صحة ما زعــم من أن الرسول ﷺ كان قد سمعها عند زيارته لسوريا ــ على أن قصة «جيمس الساروجى» قد انتحلت وزورت من أجل أن تخدم أغراض الكنيسة الكاثوليكية.

فإذا لم تكن معجزة أصحاب الكهف قد حدثت فى (أفسوس) ولم يكن من أبطالها ملكان أحدهما يدعى (ديكيوس) والآخر يدعى (ثيودوسيوس) الثانى أو الأصغر، وإذا لم يكن ما رواه (ديونيس) فى كتابه المزعوم، وما قاله «جيمس الساروجى» فى عظاته الكاذبة عن النيام السبعة صحيحاً، فما هى القصة الحقيقية؟ قصة أصحاب الكهف كما حدثت فعلاً، وليس كما زورها أساتذة التزوير الذين زوروا المسيحية الحقيقية، وجعلوا من المسيح إلهاً ومن الإله الواحد ثلاثة. هذا ما سوف نبينه فى الفصول التالية.


http://kotob.has.it



من هم أصحاب الكهف ؟

من هم أصحاب الكهف

بعد أن نفينا فى الفصل السابق عن تمليخا ومكسميلينا وغيرهما ممن وردت أسماؤهم فى قصة النيام السبعة وصف أصحاب الكهف ، بعد أن دللنا على ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد ، يبقى أن نبين للقارىء : من هم أصحاب الكهف الحقيقيون ؟ وما موطنهم الصحيح ؟ وما مكان الكهف الذى أووا إليه ؟ هذا بالإضافة إلى عقيدتهم الصحيحة التى لم تكن مسيحية بولس القائمة على بنوة المسيح لله ، وعبادة الثالوث ، ولا عبادة يهوه إله بنى إسرائيل الذى جسموه وأطلقوا عليه من الأوصاف ما أملته عليهم أهواؤهم ، ولكن كانت عقيدتهم الإسلام الذى يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله .

وسوف يقتضينا الأمر بيان ما كان عليه الحال فى فلسطين قبل بعثة المسيح عليه السلام ، والفرق اليهودية التى كانت موجودة وقتئذ وابتعادها أو اقترابها من العقيدة الصحيحة ، وموقفها من دعوة المسيح عيسى عليه السلام ، ومواقعها على خريطة المنطقة ، وما آل إليه حالها بعد وقوع الصدام فيما بينها ، ثم بينها وبين الرومان .

وسوف يتبين القارىء أى المذاهب والطوائف التى سنتكلم عنها هى التى يمكن أن تكون الطائفة التى ينتمى إليها أصحاب الكهف : أهى طائفة الصدوقيين التى لا تؤمن بالبعث والحساب ، أم طائفة الفريسيين التى وإن كانت تؤمن بالبعث والحساب إلا أنها حرفت العقيدة الصحيحة وانحرفت عن الناموس ،

أم هى طائفة الآسيين أو الآسينيين كما يسميها الأستاذ العقاد، التى تؤمن بالله الواحد وتؤمن بالبعث والحساب وبالقضاء والقدر وبالملائكة والرسل. أم طائفة النصارى، أم كما يسميها الأستاذ العقاد النذيريين الذين مالبثوا أن انحرفوا عن الدين الصحيح إلى مازعمه بولس من بنوة المسيح لله وماترتب على ذلك من القول بألوهيته هو وأمه العذراء.

علاقة أهل الكهف باليهود:

على الرغم من أن البشارة بالمسيح قد جاءت فى التوراة على أنه رسول سوف يأتى بعد موسى، فإن الأسفار التى وضعها أنبياء بنى إسرائيل تضمنت أقوالاً مختلفة تماماً تتحدث عن منقذ إلهى يأتى لينقذ بنى إسرائيل من أيدى أعدائهم، وهذا المنقذ هو إما (يهوه) نفسه وإما ابنه أو ممثله المسيح.

ويقول ول ديورانت (١): «الراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسيا من بلاد فارس أو بابل، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صُوِّرا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة، وقوى الظلام الشيطانية، ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ ـ شؤسيانت أو مثراس ـ ليحكم بين الناس ويقيم العدالة والسلام الدائمين».

وقد انتقلت هذه الأفكار إلى الأسفار اليهودية، وكان كتاب (دانيال) الذى كتب فى عام ١٦٥ ق.م ليشجع اليهود على الوقوف فى وجه انتيخس إيفانس ـ لايزال ذائعاً بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلاً تحت سيطرة الوثنيين. واتخذ كتاب (أخنوخ) وهو فى أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين بين عامى ١٧٠، ٦٦ ق.م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى «سار مع الرب» فى سفر التكوين (الآية ٢٤ من الأصحاح الخامس) ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم فى حياة البشر، ثم نجاة بنى الإنسان على يد المسيح، وحلول مملكة السماء.

وفى سفر الرؤيا كلام عن القضاء على الشر والإثم بتدخل الله نفسه، أو

---

(١) الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ١٨٠.

بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح وقد وردت كلمة المسيح ــ وهي بالعبرية مسيح ــ في كثير من المواضع في العهد القديم، وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨٠ ق. م) باللفظ اليونانى Christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به). أو لم ينبىء به النبى (أشعيا) قبل ذلك العهد بمائة عام إذ يقول: «لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابنا،وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام».

إذن فاليهود قد سبقوا بأفكارهم عن ابن الله، ولادة المسيح نفسه فمهدوا بذلك لشيوع الاعتقاد لدى الناس بأن لله ولداً، وقد نقلوا هذه الأفكار عن العقائد الوثنية سواء فى مصر أو فى فارس، والمعروف أنهم قد تأثروا بالعقائد البابلية أثناء نفيهم إلى بابل.

ومع ذلك فإن اليهود-أو بالأحرى-زعماءهم كانوا أول من ناصب المسيح العداء عندما ظهر، ويرجع السبب فى عدائهم له إلى أنه لم يكن فى شخصيته ولا فى سلوكه ولا فى دعوته محققاً لما كانوا يطمحون إليه، فطالما تطلعوا ــ وهم فى أسر الرومان ــ إلى من يخلصهم من الذل والظلم والاستعباد، فتوقعوا بطبيعة الحال أن يكون المنقذ على مستوى موسى أو داود أو سليمان، نبياً محارباً قوياً ينتصر لهم على أعدائهم وينتقم لهم منهم. وقد انتقلت هذه الأفكار إلى العامة الذين كانوا يشاركون بعض الصالحين فى ترقبهم لظهور المخلص والمنقذ، ومن هؤلاء الصالحين (شمعون) وكذلك (آنا) ابنة فانبول وغيرهما ممن كانوا يقضون حياتهم حول المعبد، صائمين يترقبون، ويصلون ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم، وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس (٢).

ومما هو جدير بالملاحظة أن اليهود ظلوا يترقبون ظهور المسيح إلى ما بعد ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام بمائتى سنة تقريباً، وذلك لعدم اقتناعهم أو بالأحرى عدم اقتناع غالبيتهم العظمى بأن عيسى بن مريم هو المسيح المنتظر، نظراً لما وجدوه من اختلاف واضح بينه وبين المسيح الذى صوره لهم أحبارهم، فبعد أحداث عامى ١١٥ ــ ١١٦ ميلادية، والتى قام فيها اليهود بقتل غير اليهود، فقام

(٢) المرجع السابق، صفحة ١٨٣.

هؤلاء وقتلوا من اليهود أعداداً غفيرة. وبعد أن تم إخماد الفتنة ظل من بقى من اليهود محتفظين بأملهم القوى فى ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم ظافرين إلى أورشليم، وفى الثورة التى وقعت فى عام ١٣٢ ميلادية كرد فعل لما أعلنه الإمبراطور (هادريان) فى عام سابق من اعتزامه بناء ضريح جديد لجوبيتر فى مكان الهيكل، وإصداره مرسوماً بتجريم الختان وتحريم تعليم الشريعة اليهودية علناً، تزعم المدعو (شمعون باركوشيبا) الثائرين، وادعى أنه هو المسيح، وقد انتهت هذه الثورة بهزيمة منكرة على أيدى الرومان.

وقد اعتبر بعض المؤرخين المسيحيين أن (هادريان) بتدميره لأورشليم وللهيكل قد وضع نهاية للصبغة اليهودية، التى كانت تصبغ المسيحية، والتى كان من شأنها لو أنها استمرت أن تجعل المسيحية كما لو كانت مذهباً إصلاحياً يهودياً يحافظ على القيود الشرعية القديمة والالتزامات الطقوسية الثقيلة، ويقولون إنه لو كانت هذه النظرية قد انتصرت لأدى ذلك إلى تدمير المسيحية كما دمرت أورشليم، أو لتحولت فى تلك الظروف البائسة إلى مذهب يهودى يعتبر من يعتنقه من الأمميين، فى نظر اليهود، أتباعاً من الدرجة الثانية أو كما كانوا يسمونهم «المهتدون حديثاً» أو المهتدون الجدد (٣).

الطوائف اليهودية:

كان اليهود قبل ظهور المسيح ينقسمون إلى ثلاث طوائف هى: الصدوقيون، والفريسيون، والآسيون، وكانوا مختلفين فيما بينهم حول البعث والحساب، فقد كان الصدوقيون يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر، ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة، ولذلك فإنهم لم يؤمنوا بهذه الأمور.

وكانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين، وهما «حنانيا» و«قيافا». أما الفريسيون فقد كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، وينكرون على خصومهم الصدوقيين عدم اعترافهم بها. وكانوا هم الأسبق إلى انتظار الخلاص على يد المسيح المخلص فى عالم الروح، وكانت هاتان الطائفتان أكبر الطوائف اليهودية. أما الطوائف الأخرى فكانت تقل عنها فى العدد كثيراً،

---

(٣) C.C. Baron Bunsen, God in History. Vol. 3. P. 51.

كما كانت تقل عنها فى القوة والثروة.

طائفة الآسينيين:

تعد هذه الطائفة أشد الطوائف اليهودية التى قامت قبل ميلاد المسيح غموضاً، سواء من حيث نشأتها ونهايتها، أو من حيث أفكارها ومعتقداتها. وقد تباينت الآراء بشأنها فمن قائل إنها هى التى كانت تقيم فى المنطقة التى عرفت فيما بعد بـ(خربة قمران) وسميت بطائفة قمران حيث عثر فى مغاراتها التى اكتشفت عام ١٩٤٧ على ما يسمى بلفائف قمران، وهى وثائق من الجلد سجلت عليها الطائفة نظمها ومعتقداتها وآراءها وأموراً أخرى فى غاية الأهمية، وألقت أضواء جديدة على التاريخ اليهودى، وفضحت تزوير اليهود للتوراة، واقتباس المسيحيين لكثير من أفكار ومبادىء الطائفة ونسبتها إلى المسيح. ومن قائل إن الطائفة الآسينية ليست هى طائفة قمران، وإنما هذه غير تلك ودلل على ذلك بأدلة وإن كانت ليست حاسمة، إلا أنها تلقى بظلال من الشك حول ما قيل من أن طائفة الآسينيين هى نفسها طائفة قمران، وهو ما سوف نبينه فيما بعد.

غير أن الذى لا شك فيه أنه سواء أكانت الطائفتان مختلفتين أم كانتا طائفة واحدة اختلف اسمها فسميت مرة بالآسينية نسبة إلى ما كانت تتميز به من صفات، وما يتمتع به أفرادها من مهارات، وسميت مرة ثانية بالقمرانية نسبة إلى المكان الذى أقامت فيه، وهى على ما يبدو تسمية جديدة لم تعرف إلا بعد اكتشاف الوثائق التى تركتها فى كهوف قمران، حيث كانت تعيش، فإن موقفها العادى للطائفتين اليهوديتين الكبيرتين وهما طائفة الصدوقيين وطائفة الفريسيين، وغيرتها على العقيدة الصحيحة وتمسكها بالتوراة الحقيقية، واحتفاظها بها بعيدة عن أى تزوير أو تغيير مما أدخلته هاتان الطائفتان على ما كان لديهما من نسخ للتوراة، هو من الأمور التى أكدتها الدراسات النقدية والمقارنة التى أجراها العلماء المتخصصون فى الدراسات اللاهوتية.

واسم هذه الطائفة مختلف عليه كما أسلفنا فبينما يقول «ول ديورانت» (٤) إن اسمها (الآسية) مشتق من اللفظ الكلدى (اسشاى) Aschai ومعناه المستحم.

---

(٤) المرجع السابق، الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ١٧٥.

فإن دائرة المعارف الأمريكية تقول: إن اسمها Essenes مشتق من الكلمة الآرامية Hasen وهى قريبة من الكلمة العبرية Hasidim ومعناها تقى أو ورع. أما الأستاذ عباس العقاد(٥) فإنه يقول إن «الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة (آسى) بمعنى الطبيب أو النطاسىّ فى اللغة الآرامية، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين؛لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح، ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير» وهذا ما قاله (آليجرو)(٦) أيضاً حيث ذكر أن الآسينين مارسوا مداواة المرضى، كما أخبر بذلك (يوسفيوس) فقد حصلوا من الأقدمين معلوماتهم الخاصة بالأعشاب التى تستخدم فى علاج المرضى وكذلك المعادن، ويقول: إن هناك تفسيراً من أكثر التفسيرات إقناعاً وهو الذى أمكن استخلاصه من اسمهم اليونانى وهو (Essaeoe or Esénoi) الذى ينطبق على الاسم الآرامى (ásayyá) ومعناه «الأطباء المعالجون» وهو على ما يبدو موصول بالاسم الذى أطلقه فيلو Philo على نظائرهم المصريين وهو «الخبراء بفن الشفاء» إذ المعروف أن هذه الطائفة كانت قد أقامت فى الإسكندرية قبل انتقالها إلى فلسطين، ويعزو آليجرو ما قام به السيد المسيح من أعمال أدت إلى شفاء المرضى إلى اتصاله بهذه الطائفة، وتعلمه منها، ويذكر ما جاء فى إنجيل لوقا (٧) عن المرأة التى كانت مصابة بالشلل فشفاها المسيح «وكان يُعَلِّم فى أحد المجامع فى السبت وإذا امرأة كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها يا امرأة إنك محلولة من ضعفك، ووضع عليها يديه ففى الحال استقامت ومجدت الله».

ولكن هناك من يرى(٨) أن كلمة (آسية) أصلها (قصية) أى أن حرف الألف يقابله حرف القاف ومعناها المعتزلة أو الخصية أى المتبتلة، ويذهب إلى

---

(٥) حياة المسيح، صفحة ٤١.

(٦) **John Allegro, The Dead Sea Scrolls, Areappraisal, P. 147.**

(٧) الأصحاح ١٣، الفقرات ١١ إلى ١٣.

(٨) يوسف درة الحداد، دراسات إنجيلية، الجزء الثانى، مصادر الوحى الإنجيلى، تاريخ المسيحية، صفحة ٦٠٧.

القول بأن ذكر هذه الجماعة قد ورد فى الإنجيل حيث ذكر: «فإن من الخصية من ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ومنهم من خصاهم الناس، ومنهم من يعيشون كالخصيان فى سبيل ملكوت الله» إشارة إلى الكهنة الرهبان فى أديرة قمران.

ومع ذلك فإنه لايلبث أن يعود إلى ترديد ما قاله العقاد وغيره من أنهم تلقبوا أيضاً بالأتقياء أى الآسينيين باللغة اليونانية؛ لأنهم تطرفوا فى الزهد بالنساء والولد والمال والطاعة لشريعتهم.

وقد توفرت عن الآسينيين معلومات قليلة منها ما ذكره المؤرخ اليهودى (فلافيوس يوسفيوس) Flavius Josephus الذى قدر عددهم بما لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين. كذلك كتب عنهم الفيلسوف فيلون Philo Judaeus وهو أحد ثلاثة اهتموا بهذه الطائفة، فوصف المكان الذى عاشت فيه وتاريخها ومعتقداتها الخاصة، أما الثالث فهو المؤرخ الرومانى الكبير (بلينى) Peliny الذى لقى مصرعه عام ٧٩ ميلادية فقد قال عن الآسينيين إنهم طائفة خاصة من الناس أكثر إثارة للإعجاب من أية طائفة أخرى فى العالم، إذ تخلَّوْا عن النساء، فقد نبذ أفرادها الجنس كلية، وهم معدمون لا يملكون سوى أشجار النخيل، فقد كانوا يحيون حياة تقوم على العزوبة، ويزهدون فى الغنى والثروة، ويميلون للعزلة، ويبغضون الحياة الدنيا اللاهية الصاخبة، ويعكفون على التوبة».

وقد فسر يوسفيوس كراهية الآسينيين للزواج قائلاً: «إنهم لم يكونوا يدينون الزواج من حيث المبدأ، ولكنهم كانوا يريدون أن يظلوا بمنأى عن خلاعة النساء وفسقهن، إذ كانوا يعتقدون أنه لا توجد امرأة واحدة مستعدة للإخلاص لرجل واحد، وقد اقتبس فيلون فى كتابه Apologia Pro Judaeis آراء شديدة القسوة اعتنقها الآسينيون عن النساء بصفة عامة منها: أنهن أنانيات، شديدات الغيرة، ماهرات فى إفساد أزواجهن أخلاقيًّا، وغوايتهم بالفتنة بشكل لا يكاد ينتهى أبداً(٩).

---

(٩) Allegro, op. cit, p. 117.

ويقول الأستاذ العقاد [١٠] عن هذه الطائفة : «ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة .. وتكون دلالتهم أعظم من قوتهم ؛ لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها ، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل كله فى علاقتها بالدين والقومية ، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود » .

ويقول الأستاذ العقاد إن الطائفة نشأت على الأغلب بالإسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد،واقتبست من مدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية . وهذا الكلام الذى قاله الأستاذ العقاد لا يختلف كثيراً مع ما قاله (ول ديورانت) من أن أعضاء الطائفة أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ، ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح ، كذلك فإن أعضاء هذه الطائفة كانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالسكان أو فى الأحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وإزجاء الفراغ .

ويتفق ما ورد فى دائرة المعارف الأمريكية بشأن التاريخ الذى ظهرت فيه هذه الطائفة مع ما ذكره العقاد ، فهى تحدد التاريخ الذى ظهرت فيه بالفترة الواقعة بين ١٤٠ ق.م إلى ٦٨ ميلادية . وكان أعضاء طائفة الآسينيين يؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، يعتقدون أن الإخلاص بعث روحانى يهدى الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضا من الله هو النبى «عمواس» الذى كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا ، ويقول المؤرخ اليهودى «يوسفيوس» إن حياة الكثرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام بفضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنظمة .

وتضيف دائرة المعارف الأمريكية إلى ذلك أن ثقافة الآسينيين كانت تتكون من العهد القديم (التوراة) والتدريب على النظام وإنشاد التراتيل والتسبيح بالشكر لله .

---

(١٠) المرجع السابق ، صفحة ٤٣ .

وكانوا ينتظرون مجيء المسيح لينشيء على الأرض مملكة يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة، ولا يدخلها إلا من كانت حياته نقية طاهرة، وكانوا شديدى التحمس فى الدعوة إلى السلام، ويأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب. وإن كانوا قد أولوا اهتماماً خاصاً لما ورد فى سفر الرؤيا من وصف للمعركة بين قوى الخير وبين الشيطان. كما ساد لديهم الاعتقاد بأن نبوءة العهد القديم سوف تتحقق فى حياة الطائفة التى كانت تدعى الانحدار من أول كاهن أعلى وهو هارون أخو النبى موسى، وكانت تلتزم التزاماً شديداً بالناموس القويم أو التقليدى Orthodox وبالذات فيما يتعلق بطقوس الطهارة، كما كانوا يمارسون التعميد باعتباره من الطقوس التى يعبرون بها عن الندم والمعرفة، ويعتقدون أنه لا يكفى أن يكون مرة واحدة، وهذا أحد أوجه الخلاف بينهم وبين عامة اليهود، والخلاف الوحيد بينهم وبين النبى يحيى (يوحنا المعمدان) الذى كان يعتقد أن التعميد يكفى أن يكون مرة واحدة، فقد كان يماثلهم فى الزهد والتقشف (١١)، بل قيل إنه كان عضواً فى الجماعة، ولذلك فقد أصرت هذه الطائفة على رفض التعديلات المتصفة بالتساهل التى أدخلتها الطائفتان الأخريان، الصدوقيون والفريسيون نتيجة للمؤثرات الأجنبية.

وكان ذلك أهم أسباب الخلاف بينهم مما جعلها تتخذ لها موطناً فى البرية فى فلسطين، بعيداً عن المجتمعات اليهودية المستقرة لكى تتجنب ما كان يصيبها من أضرار نتيجة لاضطهادهم لها، ومن أجل أن تمارس معتقداتها التى كانت ترفض أن يصيبها المجتمع اليهودى الفاسد بالتلوث، وكانوا يعتقدون أن الله قسم العالم إلى جماعة مختارة ــ البقية الحقيقية من شعب إسرائيل ــ وأبناء الظلام، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين سينجون من العذاب.

وفيما يتعلق بتاريخهم فقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية أنه بعد الثورة المكابية أو كما كانت تسمى أحياناً الثورة الهسمونية (١٦٧ق.م) أقدم اليهود الورعون على التحرر من الوهم الناشيء عن ممارسة العقيدة الهسمونية، وكونوا الجماعة الآسينية المعادية للفريسيين والصدوقيين، وكان الآسينيون يعتبرون مجتمعهم أو جماعتهم إسرائيل الجديدة، وكانوا يحكمون بواسطة ثلاثة كهنة واثنى

(١١) ول ديورانت، المرجع السابق، صفحة ٢١٦.

عشر شخصاً من المدنيين، كما كانوا ينتظرون مجيء المسيح الملكى، أى سليل داود من ناحية الملك وهارون من ناحية الكهانة. وكانت هذه الطائفة تعد، حتى قبل ميلاد المسيح وظهور دعوته، طائفة متميزة عن بقية اليهود، فلما اعتنقوا النصرانية فى صورتها الأصلية والصحيحة، اعتبروا أنفسهم ممثلى العهد الجديد، أما العهد القديم، عهد موسى، فإنهم كانوا يعتقدون أنه نقض نتيجة لضلال بنى إسرائيل، وأنهم (هم البقية الباقية) التى تحدث عنها الأنبياء.. إنهم إسرائيل الحقة.

والملاحظ أن المعلومات الخاصة بالطائفة الآسينية كانت قليلة بصفة عامة، بالنظر إلى أنهم هم أنفسهم لم يتركوا وراءهم كتابات خاصة بهم، وهو ما جعل الجدل يحتدم حول قيمة ما ذكره المؤرخون عنهم ومدى الثقة فيهم، فلما اكتشفت لفائف البحر الميت فى المنطقة التى تعرف بخربة قمران وغلب على ظن الغالبية العظمى من المؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم من المهتمين بعلم مقارنة الديانات أن هذه اللفائف تخص طائفة الآسينيين، وأنهم هم أنفسهم قد خلفوها، زاد ذلك فى كم المعلومات الخاصة بهم، مما وفر للدارسين والمهتمين بهذه الطائفة بخاصة، وبنشأة المسيحية بعامة، أساساً قوياً يقيمون عليه دراساتهم وأبحاثهم، إلا أنه ظهر من بين العلماء الغربيين من يقول إن طائفة الآسينيين غير طائفة قمران، وهو العالم (جون آليجرو) الذى قدم بعض الأمور التى اعتبرها أدلة تؤيد ما ذهب إليه.

من ذلك قوله أنه قد تبين أن الآسينيين لم يكونوا يعيشون فى الصحراء مثلما كانت تعيش طائفة قمران، بل كانوا يعيشون فى مستوطنات متصلة بالمدن والقرى فى فلسطين فى جماعات صغيرة، وكانوا إذا سافروا من مكان إلى آخر، وحلوا على مستوطنة من المستوطنات التى يعيش فيها إخوانهم فى الطائفة، استضافهم هؤلاء وقدموا لهم كل ما يحتاجون إليه، باعتبارهم من المنتفعين بالملكية الجماعية لهذه المستوطنات؛ ولذلك فإنهم لم يكونوا يحملون معهم عند سفرهم أى شىء مما يحمله المسافرون معهم عادة؛ لأنهم حيثما حلوا يجدون ما يحتاجون إليه، ويقول: إن طائفة قمران لم تكن تطبق هذا النظام؛ لأنها كانت تقيم فى مكان واحد، وليس فى مستوطنات كثيرة، ومع ذلك فإنها كانت تطبق نظاماً قريباً من هذا النظام، بموجبه تقدم للمسافرين العابرين ما يحتاجون إليه من مأوى وطعام، خاصة إذا كانوا معدمين.

ويقارن آليجرو بين هذا النظام وما كان يفعله السيد المسيح، وذلك لأنه ــأى آليجروــ يعتقد أن المسيح كان قد اقتبس الكثير من النظم التى كانت الطائفة الآسينية تطبقها فيقول إن المسيح كان يبعث بأتباعه إلى الأقاليم وهو على ثقة من أن الجماعات التى سيتصلون بها سوف تحسن ضيافتهم، وأشار فى هذا الصدد إلى ما جاء فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا؛ لأن الفاعل مستحق طعامه» كذلك يقارن آليجرو بين موقف الآسينيين من النساء، وموقف طائفة قمران منهن، بطريقة يبدو منها إصراره على اعتبار أن إحدى الطائفتين ليست هى الأخرى فهو يقول (١٢): «كذلك نجد أوجهاً كثيرة للتطابق بين جماعة قمران وطائفة يهودية قديمة تعرف بالآسينيين وصفها لنا يوسفيوس ومؤرخون آخرون ويعتقد كثير من الدارسين أن جماعة قمران تتوحد على الأقل، مع أحد فروع الحركة الآسينية التى كان أفرادها لا يتزوجون، واهتموا بإثبات أن إحدى وثائق قمران تشتمل على ما يمكن الاستدلال به، على أن الطائفة كانت قد أدخلت تعديلاً على التعليمات التوراتية لكى تتفق مع هذا النوع من المواقف».

غير أن آليجرو نفسه استدل من بعض لفائف البحر الميت التى درسها على أن جماعة قمران، على خلاف الآسينيين، كان يوجد فيها نساء وأطفال، حيث ورد فيها «وعندما تحضر النساء يجرى جمعهن معاً ومعهن أطفال، ويتلى عليهن نظام العهد الذى يرتبط به أعضاء الجماعة» وفيما يتعلق بالزواج تقرر الطائفة أن الرجل لا يتخذ امرأة زوجة له إلا بعد أن يبلغ العشرين من عمره، وإلى أن يبلغ هذا العمر ينبغى عليه أن يعرف الفرق بين الخير والشر، كما يجب عليه أن يلم بالمسئوليات التى تترتب على الزواج، أما المرأة التى يزمع أن يتخذها زوجة له، فإنها طالما لم يبلغ العشرين من عمره بعد، يكون لها أن تشهد ضده إذا ارتكب أى عمل يستلزم *اتخاذ الإجراءات القانونية قِبَلَهُ، كما أن لها أن تتخذ قرارات على استقلال عنه فيما يتعلق بأهدافها فى الحياة*.

وهناك دليل آخر على وجود النساء فى قمران، هو ما جرى الكشف عنه من

---

(١٢) Allegro, op. cit, p. 118.

هياكل عظميَّة لنساء دُفِنَّ فى مقبرة الطائفة ، وأكثر من ذلك فإن بعض نظم وثيقة دمشق يبدو منها أنها صيغت لتنظم الحياة الأسرية ، فهى تتكلم عن الأرامل من النساء وغير المتزوجات اللاتى يحتجن إلى مساعدة ، وفيما يتعلق بالطلاق فإن أعضاء طائفة قمران كان لديهم نفس الاتجاه الذى ينسب إلى يسوع فيما يسمى بموعظة الجبل ، حيث قال (١٣) : « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى » . وهذا ضد عادة أحبار اليهود فى السماح بحرية الطلاق ، فوثيقة دمشق تعاقب « الزواج بامرأتين على التعاقب ، فى حياة الرجل » مثل يسوع ، علماً بأن تعاليم طائفة قمران سابقة على تعاليم المسيح ، كذلك موقفها من زنى النظر ، حيث اعتبرت النظر إلى امرأة بشهوة كالزنى فنقرأ فى تعاليمهم عن « الاشتهاء الذى يلى النظر » وعن « عناد القلب الآثم والعينين الشهوانيتين » ثم يأتى يسوع فيقول : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه » (١٤) . وهذا كله يعنى أن مجتمع قمران كان على خلاف الآسينيين ، يضم نساء ويعترف بالزواج والأسرة (١٥) .

ومع ذلك فإن آليجرو لم يهتم ببيان أوجه الاختلاف الأخرى بين الطائفتين الآسينية والقمرانية ، ووجه اهتمامه إلى الطائفة الثانية متعمداً فى كل ما قاله عنها على ما وجده فى وثائقها التى خلفتها وراءها فى كهوف قمران ، وعلى الرغم من وجاهة الأدلة التى استند إليها للقول بأن الطائفة الآسينية غير الطائفية القمرانية ، فإن اعتماد معظم المؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم من المهتمين بالديانات القديمة للمعلومات التى اشتملت عليها لفائف البحر الميت على أنها معلومات خاصة بالآسينيين ، وتقريرهم أن سكان قمران هم الآسينيون ، ـجعل من الصعب قبول ما ذهب إليه « آليجرو » من أن هؤلاء غير أولئك . والواقع أن هذه المسألة ليست بذات أهمية ، فسواء أن يكون الآسينيون هم سكان قمران أو ألا يكـونوا ، وإنما

(١٣) متى ، الأصحاح الخامس ، ٣١ .

(١٤) المصدر السابق ، رقم ٢٧ .

(١٥) **Allegro, op. cit, p. 114.**

الأمر البالغ الأهمية هو ما كشفت عنه «لفائف البحر الميت» الخاصة بالطائفة اليهودية التى كانت تقيم فى قمران من معلومات خطيرة ألقت الضوء على التاريخ اليهودى فيما قبل ميلاد المسيح، وما قام به اليهود من أعمال، أقل ما توصف به أنها مشينة، حيث زوروا التوراة، بأن أضافوا إليها ما أملته عليهم أهواؤهم، وحذفوا منها ما وجدوا أنه يتعارض مع شهواتهم الدنيوية وأطماعهم، ليس ذلك وحسب، بل إن اللفائف كشفت كذلك عن كثير من الحقائق المتعلقة بدعوة السيد المسيح، والتى نجح «بولس» وغيره من دعاة التثليث فى إخفائها منذ الربع الأخير من القرن الأول الميلادى وإلى أن عثر على اللفائف فى كهوف قمران عام ١٩٤٧ وما تلاه من أعوام.

وسواء أكان الآسينيون هم طائفة قمران أم لم يكونوا، فإنهم ـ ومعهم هذه الطائفة ـ يمثلون القلة من اليهود الذين حافظوا على التوراة سليمة دون أن يمسها تزوير، وهم الذين آمنوا بالله فلم يشركوا به أحداً، كما آمنوا برسله البشر لا الآلهة ولا أبناء الله. فلم يقولوا: إن عيسى بن مريم ابن الله كما قال بولس وشيعته، كما أنهم لم ينكروه كما فعل بقية اليهود، بل آمنوا به بشراً رسولاً، فالآسينيون هم القلة التى آمنت بالتوراة والإنجيل كما أنزلهما الله، أما الغالبية فهم الفاسقون الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ (١٦).

قصة العثور على لفائف البحر الميت:

فى صيف عام ١٩٤٧ عثر على كهف بالقرب من البحر الميت، حيث اكتشفت مخطوطات من كتاب (أشعيا) تعد أقدم، بحوالى ألف عام، من أى مخطوط عبرى عن العهد القديم عرف حتى الآن، ثم تتابعت الاكتشافات فى المنطقة التى تعرف باسم (خربة قمران). وقبل أن يمضى وقت طويل كان العالم قد امتلك بقايا مئات من اللفائف التى تكشف عن فترة يمكن اعتبارها حتى

(١٦) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

الآن، واحدة من أهم الفترات فى تاريخ الإنسان، كذلك فإن الاسئلة التى طالما شغلت عقول الدارسين والمهتمين منذ بداية البحث والدراسة النقدية فى أصول المسيحية، أصبح من الممكن الإجابة عنها بعد العثور على هذه اللفائف، وقد لعبت المصادفة دوراً كبيراً فى هذا الكشف.

ذلك أنه بينما كان أحد الرعاة وهو فتى بدوى يدعى محمد الدهب، ينتمى إلى قبيلة تميرة التى كانت ترعى قطعانها من الماعز فى البرية التى بين بيت لحم والبحر الميت، يطارد معزة من قطيعه هربت منه، ومضت تتسلق الجبل الصغير إلى أن بلغت قمته وهو فى إثرها — إذا به يعثر على كهف، فلما دخله وجد فيه عدداً من الجرار التى كانت اللفائف بداخلها ولما عاد محمد إلى مضارب القبيلة أخبر صديقاً له أكبر منه سناً بما حدث، فذهب معه فى اليوم التالى إلى الكهف وهما يظنان أن بالجرار كنزاً من الذهب، حيث إن محمداً لم يكن قد عرف ما بها بعد. ولذلك فإنهما أصيبا بخيبة أمل عندما قاما بتحطيم جرتين ولم يجدا بهما شيئاً، فلما حطما الجرة الثالثة ازدادت خيبة أملهما لما وجدا أن ما بداخلها ليس إلا لفائف من الجلد البنى، وعند عودتهما إلى مضارب القبيلة حملا معهما بعض اللفائف التى بلغ طولها عند فتحها ما يساوى المسافة بين طرفى الخيمة، ووجدا عليها كتابة عجزا عن قراءتها، وظنا لأول وهلة أنه لا فائدة تعود عليهما مما وجداه.

.ومع ذلك فقد حملا معهما اللفائف التى كان عددها ثلاث لفائف،ومضيا إلى السوق الذى كان يقام فى بيت لحم فى يوم محدد من أيام الأسبوع، حيث كانا يذهبان مع بقية أفراد القبيلة لبيع اللبن والجبن، وكان هناك رجل من المسيحيين السريان يتعاملان معه اسمه خليل إسكندر شاهين،ويعرف فى البلدة باسم الشهرة (كاندو) Kando كان يمتلك محلاً للبقالة وآخر إسكافياً.

وعندما أطلعه البدويان على اللفائف أظهر اهتماماً قليلاً بها، ولكنه فكر فى أنه يمكن أن يستخدمها كمادة خام فى عمله كإسكافى، وأخيراً، وبعد أن ظلت ملقاة فوق سطح محله لعدة أيام، التقط واحدة منها وتفحصها، فبدا له الخط المكتوب عليها بلا معنى، ولكن خطر بباله أن رعاته الروحيين فى القدس يمكن أن يعرفوا أكثر عن هذه الخطوط؛ومن ثم فإنه انتهز فرصة سفره إلى القدس، وحمل

معه اللفائف وتوجه بها إلى دير القديس مرقس (سان مارك) للمسيحيين السريان، الذى يقع فى المدينة القديمة، وكان كل هم (كاندو) أن يعرف ما تمثله اللفائف من قيمة مالية؛ ولذلك فإنه رأى قبل أن يعرضها على كهنة الدير، أن يجمع منها أكبر عدد؛ ولذلك فقد صحب صديقاً له يدعى «جورج» وذهبا إلى الكهف الذى وصفه لهما البدويان، وقاما بجمع عدد من القطع الكبيرة من اللفائف الممزقة، وبعد أن أخذا كل ما أمكنهما جمعه، وجدا أنه لم يعد هناك ما يمنع من إخبار السلطات السريانية لدير القديس مرقس بالأمر.

ولما علم المطران السريانى بادر بدوره إلى تنظيم حملة إلى الكهف للتنقيب فى المكان، فقامت الحملة بعمل فتحة كبيرة قرب الأرض، وانتزعت كل شىء أمكنها أن تضع أيديها عليه، كل ذلك دون أن تخطر المسئولين فى الحكومة التى كانت فى ذلك الوقت تابعة لسلطات الانتداب البريطانية، ثم للحكومة الأردنية بعد إعلان بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين، مما يصم هذا العمل بعدم المشروعية لمخالفته لقوانين الدولة التى تظل مالكة لكل المواد الأثرية التى انتزعت من أرضها، ويحق لها أن تطالب بها وتسعى جاهدة لاستردادها، ولكن متى كانت الحكومات العربية تهتم بمثل هذه الأمور؟! وما الذى فعلته من أجل استرداد الآثار التى لا تعد ولا تحصى، والتى نهبت من بلادها ونقلت إلى الدول الغربية؟!

واستمر البحث فى كهوف قمران وأحيط بالسرية، وحدثت أضرار كثيرة نتيجة لذلك، وفى هذه الأثناء قام كاندو بإيداع اللفائف التى فى حوزته لدى المطران مقابل أربعة وعشرين جنيهاً إسترلينيا، فى حين استمر المطران يحلق كالصقر حول المؤسسات العلمية المختلفة فى القدس، يريد أن يكوّن فكرة عن القيمة المادية للفائف، ويبدو أن إحداها عرضت على الأستاذ (سوكينيك) E.L. Sukenik بالجامعة العبرية، الذى احتفظ بها بعض الوقت حتى يتمكن من دراستها، ولكنه بدأ يبحث عن بقية اللفائف بعد أن تحقق له أنها قديمة جدًّا، وأن لها قيمة عظيمة، ثم قام برحلة محفوفة بالمخاطر إلى بيت لحم، بالنظر إلى نشوب المعارك بين العرب واليهود عقب انسحاب دولة الانتداب، واتصل بكاندو من أجل أن يحصل منه على ثلاث لفائف أخرى، ولكن كاندو كان قد بدأ يشعر بالفزع منذ أن اعتراه الخوف من تسرب أخبار التنقيب عن هذه الآثار بطريقة غير

مشروعة ؛ لأنه يمكن أن يعتبر مسئولاً أمام الحكومة الأردنية عما حدث ، ومن ثم فقد أخذ بأسباب الحذر وقام بدفن بعض من القطع الكبيرة التى حصل عليها من أحد الكهوف فى الحديقة الخلفية لبيته فى مدينة بيت لحم ! ولسوء الحظ ، فإن تربة الحديقة كانت إلى حد ما مختلفة عن الرمال الجافة الموجودة فى (قمران) حيث يوجد الكهف ؛ ولذلك فإنه عندما ذهب لاستخراج قطع اللفائف ، فيما بعد ، وجدها وقد تحولت إلى مايشبه العِصِىّ المصنوعة من مادة كالغراء مما أدى إلى فقدانها لقيمتها تماماً .

وفى الوقت نفسه ، استمر المطران السريانى فى جولاته محاولاً أن يكتشف ما إذا كانت اللفائف قديمة حقاً ؛ وأخيراً ، وفى ١٨ من فبراير عام ١٩٤٨ اتصل هاتفياً بالمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية ، وتكلم مع الدكتور (جون . س . تريفر) John c. Trever الذى كان يقوم بصفة مؤقتة بعمل مدير المؤسسة أثناء غياب مديرها الأصلى ، وأخبر المطران الدكتور (تريفر) كذباً أنه بينما كان يبحث فى مكتبة الدير ، عثر على بعض المخطوطات العبرية القديمة التى يريد أن يعرف رأيه بشأنها ، وجرى تحديد موعد للقاء فى اليوم التالى ، وبعد مقارنة سريعة للفائف بصور بعض المخطوطات العبرية القديمة وإجراء بحث معقد فى القواميس والفهارس الأبجدية — Concordances اكتشف (تريفر) أن بين يديه مخطوطة أشعيا ، وأنها قديمة جداً حقيقة ، وطلب من المطران أن يأذن له بتصوير اللفائف ، وبعد مفاوضات سمح له المطران بذلك ، واستمر (تريفر) فى فحص اللفائف ، وكان كلما تقدم فى العمل ازدادت دهشته أكثر فأكثر ، حيث تبين له من المقارنة التى أجراها بينها وبين صورة لورق البردى خاصة باليهود السابقين على المسيحية أنها أقدم منها بالفعل ، وأدرك أنه حصل على أقدم مخطوطة للتوراة لم تكن معروفة لأحد من قبل ، ومع ذلك فإنه بذل جهداً كبيراً من أجل أن يكبح حالة نفاد الصبر التى كانت تنتابه كثيراً أثناء العمل ، وتدفعه إلى أن يعلن عن اكتشافه الخطير ، واستطاع أن يؤجل ذلك إلى ما بعد قيامه بالاتصال بأمين المتحف الفلسطينى فى ذلك الوقت ويدعى (هارى أليف) Harry Illife الذى كانت تربطه به علاقة قديمة ، ودعوته إلى الذهاب إلى جرش Jericho لالتقاط بعض الصور لأعمال التنقيب التى كانت تجرى هناك .

كذلك ناقش (تريفر) المطران فيما اقترحه عليه من أخذ الوثائق إلى خارج

مدينة القدس، بعد أن اشتدت المعارك بين العرب واليهود، وامتدت إلى الشوارع والوديان، مما جعل علماء الآثار يغادرون المدينة فراراً من خطر الحرب، وحتى شهر نوفبر عام ١٩٤٨ عندما وصلت نسخة شهر أبريل من نشرة المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية إلى القدس، لم يكن السيد (لانكستر هاردنج Lankester Harding) المسئول الجديد عن الشئون الأثرية لفلسطين العربية، والضفة الشرقية للأردن ــ قد علم أنه منذ ثمانية عشر شهراً مضت بدأت عمليات الكشف التي لا يصدقها عقل في البحر الميت.

أما المطران السرياني فقد نجح في تهريب اللفائف التي في حوزته إلى خارج فلسطين، حيث حملها إلى الولايات المتحدة، ولما علمت الحكومة الأردنية بالأمر طالبت بإعادة اللفائف فوراً، ولكن ــ وبعد أن جرى النشر في الصحف عن اللفائف وأهميتها ــ ارتفعت قيمتها المالية مما جعل المطران يرفض طلب الحكومة الأردنية، ويصر على الحصول على الثمن المرتفع الذي عرض عليه، ويقول (آليجرو)(١٧) «إن الضوء الوحيد اللامع في هذه القضية البائسة، والذي لاح في هذه المرحلة يتمثل في موافقة المطران والسيد (تريفر) والمدارس الأمريكية للبحوث الشرقية على تصوير ونشر اللفائف في الحال، في الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات بشأن شرائها، وقال الأمريكيون للمطران: إن تصوير اللفائف ونشرها بسرعة سوف يعزز من قيمتها المالية، وفي الحقيقة فإن العكس هو الذي حدث، فقد انخفضت قيمتها بصفة مؤقتة، حيث أتاح النشر للمهتمين الفرصة للاطلاع على الصور مما أغناهم عن الاطلاع على الأصل، أو على الأقل لم يجعله مطلباً مُلِحًّا.

كذلك فإن الدارسين الأمريكيين قاموا بعملهم بمهارة عظيمة، جعلت الصور التي التقطوها للفائف تأتي على درجة عالية من الدقة بشكل غير عادي، فضلاً عن أنهم فعلوا ذلك بسرعة، فقدموا خدمة جليلة للباحثين والدارسين لا شك في أنهم يدينون لهم بهذا الفضل.

وفي الأردن شرع (هاردنج) في البحث عن المزيد من اللفائف في المنطقة

---

(١٧) Allegro, op. cit, p. 23.

التى يوجد فيها الكهف الذى سبق العثور على اللفائف فيه ، يساعده فى ذلك شخص يدعى يوسف سعد ، وعاونهما فى ذلك المسئولون الأردنيون، وكان من بينهم ضابط إنجليزى يعمل فى الجيش الأردنى يدعى البريجادير (آشتون) Ashton ، وآخر عربى يدعى عكاش الزبن Akkash El Zebn وكان ذلك فى ١٥ من فبراير ١٩٤٩.

وفى ذلك الوقت كان المطران السريانى قد رفع الثمن الذى يطلبه فى اللفائف التى فى حوزته إلى مليون دولار، فلما أذاعت الإذاعات المختلفة هذا الخبر، وسمع فى الأردن بادر البدو إلى رفع أثمان اللفائف التى فى حوزتهم ، وانتشرت فى المنطقة حمى البحث عن المزيد منها ، وقد أدى هذا إلى أضرار كثيرة ، منها أنه أصبح متعذراً جمع اللفائف السليمة وشذرات اللفائف التى كانت قد تمزقت ، سواء بفعل العوامل الطبيعية ، أو بفعل الإنسان ، فى مكان واحد من أجل دراستها بشكل متكامل ، واستخلاص أكبر قدر من المعلومات منها ، كذلك فإن رفع البدو لأسعار ما فى حوزتهم من اللفائف وقف عقبة فى طريق جمعها ، وحولها إلى سلعة يضارب الناس عليها دون أى تقدير لقيمتها التاريخية والعلمية .

ومما يؤسف له حقاً أن هذه الثروة التى لا تقدر بمال قد ضاعت من أيدينا ، وانتقلت إلى اليهود والمؤسسات الكنسية والتبشيرية مما حرمنا من أن ندرسها فى ضوء ما ورد فى القرآن والسنة بشأن اليهود ، سواء قبل بعثة المسيح أو بعد بعثته ، وما اشتملت عليه رسالته من أمور لم يلبث (بولس) أن طمسها بآرائه التثليثية ، ولولا ما أبداه بعض العلماء الغربيين من اهتمام كبير بوثائق قمران ، وإصرارهم على تصويرها والاطلاع عليها ، وتصديهم لدراستها بتأن ملحوظ ، وبقدر كبير من الموضوعية والحياد ، لنجح اليهود فى إخفائها تظاهرهم الكنائس المسيحية على اختلافها .

والملاحظ أن لفائف البحر الميت تم العثور عليها فى أحد عشر كهفاً من تلك الكهوف التى توجد فى منطقة (خربة قمران) مما يدل على أن أعضاء هذه الطائفة ، بعكس الطوائف الأخرى من اليهود ، اعتادوا استخدام الكهوف ، سواء

للإقامة فيها، أو لوضع وثائقهم الهامة، وقد تبين من فحص اللفائف أنها تنقسم إلى ثلاثة أبواب:

أولاً: نصوص العهد القديم كلها (التوراة) ما عدا سفر (استير).

ثانياً: كتب من العهد القديم يبدو أنها لا تتفق مع الأفكار المسيحية مما جعل العلماء الذين اطلعوا على الوثائق، وكلهم من المسيحيين أو من اليهود يدعون أنها منحولة (١٨).

ثالثاً: مخطوطات جماعة قمران نفسها وتضم: شريعة الجماعة، ونصوصاً لصلاتهم، صلوات المغرب والفجر لكل أيام الشهر، وقد تبين أن هذه الجماعة كانت تصلى جميع الأوقات التى يصليها المسلمون الآن، كما وجدت تفسيرات للتوراة، وتقويم شمسى كانوا يتبعونه فى قمران بدل التقويم القمرى الذى يعمل بموجبه اليهود وكهنة الهيكل.

ولعل وجود تقويمين أحدهما قمرى، وهو الذى كان اليهود يتبعونه ولا يزالون، وآخر شمسى هو الذى كان يتبعه الآسينيون، يفسر لنا لماذا أضاف الله تعالى فى القرآن الكريم تسع سنوات بعد الثلاثمائة عندما قال فى القرآن:

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ (١٩).

فليس المقصود بذلك الفرق بين السنين الميلادية والسنين الهجرية كما قال بعض المفسرين، أو حتى السنين طبقاً للتقويم القمرى الذى كان العرب يطبقونه حتى قبل الإسلام، وإنما المقصود هنا هو التقويم اليهودى الذى كان عامة اليهود يطبقونه ولا يزالون، فهو يزيد بمقدار تسع سنوات عن حساب المدة التى لبثها الفتية فى الكهف طبقاً للتقويم الشمسى الذى كانت طائفة قمران تأخذ به، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، أرد الله أن يفحم به اليهود الذين لم يكن هناك سواهم يعرف هذا الاختلاف، وكذلك الكنيسة المسيحية التى كشف (آليجرو) المأزق الذى واجهته فى أول نشأتها نتيجة لاختلاف الأعياد اليهودية التى تعترف بها مسيحية بولس مع التقويم القمرى الذى كان مطبقاً أيام المسيح، وكيف قام

---

(١٨) يوسف درة حداد، المرجع السابق، صفحة ٦٠٦.

(١٩) سورة الكهف، الآية ٢٥.

كتاب الأناجيل بإحداث تعديل أو قل تزوير فى التاريخ الذى ادَّعَوْا أن المسيح احتفل فيه بعيد الفصح، وهكذا نجد أن الرد الذى جاء به القرآن الكريم على سؤال اليهود، بواسطة مشركى قريش، عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول جاء مشتملاً على أسرار يهودية صرفة لا يعرفها غيرهم، أو بالأصح لم يكن أحد غيرهم يعرفها حتى جرى الكشف عن كهوف قمران والعثور على ما كان فيها من لفائف.

وقد استمر البحث فى موقع قمران حتى عام ١٩٥٦ حيث أجريت بعض الحفائر التى أسفرت عن نتائج فى غاية الأهمية، فقد أمكن أخيراً إماطة اللثام عن هذه المستعمرة الغامضة التى كان يعيش فيها الآسينيون، وتدل العملة العديدة التى وجدت فى الموقع على أنه كان مسكوناً خلال فترة تمتد تقريباً من القرن الثانى قبل الميلاد حتى الحروب اليهودية (الأعوام من ٦٠ إلى ٧٠ ميلادية). ولكن هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ ظهور هذه الطائفة، نظراً لوجود أحد الأسفار المنسوبة إليها والذى اختلف المؤرخون بشأنه (ايسفلت) يرى أن هذا السفر ألف حوالى عام مائة قبل الميلاد، فى حين يرجعه (أولبرايت) إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد. فى حين أن (زتلين) Zeitlin يرجعه إلى القرن الخامس قبل الميلاد([٢٠]). ولكن الثابت بعد ما أجرى من دراسات على اللفائف التى تم العثور عليها أنها ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد وإن كان ليس من المستبعد أن يرجع تاريخ نشأة الطائفة إلى ما قبل ذلك بقرن أو قرنين، وهو ما يتفق مع ما قاله (زتلين).

ويضم المستوطن الآسينى، كما هو واضح الآن: صوامع الغلال، وحوانيت، وفرناً للخبز، ومصبغة ومغسلاً، ومحلاً لصناعة الفخار، كما يضم كثيراً من الأحواض، والقنوات التى تصل فيما بينها، وبإيجاز نجد فى المستوطنة كل ما هو لازم للحياة المادية لمجتمع صحراوى منعزل، يعيش بعيداً عن أى مركز حضارى، الأمر الذى يضطره لأن يعمل على توفير ما يحتاج إليه للعيش والبقاء، ولم يكن فى استطاعة أعضاء هذه الجماعة العيش فى المنشأة القائمة فوق هذه الرحبة من الأرض، التى تخلو من المهاجع وغرف النوم؛ إذ كانت مخصصة لطقوس الجماعة،

---

(٢٠) سبينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، صفحة ٣٨١.

ولهذا لا شك أنهم أقاموا على مقربة منها فى أكواخ وخيام، وكذلك فى الكهوف المتناثرة فى الجبل القريب منها.

قصة طائفة قمران:

مما ورد فى لفائف البحر الميت أن الآسينيين قادهم المعلم الصالح إلى منطقة قمران، بعد أن أصابهم الاضطهاد من عامة اليهود، بسبب معتقداتهم، حيث عاشوا منذ حوالى سنة ١٤٠ قبل الميلاد إلى أن تم تدمير موقع قمران نتيجة لحدوث زلزال شديد سنة ٣١ قبل الميلاد.

ومن حسن حظهم أنهم لم يصابوا بخسائر كبيرة فى الأرواح نتيجة لهذا الزلزال، حيث أن الملك هيرود الكبير (حكم بين ٣٧ و٣٤ق.م) كان قد سمح لهم بالعودة إلى القدس قبل وقوع الزلزال بعدة سنوات، فعاد عدد كبير منهم، إلا أنه بعد موت (هيرود) ازدادت الضغوط ضد الآسينيين، فعادوا إلى البرية وعمروا موطنهم القديم فى قمران، حيث بقوا مقيمين به إلى سنة ٦٨ ميلادية.

والواقع أن عداء الطوائف اليهودية لهذه الطائفة لم يكن سببه اعتناق أفرادها كلهم أو بعضهم للنصرانية بعد ظهور المسيح، وإنما هو عداء يرجع إلى القرن السابق على الميلاد، كان السبب فيه أن زعيم هذه الطائفة كان عدواً لدوداً للكهنوت اليهودى الرسمى الذى كان الزعيم يعيب عليه فجوره وازدراءه للناموس، وقد جاهر بعدائه لليهودية الرسمية، وخدمة الهيكل التى اعتبرها فاسدة، وقد انضم إليه الكثير من الأحبار والعلمانيين، واعتنقوا مذهبه فى التشيع، وأقام هذا المعلم فى معتزل قمران يحف به أنصاره من المؤمنين حيث أنشأ مجتمع العهد الجديد، وكان على هذا العهد أن يمثل، بالمقارنة مع «الضالين» وهو الاسم الذى أطلقه على المجتمع اليهودى الرسمى، إسرائيل الحقيقية إسرائيل الرب. ومثل هذا المصطلح، الذى كان بطبيعة الحال هدفاً لأحقاد السلطات اليهودية، شجب ردتهم وضلالهم، فلم يكن منهم إلا أن واجهوه فى عنف، وتصف وثائق قمران فى مواضع كثيرة الاضطهاد الدموى الذى وقع على الطائفة بأنه اضطهاد «بالسيف» انتهى بالقبض على المعلم ومحاكمته وتعذيبه، وربما انتهى الأمر بإعدامه أيضاً [٢١].

(٢١) المرجع السابق، صفحة ٩٨.

وإذا كان ذلك قد حدث فمن المحتمل أن يكون حدوثه بين عامى ٦٧ و٦٣ قبل الميلاد، وقد انتهى الخلاف بين هذه الطائفة وبين اليهود إلى طرد أفرادها من أورشليم، فانسحبت إلى مدينة بللا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن، حيث أقامت إلى أن ظهر المسيح عليه السلام، فآمنت به بشراً رسولاً، وأقامت كنيسة مسيحية يهودية تضم اليهود الذين آمنوا بالمسيح رسولاً، واعتزلت كنائس اليهود المنكرين للمسيح، وأقامت شرقاً حيث تحرم الإقامة على سائر اليهود، وظلت ردحاً من الزمن لا هى إسرائيلية خالصة، ولا مسيحية خالصة (٢٢).

أما (آليجرو) فإنه يقول عن طائفة قمران إن بداية ظهورها كانت أثناء حكم (جون هيركانوس) John Hyrcanus (١٣٥ ــ ١٠٤ق.م) أو بعده بقليل، وإن نهايتها العنيفة والسريعة كانت قبل تدمير أورشليم عام ٧٠ ميلادية، أما ما بين هذين التاريخين من تفاصيل، فإنه يمكننا أن نستوفيها بالاستعانة ببعض التعليقات التوراتية التى وجدت فى مكتبة قمران، وهى على درجة كبيرة من الأهمية، والتى تبين منها أن الجماعة كانت تؤمن، وهو ما افترض أن المعلم نفسه قد قاله، أن قائدها قد تلقى أمراً من الله بجمع بعض كهنة أورشليم معاً وأخذهم إلى الصحراء، باعتبارهم جماعة من المؤمنين يرتبط أفرادها بعضهم ببعض بقوة، والغرض من ذلك هو أن يظلوا أنقياء غير ملوثين أثناء تلك الفترة التى سادها الارتداد عن العقيدة الصحيحة، وإلى أن يجىء ملكوت الله، وليس هناك شك فى أن روح الوحدة التى أضاءت كتابات الطائفة، والصرامة والدقة التى تميز بها النظام الذى وضعته لنفسها، تدل على التأثير القوى لشخصية القائد أو المعلم، الذى توفرت بيانات مختلفة بشأن ما أصابه من اضطهاد على يدى شخص آخر يرمز إليه فى الغالب بأنه الكاهن الشرير، ومن تعليق هام على كتاب ناحوم، عثر عليه بين وثائق قمران، يمكن أن نستنتج أن هذا الكاهن الشرير هو الذى أشير إليه بالاسم المستعار «أسد الغضب» The Lion of warth، وليس من الصعب أن نلاحظ التطابق بين هذه الصورة وصورة الكاهن ــ الملك اليهودى ألكسندر جانيوس Alexander Jannaeus الذى حكم فى الفترة الواقعة بين عامى ١٠٣ و٧٦ق.م، وقد سبق اكتشاف هذا التعليق ما أبداه بعض الدارسين من ملاحظات

---

(٢٢) العقاد المرجع السابق، صفحة ١٤٤.

تبين منها أن هذا الطاغية تتوفر فيه خصائص مضطهد هذه الطائفة.

ومما ذكرته وثيقة دمشق يتبين أنها وصفت المكان الذى نفيت إليه الطائفة فى أول ظهورها بأنه «دمشق»، وأن ذلك كان بعد النبى (عمواس) Amos وربما النبى زكريا، وفيما يتعلق بنظام الجماعة فقد عثر على وثيقة تكاد تكون كاملة وجدت فى مكتبة قمران، تسمى نظام الجماعة، أو كما أصبحت تعرف بعد أن ترجمها أحد الدارسين الأمريكيين «أبجدية النظام». كما تبين أن لهذه الوثيقة ملحقين اثنين، أحدهما عنوانه: نظام كل تجمع إسرائيلى فى الأيام الأخيرة، والثانى مجموعة منح البركة Benedictions وكلا الوثيقتين: الأبجدية ووثيقة دمشق تشيران إلى كتيب آخر يسمى كتاب التأمل Book of Hagi كان قد وضعه قائدا الطائفة ليتعلمه الأعضاء من الشباب.

وكان من مبادئهم العيش معاً فى جماعة مشتركة، يسودها التواضع العادل والصدق والحب المخلص، والاعتبار الصحيح لكل زميل فى المجلس المقدس، وكانوا يرددون دائماً أنه «لن يكون للأنانية مكان فى جماعتنا» و«لن يستمر إنسان فى معاندة قلبه بارتكاب الإثم بعد أن ملك إرادته وبصيرته وعرف هدفه» وكانوا يتناولون وجباتهم جماعة ويغنون صلواتهم معاً، وعندما يصبح أحدهم عضواً كامل العضوية فى الطائفة، فإنه يخلط ممتلكاته الدنيوية بممتلكات الطائفة، ويحتفظ فقط بحاجاته الضرورية كالثياب.

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله الأستاذ العقاد عن طائفة الآسينيين من أنها كانت تطبق نظام الملكية الجماعية، وكان مبدؤهم: «أن المرء يحيا بالمشاركة مع الإخوة ــ فمعاً سوف يطعمون،ومعاً سوف يتعبدون، ومعاً سوف يتذاكرون» (٢٣).

وعلى خلاف ما ذكره العقاد من أن هذه الطائفة لم تكن تؤمن بالرئاسة ولا بالسلطة،، فإن المؤرخ يوسفيوس يقول: إن مبدأ الطاعة العمياء كان يحكم المجتمع الآسينى «فهم لا يفعلون شيئاً بغير أوامر من رؤسائهم» ولذلك كانوا حريصين على أن يكون لكل جماعة منهم رئيس، وكانوا يطلقون على هؤلاء الرؤساء اسم

---

(٢٣) اندريه ديبوسومير، المشاكل الخاصة بلفائف البحر الميت، مجلة ديوجين، مصباح الفكر العدد ١٨، السنة السادسة ١٩٧٢، صفحة ٨٤.

(مباقر) بالعبرية ومعناه (المفتشون) وتصف وثيقة دمشق حدود اختصاصاتهم فى عبارات مسهبة، ومثل هذه الجماعة الدينية مثل جيش يخضع لنظم صارمة، تبلغ درجة فريدة من الكمال، ويُحدد كل من الإخوة فى قائمة المليشيا برقم معين يتفق ومكانته فى الجماعة، ويتم تحديد هذا الرقم كل عام فى الاجتماعات العامة للطائفة، وعلى كل فرد أن يطيع طاعة عمياء من هو أكبر منه سنا وأعلى منزلة، وكل آسينى يؤدى عمله، ويستعد دائماً للجهاد فى سبيل الله. وكان الهدف الرئيسى للآسينى هو الطهر والقداسة، والمعركة التى يخوضها أولاً وأخيراً معركة روحية.

وكانوا شديدى الإيمان بالله الواحد، وبالقضاء والقدر، وبالبعث والحساب، وبالثواب والعقاب، وكان نظام الكنيسة الآسينية يفرض على أعضاء الطائفة أن يتحد كل عضو من أعضائها الذين يكرسون أنفسهم للمثل العليا المقدسة المطلقة مع الآخر، بواسطة الإحساس الرقيق، الذى لا يأتيه الباطل، ولابد أن يكون لهؤلاء جميعاً قلب واحد وروح واحدة.

وكان أعضاء هذه الطائفة يتسمون بكثير من الفضائل، منها التخلى عن البهجة، والالتزام بالعفة، وازدراء الغنى، وتوقير الفقر، وحب الصدق، وبغض الكذب، وبالحياء، والتواضع والرحمة والصبر والتوبة. وتمتدح الكتابات المختلفة هذه الفضائل الجوهرية فى كل موضع، فتقرأ فى سفر الأحكام «لن أفعل الشر لأى مخلوق، وسوف أسعى من أجل خير كل إنسان» وفى فقرة أخرى «روحى لن تشتهى الغنى.. ومن شفاهى لن يسمع أى إنسان أى بهتان أو رياء أو كذب». ويصفون أنفسهم بأنهم فقراء (أبيونيون) كما عرفوا فى الفترة اللاحقة لوفاة السيد المسيح، ولذلك قيل عنهم فى جلاء: إن طائفتهم كانت «محفل الفقراء»[٢٤] وكان لهذه الطائفة زعيمان أو رئيسان: المفتش الكاهن ويسمى بالعبرية (paqid) والمراقب أو الناظر أو المشرف overseer ويسمى بالعبرية (medaqqer) وكانت الواجبات اليومية دينية أساساً، وتشمل الاختبارات الروحية للدارسين أو الطلبة أو التلاميذ الذين يرغبون فى الحصول على عضوية الجماعة، وكان المراقب العام مسئولاً عن الشئون الإدارية مثل العمل والميزانية،

(٢٤) المرجع السابق، صفحة ٩٤.

وكان هناك مراقب فى كل خيمة يضم إلى جانب واجباته التنفذية الإرشاد وتكوين التلاميذ، وإعدادهم للدخول فى العضوية، وهذا المزج المثير للفضول والعجيب بين الواجبات الإدارية والدينية، قد وجد مرة أخرى فى وظيفة episkopos أو الأسقف Bishop فى الكنيسة المسيحية الأولى.

ومن بين واجبات المراقب إدارة جلسات المجمع، وكان من تعاليمهم فى الاجتماعات: أن يجلس كل رجل فى المكان المخصص لمن هم فى درجته أو مكانته، فيجلس الكهنة أولاً، يليهم الأعضاء الأصغر، ثم بقية الناس حسب درجاتهم المقررة، وبهذا النظام يكون لهم أن يوجهوا الأسئلة المتعلقة بالقرار الذى يراد اتخاذه، وعلى كل رجل أن يعرض على المجلس ما يتوفر لديه من معلومات تهم الجماعة، ولا ينبغى أن يقاطع أى رجل زميله أثناء حديثه، كما يجب ترك أى رجل يتخطى وضعه من أجل أن يتكلم، ومن يطلب الكلام ينبغى أن يدعى للكلام فى دوره، وفى اجتماع المجلس لا يجب ترك أى رجل ليقول ما من شأنه تكدير الجماعة، أو أن يتكلم بدون أن يتلقى الإذن بذلك من المراقب، وإذا رغب أى رجل ليس فى وضع يسمح له بالتحدث أن يتكلم، فإنه يجب أن يقف على قدميه ويقول: «لدى شىء أقوله للجميع» فإذا ناداه المراقب كان له أن يتكلم.

وكان الالتزام بهذا النظام دقيقاً بحيث إن أى انتهاك له، وهو أمر لا يمكن تصوره، كان يترتب عليه توقيع عقوبة قاسية على العضو المخالف.

وكان من أهم ما كشفت عنه لفائف البحر الميت أو كما تسمى أحياناً لفائف قمران، ذلك التماثل الواضح بين لغة الآسينيين الأدبية، ولغة إنجيل يوحنا، مما جعل كثيراً من المهتمين بدراسة المسيحية يرون أن يوحنا، وهو أحد الحواريين، قد نقل عن الآسينيين جزءاً هاماً من إنجيله، وقد دعم هذا الرأى أن يوحنا كان قد تتلمذ على النبى يحيى (يوحنا المعمدان) قبل ظهور المسيح وانضمامه إليه، وقد قيل: إن النبى يحيى نفسه كان من الآسينيين، وإن كان قد اختلف معهم فى مسألة التعميد، على ما سبق أن بينا، فهناك أكثر من دليل على أنه كان منهم، ومن بينها وحدة الفكر والتعبير.

ولكن المعارضين لهذا الرأى [٢٥] حاولوا أن يدحضوه بأن ساقوا بعض الأدلة المضادة التى استمدوها من إنجيل يوحنا ، وفى مقدمتها أنه على خلاف الآسينيين كان يؤمن بالمسيح الإله ، وليس المسيح البشر الرسول كما كانوا يعتقدون ، وفات هؤلاء المعارضين أن ما يسمى بإنجيل يوحنا لم يكتبه يوحنا نفسه ، وإنما كتبه غيره ممن جاءوا بعده بوقت ليس بالقصير، مما يرجح أن يكونوا قد أضافوا إليه ما قيل عن إيمانه بالمسيح الإله ، وهى الفكرة التى لم تظهر إلا على يدى بولس ، والتى ثبت بالدليل القاطع أنه لا المسيح ولا النبى يحيى من قبله أو أحد من الحواريين قالها .

أهمية وثائق قمران :

فى سنة ١٩٣٩ كتب أحد الدارسين النصيين الكبار وهو سير فردريك كنيون Sir Frederick Kenyon يقول : «فى الحقيقة أنه لا يوجد أى احتمال للعثور على مخطوطات من النص العبرى للتوراة يرجع تاريخها إلى الفترة السابقة على تكوين النص الذى نعرفه باسم (الماسورى) Massoretic» ويقول (آليجرو) [٢٦] إنه من دواعى السرور أن سير فردريك عاش حتى رأى قوله هذا يتعرض للدحض بصورة عجيبة فى عام ١٩٤٨. ويضيف إلى ذلك قوله : «وللحقيقة فإنه بواسطة ما تم العثور عليه فى كهف قمران أمكننا أن نخترق «سد الماسورية» . فقد أتاحت هذه المخطوطات الحصول على نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد ، فيسرت بذلك ظهور بعض الأفكار ذات المغزى بالنسبة للمستقبل النقدى لنصوص العهد القديم ، وربما يجب علينا ، على حد قول آليجرو ، أن نقوم من جديد بترتيب بعض الحقائق الأساسية بشأن انتقال الإنجيل ، والترجمات المختلفة له . فهذه الترجمات التى اعتبرت قياسية Standard translation للعهد القديم استندت تقريباً إلى مخطوطات متأخرة لا ترجع إلى أبعد من القرنين التاسع أو العاشر الميلاديين ، فى حين أن الكتاب المبكر جدًّا للشريعة البروتستانتية Protestant Canon كان قد كتب فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وهذه الفجوة الهامة يمكن أن تلقى الشك على صدق النص المطبق ، ولا يقلل من

(٢٥) يوسف درة حداد ، المرجع السابق ، صفحة ٦١٤ .

(٢٦) op.cit, p. 59

هذا الشك تلك العناية غير العادية التى بذلها المؤلفون اليهود، الذين نقلوا كتاباتهم المقدسة، فهم قد اهتموا بالشكل أكثر من اهتمامهم بالموضوع،فالتزموا بالقواعد التى اشتملت عليها الأعمال التلمودية، والخاصة بالإجراء الذى يجب اتباعه عند نسخ الكتب المقدسة وبالذات القانون Canon والكتب الخمسة الأولى (الأسفار الخمسة) من التوراة، وكان السبب الذى دفع اليهود إلى اتخاذ هذا الموقف هو تدمير مركزهم الحياتى والثقافى فى أورشليم التى دمرت عام ٧٠ ميلادية. مما جعل المراقبين الدينيين فى هذه المرحلة التى سميت مرحلة التشتت يركزون أكثر فأكثر على القانون Canon وعلى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، واعتبروا أنها قد حلت محل المعبد كمركز لليهودية، كذلك فإنه أصبح ضرورياً، من وجهة نظرهم، لوحدة الإيمان أن يكون النص التوراتى قياسيًّا، وأن يكون من المرونة بحيث يجرى تنقيحه إلى الأفضل، تجنباً لوجود أى اختلافات خطيرة.

وانعقد المجمع اليهودى Synode فى جامينا Jamina بالقرب من يافا ما بين عامى ٩٠ ومائة ميلادية، حيث نوقشت بعض المسائل الخاصة بإمكانية قبول بعض الكتب التى كانت قد انتشرت بين اليهود، وفى هذا الوقت أيضاً، وإلى جانب التوسع فى الشريعة Canon، جرى الاتفاق على تنميط النص (أى جعله نمطيًّا) الذى اعتبر قياسيًّا وذلك بعد الموافقة عليه، وربما اتفق أيضاً على وجوب إضافته إلى ما سوف يكتب من نسخ فى المستقبل، وبالغ اليهود فى الاهتمام بالشكل إلى الحد الذى جعلهم يقررون قواعد ملزمة لمن ينسخ التوراة مثل المسافة بين السطور، وحجم الأعمدة والمسافات التى بين الكلمات والجمل، ولون ونوع الحبر المستخدم فى الكتابة، وشكل الأغلفة، وغير ذلك مما جرى تحديده والإلزام به فى كل زمان مكان.

لذلك فإنه ابتداء من نهاية القرن الأول الميلادى تحدد النص القياسى للتوراة، وجرى الحفاظ عليه إلى الآن مع بعض الاختلافات التى تتفاوت فى الأهمية، ومع ذلك يمكن القول: إن مجمع جامينا لم يقم بتكوين نص قياسى، بل إنه لم يقم بعمل ترجمة انتقائية من ترجمات كثيرة، وكل ما فعله أنه اختار نصًّا معينا من بين عدد من النسخ التى كانت شائعة فى الجماعات اليهودية فى وقت سابق، واعتبره قياسيًّا لكل زمان؛ ولذلك فإن نسخة التوراة التى وجدت فى مكتبة قمران تتميز

بأهمية خاصة، كما أن الدليل المستمد منها يكتسب قيمة خاصة هو الآخر.

ويسمى النص الذى اختاره مجمع جامينا ليكون هو النص القياسى بـ(الماسورى) Massoretic وهو النص الذى يقف وراء الترجمات الإنجليزية لما يسمى بالعهد القديم. وتوجد فضلاً عن التوراة الماسورية والتى يشار إليها اختصاراً بالحرفين (AT) الترجمة اليونانية للتوراة، أو ما يسمى بالنسخة السبعينية Septuagint والتى يشار إليها اختصاراً بالحروف (Lxx) والتى تعتبر أكثر نسخ التوراة أهمية، وتوجد فى الكتب المقدسة التى ترجع إلى الأزمنة المسيحية المبكرة جدًّا، وتحتوى على أعمال اعتبرها آباء الكنيسة الأوائل جزءاً من الكتابات المشكوك فى صحتها أو فى صحة نسبتها إلى من تعزى إليهم من المؤلفين، مما جعلهم يستبعدونها (وهى أربعة عشر جزءاً أو سفراً تلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس، ولكن البروتستانت لا يعترفون بها ويسمونها الابوكريفا الإنجليزية Apocrypha) وترجع قصة هذه الترجمة المسماة بالسبعينية إلى القرن الثالث قبل الميلاد عندما سافر عدد من الدارسين اليهود إلى مصر أثناء حكم بطليموس فلادلفيوس (٢٨٥ ــ ٢٤٦ق.م) حيث أخذوا إلى الإسكندرية، لكى يضعوا نسخة يونانية منقحة للكتب اليهودية المقدسة.

وتروى القصة كيف أن الملك كان قد تناقش مع أمين مكتبته فى هذا العمل، بعد أن سمع عن عجائب هذه الكتب، وكلف أمين المكتبة بالكتابة إلى الحبر الأكبر لليهود فى أورشليم، يطلب منه إيفاد عدد من أحبار اليهود إلى الإسكندرية لكى يقوموا بترجمة التوراة إلى اليونانية، ولبى الحبر الأكبر الطلب وبعث باثنين وسبعين نبيلاً يهودياً، اختيروا من القبائل اليهودية الاثنتى عشرة، بواقع ستة أفراد من كل قبيلة حملوا معهم نسخة من القانون، كتبت فى صحف من الذهب، فاستقبلوا استقبالاً عظيماً تفرغوا بعده لأداء واجبهم، فعملوا منفصلين أول الأمر، ولما انتهوا جميعاً اجتمعوا وأجروا مقارنة بين نتائج عمل كل منهم، وأخيراً أخرجوا الترجمة اليونانية التى أصبحت منذ ذلك الوقت تعرف بالنسخة السبعينية أو ترجمة «السبعين» Seventy.

وكعادة اليهود فى الجنوح إلى المبالغة فقد أضافوا إلى الرواية الكثير من الأمور الغريبة، منها: كيف أن المترجمين اليهود وضعوا فى زنازين انفرادية، أو كل اثنين

معاً فى زنزانة ، فبلغ عددها ستًّا وثلاثين زنزانة ، فوضعوا الترجمة فى اثنين وسبعين يوماً بالضبط ، وأنهم عندما أجروا المقارنة بينها وجدوا أنها يطابق بعضها بعضا ، فاستدلوا من ذلك على أن العمل كان بوحى من الله .

ومع ذلك فإن دراسة هذه النسخة أسفرت عن نتيجة على جانب كبير من الأهمية ، وهى أن الجزء الأول من التوراة المسمى بالقانون ، هو الذى ترجم فى الإسكندرية حوالى ذلك التاريخ الذى ذكر أن الأحبار وصلوا فيه إليها ، وكانوا يحملونه مكتوباً فى صحف من الذهب ، مما يدل على أن المسألة لم يكن فيها وحى من الله أو أى شىء مما زعموه ، أما الكتب الأخرى من العهد القديم فإنها أضيفت فى وقت متأخر بواسطة مترجمين مختلفين ، يوجد بينهم تباين هائل فى الكفاءة وفى الأسلوب ، مما جعل المقياس العام للترجمة غير منتظم .

وأصبحت النسخة السبعينية (Lxx) هى توراة اليهود الذين يتكلمون اليونانية ، ووزعت على نطاق واسع من عالم البحر المتوسط ، وإلى هذه الحقيقة يشير أدموند جاكوب فهو يقول : إنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص ، ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل مدونات للنص العبرى للتوراة . كان هناك النص المحقق (الماسورى) والنص الذى استخدم ، جزئيًّا على الأقل ، فى الترجمة اليونانية ، والنص المعروف بالسامرى (أو أسفار موسى الخمسة) Pentateuque Samaritan (٢٧) .

ومع ظهور المسيحية غير اليهودية Gentile Christianity والتى تتكون من المسيحيين الأوروبيين الذين كانوا يعبدون الأوثان ، ولم يكونوا يهوداً فى الأصل ، أصبحت النسخة اليونانية هى الكتاب المقدس للكنيسة الأولى ، فلما استخدمها اللاهوتيون المسيحيون فيما نشب من منازعات لاهوتية بينهم وبين اليهود ، أنكرها هؤلاء وبدءوا فى إعداد ترجمات يونانية جديدة لتنافس الترجمة السبعينية ، وكانت أكثر هذه الترجمات أهمية هى الترجمة المسماة (أكويلا) Aquila التى وضعت فى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد ، ويظهر أنها اعتمدت على النص العبرى المسمى بـ (الماسورية) أكثر مما اعتمدت على الترجمة السبعينية ، وقد استخدم اليهود هذه

(٢٧) موريس بوكاى ، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، صفحة ١٨ .

الترجمة بحماس ملحوظ فى الجدل والنقاش والدرس والتعليم ، ومع ذلك فإن استخدامها لم يلق استهجاناً أو احتقاراً من جانب الدارسين المسيحيين أمثال (أوريجن) Origen و(جيروم) Jerome وبعد نصف قرن ظهرت ترجمة (ثيودوتيون) Theodotion وكانت أكثر قرباً من الأكويلا والترجمة الإنجليزية المتداولة الآن ، منها إلى الترجمة السبعينية ، أما الترجمة الرابعة فقد قام بها (سيماشوس) Symmachus وظهرت بعد وقت قصير من ظهور ترجمة (ثيودوتيون) ، وتميز عمل (سيماشوس) بأنه أكثر تحرراً ، كما أنه ينتمى إلى النمط الإغريقى .

وفى النصف الأول من القرن الثالث عثر سكندرى يدعى (اوريجن) على ثلاث ترجمات يونانية أخرى للتوراة ، كانت موجودة إلى جانب النسخة السبعينية ، ولاحظ أن بينها تناقضاً ، فعمل من جانبه على وضع ترجمة أقرب إلى الكمال سماها (هكسابلا) Hexapla أو ذات الستة الأقسام Six- foldversions حيث جمع فيها بين ست نسخ للتوراة أفرد لكل نسخة منها عموداً ، خصص العمود الأول للنسخة العبرية التى اعتبرت قياسية ، وخصص العمود الثانى للنسخة العبرية المترجمة إلى اليونانية . فى حين خصص العمود الثالث للترجمة اليونانية المسماة (اكويلا) ، أما العمود الرابع فخصصه لترجمة سيماشوس ، فى حين خصص العمود الخامس للترجمة السبعينية بعد أن قام بتنقيحها بنفسه ، أما العمود الأخير فخصصه لترجمة ثيودوتيون اليونانية .

وقد لقى التنقيح الذى أجراه (أوريجن) للنسخة السبعينية نجاحاً ملحوظاً أدى إلى تحول الاهتمام من النسخة السبعينية إلى النسخة المنقحة ، بل إنه أدى إلى إحداث تغيير كبير فى هذه الترجمة ، جعلها تبدو كما لو كانت شيئاً مختلفاً يخص أوريجن ذاته ، كما أنه أدى إلى التأثير بشكل ملحوظ فى النص .

ومن هذا البيان المختصر لتاريخ النسخة السبعينية ، يتبين أنه كانت هناك جهود كثيرة ، الهدف منها جعل هذه الترجمة أكثر تطابقاً مع النسخة العبرية المسماة بـ(الماسورة) . ومع ذلك فإنها لم تنجح فى القضاء على الاختلافات التى قامت بين النصين ، بل ربما تكون قد أدت إلى إبرازها بشكل أكبر ، وكان حلم الدارسين الذين يعملون فى هذا الحقل ، هو أن يكتشفوا نصاً عبريًّا من نفس عائلة

النسخة السبعينية ، وكانوا يحاولون أن يصوروا لأنفسهم الكيفية التى أدى بها المترجون اليهود القدماء عملهم ، وما أضافوه من عندياتهم ، وما الذى تركوه ، وأن يختبروا معلوماتهم فى العبرية ، وعلى أى أساس تعاملوا مع الصعوبات الموجودة فى النص .

ولكن تحقيق هذا الحلم كان يحتاج إلى اكتشاف كتب من التوراة ترجع إلى الأيام السابقة على مجمع جامينا ، أو بمعنى أصح ، ترجع إلى الوراء نحو الوقت الذى تمت فيه الترجمات اليونانية كلما أمكن ، وقد ظل تحقيق هذا الحلم أمراً ميئوساً منه إلى أن حل عام ١٩٥٣ ، ففيه اكتشفت لفائف أخرى أسفرت دراستها عن نتائج بالغة الأهمية ، فقد لاحظ (فرانك كروس) Frank Cross أثناء عمله فى الكهف الرابع من كهوف قمران وجود قطع من اللفائف الجلدية تشتمل على كتاب (صمويل) Samuel . وبدراسته تبين له أنه يختلف اختلافاً كاملاً مع النسخة الماسورية ، ولكى يطمئن أكثر قام بمراجعة النص مرة أخرى فتأكد له وجود الاختلاف ، بل ووجود فقرة كاملة فى النص القمرانى لم ترد فى النسخة العبرية القياسية .

وبدأ كروس يرجع إلى النسخ الرئيسية ، فوجد ، تقريباً أن النص الذى عثر عليه يتطابق كلمة بكلمة مع الترجمة اليونانية السبعينية ، وقام كروس بوصل القطع الثمينة من الجلد التى تتكون منها شذرات اللفائف ، وكلما مر الوقت وجد تطابقاً إيجابيًّا مع النسخة السبعينية ، واختلافاً مع النسخة الماسورية ، إلى أن وصل فى النهاية إلى الوضع الذى أصبح فيه قادراً على التأكد من أن أمامه الإجابة عن الحلم الذى طالما راود خيال المهتمين بنقد النص .

وباستمراره فى الدراسة أكتشف أكثر فأكثر أن المخطوطة الثمينة تختلف أحياناً عن النسختين السبعينية والماسورية ، وتتفق أحياناً أخرى مع الماسورية ضد السبعينية ، مما يدل على افتقار النسخ المختلفة للتوراة إلى الضبط الذى هو شرط أساسى لصحتها والثقة فيها ، وقد نشر (كروس) جزءاً من النص الجديد فى شهر ديسمبر ١٩٥٣ وقارن بينه وبين نص النسخة السبعينية ، وأبرز الاختلافات التى توجد فى النصين .

وبعد عامين نشر دكتور كروس بعض الشذرات الأخرى التى تشتمل على أجزاء من كتاب (صمويل) وتعد من أقدم المخطوطات التى تم العثور عليها فى مكتبة قمران حتى الآن، والتى ترجع ـ طبقاً لما يعتقده كروس ـ إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وقد لخص نتائج البحث الحذر لما اشتملت عليه الشذرات الست التى كانت تحتوى على حوالى خمسين كلمة، فتبين أن وثائق قمران تتفق ثلاث عشرة مرة مع النسخة السبعينية ضد النسخة الماسورية، وتتفق أربع مرات مع الماسورية ضد النسخة السبعينية، هذا فضلاً عن الحالات التى اختلفت فيها مع النسختين معاً، فإذا كان هذا القدرمن الاختلاف بين نسخ التوراة قد ظهر فى نص لا يزيد عدد كلماته عن الخمسين كلمة، فما هو عدد مرات الاختلاف بين النصوص الكاملة للتوراة فى نسخها المختلفة، وإلى أى مدى يمكن لأى إنسان عاقل أن يثق فى كتاب كهذا لا تكاد نسخة منه تتفق مع الأخرى فى أمر حتى تختلف معها فى أمور، وأى أمور هذه التى يقع فيها الاختلاف؟! إنها أمور العقيدة المنزلة من الله تعالى، والتى يستحيل تصور اختلافها من نسخة إلى نسخة أخرى مع وحدة المصدر وهو الله. مما يدل دلالة قاطعة على أن الكتاب المتداول الآن والمسمى بالتوراة ليس هو التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام، وإنما هو كتاب آخر من وضع الأحبار والتراجمة والكهنة، وكل من سولت له نفسه أن يضيف إليه أو أن يحذف منه بعد أن استباحوا كلام الله.

إن ما كشفت عنه الدراسات التى أجريت على النسخ المختلفة للتوراة، وما أدى إليه الكشف عن وثائق الطائفة الآسينية فى كهوف قمران، وبالذات نسخة التوراة القمرانية التى وفرت أرضاً أكثر رحابة وثباتاً لإجراء المزيد من المقارنات والتحليلات التى أثبتت ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن اليهود زوروا التوراة وغيروا فيها وبدلوا، كل هذا ليس إلا دليلاً جديداً على الإعجاز القرآنى، وكذب من ادعوا أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى كتب القرآن بيده، وادعى أنه أوحى إليه به، أو الذين قالوا إن بعض الكهنة النصارى أو غيرهم هم الذين علموا الرسول ﷺ القرآن، أو على الأقل ما تضمنه من أمور خاصة بعقائد اليهود والنصارى، أما من حيث الإعجاز فذلك لأن القرآن الكريم فضح ما قام به اليهود من تزوير للتوراة، وكيف أنهم كتبوها بأيديهم، وادعوا أنها من عند الله،

وفى ذلك الوقت لم يكن أحد قد عرف هذه الحقيقة، اللهم إلا عدد قليل من الصالعين مع اليهود من أتباع بولس الذين كثيراً ما وجدوا فيما قام به اليهود من أعمال تزوير ما يحقق مصالحهم، ويتفق مع أهوائهم، وأما من حيث الكذب فلأنه لو كان ما ادعوه من أن بعض كهنتهم هم الذين علموا الرسول ﷺ القرآن، أو بعض ما فيه، لو أن ذلك كان صحيحاً لجاء القرآن مثل التوراة، مشوهاً مليئاً بالأكاذيب، ومن باب أولى إذا كان من لقنوه للرسول هم أتباع بولس، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢٨).

بعض النتائج التى أسفرت عنها البحوث التى أجريت على وثائق قمران:

تبين من الدراسة الهامة والقيمة التى أجراها العالم (جون آليجرو) لوثائق البحر الميت، كيف أن من كتبوا الأناجيل استعاروا واقتبسوا الكثير من مبادىء وأفكار وآراء ونظم الطائفة الآسينية، وادعوا أنها مبادىء وأفكار وآراء ونظم مسيحية أصيلة، بل كيثراً ما نسبوها إلى السيد المسيح نفسه. ولولا اكتشاف وثائق قمران لظلت الحقيقة خافية على الناس لا يدرون عنها شيئاً.

وكان من أخطر ما كشفت عنه دراسة اللفائف ما ورد فى نسخة التوراة القمرانية بشأن البشارة بالرسول محمد ﷺ، والذى تبين أن النسخة القمرانية تتفق فيه مع النسخة السامرية، ويأتى بعد ذلك ما كشفت عنه الدراسة من قيام الكنيسة المسيحية الأولى بالاقتباس والاستعارة من الطائفة الآسينية، والادعاء كذباً أنها أمور من إبداعها، وأخيراً فإن الدراسة التى أجرها (آليجرو) أسفرت عن نتيجة ثالثة بالغة الأهمية تتعلق بشخصية السيد المسيح التى يعتقد (آليجرو) أن بولس والآخرين قد بالغوا فى رسمها، وأضفوا عليها أوصافاً اقتبسوها من شخصية (المعلم) وهو زعيم الطائفة القمرانية أو الآسينية، وذلك من أجل أن

---

(٢٨) سورة البقرة، الآية ٧٩.

يجعلوا من دعوة المسيح عملاً هاماً وخطيراً ، في حين أنه في الواقع لا يزيد عن أن يكون مجرد دعوة إصلاحية محدودة الأهداف ، تقتصر على جماعة من الناس هم اليهود أو الخراف الضالة ، فإذا ببولس يحول الأمر إلى دعوة عالمية وألوهية وبنوة لله ، وصلب وموت وقيامة وعشاء أخير وطقوس أخذها من هنا وهناك .

أولاً: تبشير توراة قمران بالنبي محمد ﷺ:

لاحظ (آليجرو) في دراسته لتوراة قمران ومقارنتها بما ورد في بعض الأناجيل أن هناك تناقضاً بين ما اشتملت عليه هذه الأناجيل من ذكر النبي المنتظر الذي بشر به موسى ، وبين ما انتهى إليه الرأي في الكنيسة منذ أيام بولس من اعتبار السيد المسيح إلهاً وابن إله ، وهذا يعني أنه ليس النبي الذي بشر به موسى عليه السلام ، والذي طال انتظار اليهود له كما سبق أن ذكرنا ، وقد فسر آليجرو ذكر هذا النبي في التوراة المعتمدة من الكنيسة ، بأنه راجع إلى أن هذه النسخة اقتبست هذه النبوءة من التوراة السامرية التي ظهر أنها تتفق مع التوراة القمرانية التي عثر على نسختها في مكتبة قمران .

والملاحظ أن (آليجرو) وجه اهتمامه إلى ما أسماه تناقضاً بين تبشير موسى بالنبي الذي سيأتي ليقيم لهم الرب ،وبين اعتبار المسيح إلهاً وابن إله ، أو بين قول موسى عليه السلام : إن هذا النبي لن يكون من بني إسرائيل ، وبين كون المسيح من بني إسرائيل ، ففي الحالة الأولى لا تنطبق النبوءة على المسيح لأنه ليس نبياً وإنما هو ابن الله ، فمن هو إذاً النبي الذي بشر به موسى ؟ وفي الحالة الثانية تظل النبوءة معلقة لم تتحقق لأن المسيح من بني إسرائيل وبالتالي لا يكون هو النبي الذي بشر به موسى . وأشار (آليجرو) إلى الحيرة التي عاش فيها زعماء الكنيسة الأولى الذين لم يدروا كيف يوفقون بين قيام دعوة المسيح على نبوءة موسى ، وتبشير يحيى به باعتباره النبي الذي سيقود بني إسرائيل إلى الخلاص في حين أن موسى يقول إن هذا النبي لن يكون من بني إسرائيل .

وإذا كان هؤلاء الزعماء قد وجدوا الحل فيما زعمه بولس من أن يسوع ليس نبياً وإنما هو ابن الله بل إنه إله ، فإن حيرتهم لم تنته لأن نبوءة موسى ظلت بدون تفسير ، وإذا كان قد بدا سهلاً الطعن في التوراة السامرية بالنسبة لما ذكرته عن

النبى المنتظر، فإن الكشف عن التوراة القمرانية والعثور فيها على نفس البنوءة جعل الموقف أكثر تعقيداً، خاصة وأن هذا الكشف جاء بعد أن تحققت النبوءة بالفعل، وبعد أن مضى على تحققها أربعة عشر قرناً لم يحدث خلالها ما يفيد العكس، إذ أنه لم يسبق أن مضت مثل هذه المدة بين نبى وآخر مما يدل على أن ما قاله الرسول محمد بن عبد الله ﷺ من أنه آخر الأنبياء وخاتم المرسلين حق وصدق.

وقد سبق أن بينا كيف أن التوراة العبرية تعرضت للتزوير مرات كثيرة، وأنها فى ترجماتها المختلفة أصيبت بالتغيير والتعديل والحذف والإضافة من جانب المترجمين وغيرهم، مما جعلها غير جديرة بالثقة، ولا تستأهل التصديق، فى حين أن التوراة السامرية لم تتعرض لشيء من هذا، وكذلك التوراة القمرانية وهذا ما اعترف به المتخصصون فى دراسة الكتب المقدسة الذين أولوها ثقتهم، واعتمدوها كمصدر جدير بالاحترام، وفضلوها على ما يسمى بالنسخ القياسية من التوراة، واتخذوها أساساً للمقارنة، وفى هذا الصدد فإن التوراة السامرية تضمنت إضافة هامة إلى نبوءة موسى عليه السلام التى قال فيها: «يقيم الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون» (٢٩) أضافت قوله: «ولا يقوم أيضاً نبى فى إسرائيل كموسى» وهذا ما لم تذكره التوراة العبرانية مما يدل على أنه حذف مثلما حذف غيره من الأمور التى لم ترق لأحبار اليهود.

وقد وجد هذا النص كاملاً فى التوراة القمرانية، وقد قيل إن هذا معناه أن النبى المنتظر لن يكون من بنى إسرائيل كما كان موسى، وإنما سيكون من بنى إسماعيل (٣٠)، وقيل أيضاً إن ما قصده موسى ليس أنه لن يكون هناك نبى من بنى إسرائيل مطلقاً، ولكنه قصد أنه لن يكون هناك نبى مثله أى محارب كما كان اليهود يحلمون. وهذا هو الصحيح حيث إنه جاء بعده أنبياء كثيرون من بنى إسرائيل آخرهم عيسى عليه السلام، ولكنهم لم يكونوا مثله، أى محاربين، وإنما الذى جاء مستوفياً لشروط النبوءة هو النبى محمد ﷺ فهو ليس من بنى إسرائيل، كما أنه كان محارباً قاد أمته إلى النصر على المشركين والكفار كما فعل

---

(٢٩) سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر.

(٣٠) الدكتور أحمد حجازى السقا، التوراة السامرية، صفحة ٢٥.

موسى كذلك ، فقد تأكدت النبوءة بما قاله عيسى بن مريم عليه السلام : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدنى ؛ لأنه يأخذ مما لى ويخبركم (٣١) .

ثانياً : استعارة الكنيسة الأولى لنظم وآراء طائفة قمران :

كذلك لاحظ (آليجرو) أن الكنيسة عرفت نفسها بأنها « هؤلاء الذين على الطريق أو أصحاب الطريق » أو « طريق الله » وهو ما جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من أعمال الرسل : « ولكننى أقر لك بهذا أننى حسب الطريق الذى يقولون له شيعة ، هكذا أعبد إله آبائى مؤمناً بكل ما هو مكتوب فى الناموس والأنبياء » . وهذا المصطلح نفسه سبق أن استخدمته طائفة قمران ، فهى كما جاء فى تعاليمها تضم « هؤلاء الذين اختاروا الطريق » . وأكثر من ذلك فإن الطائفة ومن بعدها الكنيسة وصفتا نفسيهما بالجماعة الفقيرة ، أو جماعة الفقراء ، وأبناء النور ، والفئة المختارة من الله ، وجماعة العهد الجديد ، وفى الفصل الثامن من الرسالة الإنجيلية بالعبرية نجد أن الكنيسة قد اقتبست تماماً عبارة (جيرميا) Jeremiah *فوصفت نفسها بأنها المعبد الجديد لله* ، خيث يكون خلاص *الناس* جميعاً بالفداء أو بتضحية المسيح نفسه ، وبينما تصف جماعة قمران نفسها بالزرع الأبدى وبيت إسرائيل المقدس ، والاجتماع السرى المقدس لأجل هارون ، وشهود الحقيقة يوم الحساب ، والمختارين بفضل الله للتفكير من أجل الأرض ، وليسددوا للشر ما يستحقه من عقاب ، والحائط المبتلى أو الممتحن ، وحجر الزاوية الثمين ، والذين لن تهتز مؤسستهم أو تزول من مكانها ، فإن وصف بطرس للكنيسة يشبه بشكل غير عادى هذه الأوصاف ، فهو يقول : « إنها الحجارة الحية التى أقيم بها بيت روحانى ؛ لتكون كهنوتاً إلهياً ، لكى تقدم التضحيات الروحية المقبولة من الرب بشفاعة يسوع » ولأنها ذكرت فى الكتاب المقدس فهى مدعوة لله ، أى أنه تبناها Behold ، وهى حجر الزاوية الرئيسى ، المختار من الله ، الثمين .. إن أتباعها هم الشعب المختار أو الجنس المختار Race ، وجماعة الكهنة الملكية (نسبة

---

(٣١) انجيل يوحنا ، الإصحاح ١٦ .

لهارون)، والأمة المقدسة، وشعب الله.

وكما كانت طائفة قمران تحكم نفسها حكما ديمقراطيًّا بواسطة المجالس التى كانت تقوم بالمداولة، فإن الكنيسة استخدمت بدورها هذا المصطلح فى العهد الجديد، حيث تصور المشاهد الواردة فيه كيف أن كل الأمور كانت تعرض على الشعب ليبدى رأيه فيها، ففى سفر الأعمال (٣٢). «سكت الجمهور كله، وكانوا يسمعون برنابا وبولس يحدثان بجميع ما وضع الله من الآيات والعجائب فى الأمم بواسطتهم». كذلك عندما ترك الحواريون للتلاميذ أن يحددوا السبعة الذين يقومون بالخدمة «فى تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن أراملهم كن يغفل عنهن فى الخدمة اليومية، فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم شهدوا لهم ومملوين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة، فحسن هذا القول أمام كل الجمهور فاختاروا استفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس وفيليبس وبروخورس ونيكافور وتيمون وبرميناس ونيقولاوس» (٣٣). وعند تشكيل مجلس كنيسة أنطاكية: «فهؤلاء لما أطلقوا جاءوا إلى أنطاكية وجمعوا الجمهور ودفعوا الرسالة» (٣٤). كذلك لوحظ أن هيئة مكتب الكنيسة وعلى رأسه الأسقف أو المطران له أصله فى نظام المراقب Overseer عند طائفة قمران.

ثالثاً: اقتباس الكنيسة لوظائف (المعلم) وإضفاؤها على المسيح:

كذلك اقتبست الكنيسة من طائفة قمران ما كانت قد طبقته من نظام يجمع فى شخص (المعلم) بين السلطتين الدينية والزمنية أو العلمانية، أى سلطة الحكم، فإلى ما قبل سقوط الثيوقراطية القديمة لإسرائيل كانت السلطتان الروحية والزمنية فى يدى الكاهن الأكبر، وبزوال الاستقلال اختفى وصف المِلْك وبقى وصف الكاهن وحده، حيث آل المُلْك إلى الرومان الذين احتلوا فلسطين، وفى

---

(٣٢) الإصحاح الخامس عشر الفقرة رقم ١٢.

(٣٣) أعمال الرسل، الإصحاح السادس، الفقرة من ١ إلى ٥.

(٣٤) أعمال الرسل، الإصحاح الخامس عشر، الفقرة رقم ٣٠.

عهد الهسمونيين ، لما عاد الملك إلى اليهود ، انتحل الكاهن الأكبر وصف الملك وعد ذلك عملاً من أعمال اغتصاب العرش ، صدم الورع الإسرائيلى فى ذلك الوقت ، وعلى أى حال فإن فكرة ازدواجية الإدارة المسيحية استمرت على الأقل إلى زمن الثورة الثانية (٥ ــ ١٣٢ ميلادية) يدل على ذلك ما لوحظ على نقود ذلك الوقت من وجود اسم (العازار) الكاهن الأكبر جنباً إلى جنب مع اسم (سيمون باركوشيبا) أمير إسرائيل . ولقد قضت طائفة قمران على هذه المشكلة عندما جمعت فى شخص المعلم بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهو ما اقتبسه أصحاب الأناجيل حيث جمعوا فى شخص المسيح بين السلطتين ، فلما نشأت الكنيسة ادعت لنفسها هذا الحق واستندت إليه فيما بعد لفرض وصايتها على الملوك والحكام باسم المسيح .

ويقول (آليجرو) : إن بعض النتائج التى أسفرت عنها دراسة اللفائف التى خلفتها طائفة قمران أزعجت المسيحيين ؛لأنها كشفت عما فى المسيحية من تناقض ناشىء لا عن الاختلاف الشديد بين شخصيتى معلم الطائفة التى كانت تقيم فى قمران ، وبين المسيح وحسب ، بل عن الاختلاف الأهم بين عالمين من الفكر جد متباينين ، فمن ناحية كان المعلم قائداً كهنوتيا لطائفة يهودية متطرفة نرى صورته من خلال عيون أتباعه ، ومن ناحية أخرى كان يسوع حاخاماً أو حبراً يهودياً تغيرت صورته بواسطة الكتابات اليونانية للكنيسة غير اليهودية ، التى أصبحت لها السيطرة ، لكى تجعل منه ومن رسالته شيئاً يمكن قبوله من جانب عالم غير اليهود Gentile World الذى أصبح يمثل كتلة المسيحية الرئيسية .

ويستطرد قائلاً : «والحقيقة أننا نعرف قليلاً جدًّا عن الرجل المسمى يسوع ، وعن خلفيته التاريخية والكلام المنسوب إليه فى العهد الجديد ، يظهر فى ترجمته خارج السياق غالباً ، وضمنياً بشكل كامل وغير مباشر ، وخاص بعالم مفقود للطائفية اليهودية ، ولا نزال إلى الآن نلقى صعوبة فى التعرف عليه ؛ ولذلك فإن القراء يمكنهم أن يدركوا ، أنه بالنسبة لما نحن عليه حاليًّا من جهل ، ليس من السهل أن نحدد مكان «يسوع» فى العالم اليهودى الذى كان قائماً فى أيامه ، ومدى العناء الذى سيصيبنا إذا أردنا أن نلقى الضوء على خلفيته الدينية . ويمكن أن نفترض بالتأكيد ، أنه كان ملماً بمذهب الطائفة الآسينية ، منذ أن انتشرت فى

فلسطين، وكما رأينا، فإن بعض اللفائف ظهر أنها تتطابق مع الآسينية الحضرية (التى كانت تنتشر فى الحضر) أكثر مما تتطابق مع الحياة القائمة على الزهد فى قمران، ومهما يكن فإنه لا يمكن التغاضى عما كان قائماً من اختلافات بين هذين الفرعين للحركة (الآسينية والقمرانية) وأن نأخذها بعين الاعتبار.

والراجح أن «يسوع» كان قد اطلع بشكل جيد على نظام وفكر الآسنيين فى المدن والقرى، أكثر من اطلاعه على نظام وفكر طائفة قمران، ومع ذلك فإننا مازلنا نحتاج إلى معرفة كم أكبر من المعلومات عن الآسينية الحضرية قبل أن نؤكد على الدرجة من القوة التى كانت عليها العلاقات التى ربطت «يسوع» بهذه الشيعة؛ وبقدر ما نالت التفاصيل الواردة فى العهد الجديد والتى تسجل لحياة «يسوع» من اهتمام، فإن اللفائف تقدم مصدراً إضافيًّا للاعتقاد بأن أحداثاً كثيرة نسبت إلى «يسوع» لم تزد فى الأصل عن أن تكون مجرد تصور لما كان متوقعاً أن يكون عليه المسيح، وأنها لم تقع فعلاً، وبالتالى فإنها ليست جزءاً من تاريخ «يسوع» (٣٥).

إن الإنجاز الرئيسى الذى قدمته لفائف البحر الميت للفكر الحديث، هو أنها نبهتنا إلى مدى الجهل الذى كنا نعيش فيه بشأن الأحداث والآراء الخاصة بالطائفة اليهودية فى بداية التاريخ الميلادى، ولا شك أن الضوء الذى ألقته على تلك الفترة الصليبية فى تاريخ الإنسان، أدى إلى امتداد بعض الضوء إلى فترة أخرى كان الظلام فيها يكاد أن يكون شاملاً، فهى على الأقل قد بددت عدداً من الافتراضات الزائفة، وفتحت الطريق أمام أفكار جديدة، أو ربما لإصلاح الأفكار المبتسرة التى طالما تغاضينا عنها لأنها لا تلائم تصوراتنا.

وفيما يتعلق بنهاية الطائفة الآسينية أو القمرانية، فإن دائرة المعارف الأمريكية تقول: إنهم اختفوا من التاريخ اليهودى، وربما يكونون قد ذابوا فى جماعة يهودية أخرى، من بينها اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وهذا هو الأرجح، فهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن هناك طائفة تسمى طائفة الفقراء أو «الأبيونيين» ظهرت فى نفس الفترة التى اختفت فيها طائفة الآسينيين، ويبدو أنها البقية الباقية منهم،

---

(٣٥) op. cit, p. 174.

فقد سبق أن رأينا أن طائفة قمران أو الآسينيين كانوا يصفون أنفسهم بأنهم الفقراء، وسوف نتكلم عن هذه الطائفة بعد أن نتكلم عن الطائفة الرابعة التى كان لها دور واضح فى الحياة الفكرية اليهودية، سواء قبل مجىء المسيح عيسى بن مريم، أو بعد مجيئه وهى الطائفة المسماة بالنصارى.

طائفة النصارى أو النذريين:

تسمى هذه الطائفة فى التاريخ اليهودى، وكذلك المسيحى، بطائفة النصارى أو الناصريين Nazarenes التى يقوم الخلاف بين المؤرخين وعلماء الأديان والمفكرين حول ما إذا كانت قد وجدت قبل المسيح، أم أنها لم توجد إلا بعد ظهوره، ليس ذلك وحسب، بل إن الخلاف امتد إلى الاسم الصحيح لهذه الطائفة، أهو (الناصريون) أم (النصارى) أم (النذريون). فهناك رأى يذهب إلى أن الناصريين هم النصارى، وهو رأى «ديورانت»[٣٦] الذى يذهب أيضاً إلى أنهم كانوا موجودين فى الأيام التى ولد فيها المسيح، وأنهم كانوا يسمون (ناصريين) نسبة إلى الناصرة التى يقال إن المسيح ولد فيها، فى حين يرى (جيبون) أن النصارى هم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، أو كما وصفهم (المرتدون إلى المسيحية) وقد سموا فيما بعد (النصارى) نسبة إلى مدينة الناصرة، فهم بناء على هذا الرأى لم يكن لهم وجود قبل المسيح.

أما العقاد[٣٧] فإنه يرى أن النصارى أو الناصريين لم يكن لهم وجود قبل المسيح، بعكس طائفة النذريين التى يذهب إلى أنها كانت موجودة قبل ميلاد المسيح، فى حين أن النصارى لم يظهروا إلا بعد ميلاد المسيح وإظهار دعوته، ويقول عن طائفة النذريين: إنه كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبل ميلاده، فقد وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة، وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود، يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا أحاداً متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره

---

(٣٦) ول ديورانت، المرجع السابق، صفحة ٢١٥.

(٣٧) العقاد المرجع السابق، صفحة ٤٩.

أهله على حدة ، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها .

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد ، واستعيرت على ما يظهر للجهاد فى سبيل الله ، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أى طليعة ، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت ، ولاشك أن المادة تدور حول هذا المعنى فى العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

ولا يشترط فى النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع ، ولكنه يراض على حياة التنطس ، فلا يجوز له أن يشرب الخمر ، ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة ، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره إن كان منذوراً لأجل مسمى ، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته ، ويقال عن المنذور إنه بمثابة النبى فى سن الفتوة ، قال النبى (عاموس) بلسان (يهوه) إله بنى إسرائيل : «وأقمت من بينكم أنبياء ومن فيتانكم نذيرين .. لكنكم سقيتم النذيرين خمراً وأوصيتم الأنبياء أن يدَّعوا النبوة» . والنبوة هنا بمعنى الإنذار بما سيكون .

ويقول الأستاذ العقاد عنهم : «والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة للسيد المسيح أن النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علماً من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب أن السيد المسيح من النذريين ، ويلتبس عليه الأمر بين النذرى والناصرى ، وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة ، بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود ؛ لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح أن الناصرة التى كانت تسمى «نذيرة» بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديماً ، وأنها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع ؛ لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بنى عامر ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ، ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية ، لغة الأناجيل ، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذروين والنسبة إلى النذيرة ، وبخاصة إذا كان اسم البلدة قد عرض له

التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين » (٣٨) .

ويستطرد الأستاذ العقاد قائلاً (٣٩) : « وليس النذريون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ؛ لأنهم جميعاً فتيان معمورة قلوبهم بالأمل ، معقودة نياتهم على الإصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ، ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه ، ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود » .

ويقول عنهم « ديورانت » أن المنتمين إلى شيعة الناصرة كانوا يعيشون فى بيريه فى الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا يرفضون التعبد فى الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس ، ولكن الذى أثار حماسهم الدينى هو عظات « يوحنا بن اليصابات قريبة مريم » يقصد النبى يحيى .

وبطبيعة الحال فإن أول من آمن بدعوة المسيح كانوا من طائفتى الآسينيين والنذيريين أو « الناصريين » وهم جميعاً من اليهود الذين نظروا إلى السيد المسيح ، لا باعتباره قد جاء بدين جديد ، أو بما يناقض الشريعة الموسوية ، ولكنهم نظروا إلى ما جاء به باعتباره تصحيحاً للديانة اليهودية التى أفسدها الأحبار ، وهذه فى الحقيقة هى النظرة الصحيحة إلى ما جاء به عيسى بن مريم ، وما كان هو نفسه حريصاً على تأكيده فى عظاته المختلفة « أنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله » ولذلك فإن المسيحيين اليهود ظلوا حريصين على الالتزام بما جاء فى شريعة موسى من طقوس ، مثل الختان ، الذى كانوا يصرون على إلزام كل من يعتنق المسيحية بإجرائه ، حتى ولو لم يكن من أصل يهودى .

ليس ذلك وحسب ، بل إنهم (أى اليهود) كانوا يستنكرون فى أول الأمر توجيه الدعوة إلى المسيحية إلى الأمميين ، ويقصدون بهم غير اليهود ، فهم كانوا يعتبرون المسيحية دعوة خاصة بهم وحدهم ، وكانوا يهاجمون الرسل ، أى الحواريين ،

---

(٣٨) العقاد المرجع السابق ، صفحة ٥٠ .
(٣٩) المرجع السابق ، صفحة ٥١ .

ويصرون على منعهم من هداية غير اليهود، من ذلك أنه جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة، وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختتنين (٤٠).

وقد ظل المسيح زمنا طويلاً لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود، يؤمن بأفكار الأنبياء، ويواصل عملهم، ويجرى على سنتهم، فلا يخطب إلا في اليهود، ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود، فهو يقول: «إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا» ومن ثم كان تردد الرسل بعد (موته) في أن يحملوا «الأنباء الطيبة» إلى عالم «الكفرة» ولما التقى المسيح بالسامرية عند البئر قال لها: «إن الخلاص هو من اليهود». ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفي ابنتها أبى في أول الأمر وقال: «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة». وقال للأبرص الذى شفاه من علته: «وأذهب بنيَّ وَأرِ نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى». كذلك قال: «على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه لكن حسب أعمالهم لا تعملوا». ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية، سار على سنة هليل فلم يفكر فى أنه ينقض هذه الشريعة وقال: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» وقال أيضاً: «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (٤١).

أما الطائفتان الأخريان: الصدوقيون والفريسيون فقد ناصبتاه العداء؛ لأنه كان يقصد رؤساءهما وأحبارهما وكتبها بعظاته، مما أغضبهم ودفعهم إلى استعداء الحكام الرومان عليه بدعوى أنه يؤلب الناس ويحرضهم على الثورة والتمرد، ويزعم أنه ملك اليهود.

ويقول شارل جينيبير(٤٢): «إنه لم يستجب لدعوة عيسى إلا بضع مئات من

---

(٤٠) قصة الحضارة، جـ٣ المجلد الثالث صفحة ٢٥٥.

(٤١) المرجع السابق صفحة ٢٣٠.

(٤٢) شارل جينيبير: المسيحية نشأتها وتطورها، صفحة ٢٣٠.

أهل الجليل السذج ، فالأناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب وهى تقتفى خطاه فى تلهف وتنصت إلى أحاديثه فى إعجاب بالغ ، هذه الأناجيل تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى ــ فى صورة لا شك أنها أقرب إلى الحقيقة ــ من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد ، والواقع أن عيسى نفسه يئس فيما يبدو ، من محاولة إقناعهم ، وأسباب فشله واضحة للعيان ، فهو لم يتحدث إلى الشعب باللغة التى كان ينتظرها منه ، كان يدعو إلى التأمل فى النفس وحب الخير ، وإلى التواضع والإيمان العميق بالله ، فى حين كان الناس يترقبون دعوة إلى الصراع المسلح ، وإعلاناً للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد ، إنه لم يقل لهم : قوموا .. فالمسيح الذى اختاره يهوه معكم » بل قال : مهدوا بالتوبة ليوم الحساب القريب » لم يطلب منهم العمل والكفاح ، بل رجاهم الصبر ، واتخاذ موقف أخلاقى ودينى ، من شأنه أن يحول هذا الصبر إلى نوع من الفروض الحتمية ، فيه ما فيه من القسوة على النفس . كان من بنى إسرئيل ولكنه لم يتعصب لقومه .

ومما لا شك فيه أن موقف الصدوقيين والفريسيين من السيد المسيح كان له أكبر الأثر فى تردد الطوائف الأخرى فى الانضمام إليه ، والإيمان بدعوته ، لذلك لم يزد عدد طائفة (النصارى) فى الفترة التى تلت رفع السيد المسيح على ١٢٠ فرداً ، كان معظمهم من شيعة الآسينيين . ولذلك لم يجد رؤساء اليهود ما يدعوهم إلى الاعتراض على قيام هذه الشيعة لصغرها ، وانتفاء الأذى من وجودها ، إلا أن عدد النصارى لم يلبث أن تضاعف فى سنين قلائل ، فقفز إلى ثمانية آلاف شخص ، مما جعل الرعب يستولى على قلوب الكهنة اليهود ، الذين بادروا إلى القبض على بطرس أحد حوارى المسيح وغيره من الحواريين ، وعلى أثر ذلك بدأ اليهود اضطهاد إخوانهم الذين اعتنقوا المسيحية ، فحاكموا بعضهم وزجوا بهم فى غياهب السجون (٤٣) . فلجأ عدد من اليهود المهتدين ذوى الأسماء والثقافة اليونانية الذين تزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية ، وأنشئوا فيها جماعات مسيحية قوية امتزجت لديها العقيدة بالأفكار الوثنية اليونانية ، التى تضمنتها الثقافة التى تشربوها .

(٤٣) المرجع السابق صفحة ٤٤ .

أما معظم الرسل (الحواريون) فيبدو أنهم سلموا من الاضطهاد؛ لأنهم ظلوا يراعون الناموس، فقد بقوا فى أورشليم مع المسيحيين اليهوديين الذين آلت رئاستهم إلى يعقوب (العادل) المسمى «أخو الرب». وقد قل عدد الجماعة المؤمنة المقيمة فى أورشليم، ونقصت مواردها، وكان يعقوب يبشر بالناموس بكل ما فيه من صرامة، ولم يكن يقل عن الآسينيين تقشفاً وزهداً، فلم يكن يأكل اللحم أو يشرب الخمر، ولم يكن له إلا ثوب واحد، وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لا يمسهم أذى، ثم حدث حوالى عام ٤١ أن قتل المدعو يعقوب بن زبيدى فقبض على بطرس ولكنه فر، ثم قتل يعقوب العادل فى عام ٦٢، وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما، وأيقن المسيحيون المقيمون فى أورشليم أن «نهاية العالم» قد دنت، فلم يأبهوا بالشئون السياسية، وخرجوا من المدينة، وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن (مملكة الأنباط) وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة، فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح (٤٤).

ولم يكن اليهود الذين اعترفوا بالمسيح يعتبرونه ابناً لله أو غير ذلك، مما أقحمه بولس وغيره على المسيحية فيما بعد، وإنما كانوا يعتبرونه نبياً رسولاً من البشر، بعث ليطهر الأرض، ويقيم ملكوت الله، ويعيد الإيمان إلى الناس بعقيدة البعث بالأجسام، وهو ما يخالف عقيدة الصدوقيين من جهة، ويهدد نفوذ وسلطان الفريسيين من جهة أخرى، ويحرمهم من المكانة التى يتمتعون بها.

وكما قلنا فإن المسيح لم يقل قط إنه إله أو ابن إله، بل كان يقول: «لماذا تدعوننى صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله» وقال وهو يصلى فى جتسمانى: «ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت» أى الله.

أما بالنسبة لعامة اليهود فإنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة فى المسيح الذى كانوا يعتقدون ـــ لكثرة ما سمعوه من أخبارهم ـــ أنه سيجىء قوياً محارباً يقودهم فى ثورة شاملة أو حرب ناجحة ضد مضطهديهم، ولذلك كانت خيبتهم عظيمة عندما

---

(٤٤) ديورانت، المرجع السابق صفحة ٢٤٤ ـــ ٢٤٥.

سمعوا عظاته التى يدعوهم فيها إلى التسامح مع أعدائهم ، بل ويوجه النقد إلى اليهود أنفسهم وإلى أحبارهم ، محملاً إياهم المسئولية عما لحق بالشريعة من تحريف ؛ ولذلك فإن ما قاله وجد صدى طيباً لدى كل من الآسينيين والنصارى الذين طالما عابوا على الأحبار فسادهم وانحلالهم ، وسوء استغلالهم للناموس . وكانت بهجتهم عظيمة وسرورهم لا حد له ، لتدمير الرومان للهيكل ، واعتبروا ذلك تحقيقاً لما تنبأ به المسيح .

وقد وجه اليهود الذين ناصبوا المسيح العداء كراهيتهم إلى أبناء ملتهم الذين آمنوا به بشراً رسولاً ، فاضطهدوهم ونكلوا بهم وطاردوهم ، ففر هؤلاء إلى الأقاليم المجاورة ، فاتجه بعضهم إلى اليونان وسوريا ، واتجه البعض الآخر إلى الجانب الآخر من نهر الأردن حيث تقوم دولة الأنباط .

وتحققت بذلك نبوءة المسيح الذى كان واحدً من تلاميذه قد سأله فيما هو خارج من الهيكل : يامعلم ،ما هذه الحجارة وهذه الأبنية ؟ فأجاب يسوع وقال له : انتظر هذه الأبنية العظيمة ، لا يترك حجر على حجر لا ينقض (٤٥) . كذلك قال : فإذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا ؛لأنها لابد أن تكون ، ولكن ليس المنتهى بعد ؛ لأنه تقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتكون زلازل وتكون مجاعات واضطرابات ، هذه مبتدأ الأوجاع (٤٦) . وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم ، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ، ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص . فمتى نظرتم دجاسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة حيث لا ينبغى ليفهم القارىء ، فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال ، والذى على السطح فلا ينزل إلى البيت ، ولا يدخل ليأخذ من بيته شيئاً ، والذى فى الحقل فلا يرجع إلى الوراء ليأخذ ثوبه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام (٤٧) .

واستجابة لما أمر به المسيح من الهرب إلى الجبال فر الآسينيون وغيرهم ممن

---

(٤٥) إنجيل مرقس ، الإصحاح الثالث عشر، الفقرتان ١ و٢ .

(٤٦) المرجع السابق ، الفقرتان ٧ و٨ .

(٤٧) المرجع السابق ، الفقرات من ١٢ إلى ١٦ .

آمنوا به بشراً رسولاً ، وتعرضوا للاضطهاد والقتل والمطاردة « والبغض من الجميع من أجل اسم المسيح » إلى الصحراء فى شرق الأردن ، حيث الكهوف التى كانوا قد اعتادوا اللجوء إليها ، والتى كانت عصابات المتمردين على الحكم الرومانى تنسحب إليها بعد أن تنتهى من شن غاراتها ، ثم لم يلبث قسم من الكنيسة اليهودية ـــ المسيحية Judeo - Christian أن اتخذ لنفسه مركزاً فى هذه المنطقة (٤٨) .

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها ، وتترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها ، وقد أطلق على الفئة القليلة التى تمسكت بالعقيدة الصحيحة القائمة على فكرة أن المسيح بشر وليس إلهاً أو ابن الله اسم الطائفة الأبيونية (٤٩) Ebionistes . ويقول (جيبون) : إن أبيونية معناها (الفقراء) الذين وصفوا بأنهم كانوا يجمعون بين التقشف المسيحى والناموس اليهودى الكامل .

ويقول (جيبون) إن طائفة (الابينيم) أو الفقراء انسحبت إلى مدينة (بللا) Pella فى الشرق من نهر الأردن . أما (ديورانت) فيقول إنهم انسحبوا إلى مدينة (بيرا) Perea وكلا المؤرخين يقول : إنها تقع فى شرق الأردن ، إلا أن (بللا) التى ذكرها (جيبون) كانت تعد من المدن العشر أو (الديكابولس) التى أنشاها الإغريق فى صحراء الشام ، ومنها بيت ـــ شان وديون ، وجرش وفيلادلفيا (عمان الآن) وغيرها .

وقد ورد فى إنجيل متى (٥٠) أن بعض سكان المدن العشر تبعت المسيح فى عهد رسالته الأولى (٥١) . ويقول متى أيضاً وهو يتكلم عن المسيح « فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن » . وكانت

---

(٤٨) **Allegro, op. cit, p. 169.**

(٤٩) يبدو مما قاله (جيبون) عن هذه الطائفة إنها لاتنتسب إلى أبيون (الذى كان يقول إن المسيح بشر ولدته السيدة العذراء بعد زواجها من يوسف النجار، ولكنه ، أى المسيح أحرز الفضائل فاتخذه الله ابنا له . وقد اختلف بعض أتباع (أبيون) معه فقالوا إن مريم حبلت بعيسى بفعل روح القدس ، لكنهم أنكروا مساواته للأب فى الجوهر . وكان أتباع أبيون ويسمون (الأبيونيين) لا يعترفون إلا بإنجيل متى مع إسقاط بعض فصول منه وتعديل آيات كثيرة أخرى .

(٥٠) الأصحاح الرابع ، الفقرة رقم ٢٥ .

(٥١) فيليب حتى ، تاريخ سورية ، الجزء الأول ، صفحة ٣٥١ .

(بللا) من المدن العشر هذه ، وكانت تقع فى شرق الأردن ، وتقابل بيسان التى تقع غربى النهر.

أما المدينة التى ذكرها (ديورانت) واسمها (بيرا) فإنها تبعد عن المدينة الأولى بمسافة كبيرة ، وتقع فى الجنوب ، وكانت مركزاً نبطيًّا مشهوراً تاريخيًّا وتسمى فى العربية (بطرا). وكانت حاضرة دولة الأنباط.

وعلى الرغم من بعد المسافة بين المدينتين (بللا) التى ذكرها جيبون و(بيرا) التى ذكرها (ديورانت) فإنه ليس من المستبعد أن تكون الطائفة الهاربة بدينها من اضطهاد اليهود والمسيحيين ، قد انتشرت فى المنطقة الممتدة بطول نهر الأردن من ناحية الشرق ، حيث تلائمها طبيعة التضاريس فيها ، فهى تتكون من جبال ووديان ، وتوجد بها كهوف بطول المنطقة.

والمعروف أن البرية ، وهى المنطقة الممتدة بطول الضفة الشرقية لنهر الأردن ، كانت فى مختلف العصور ملاذاً للهاربين من الاضطهاد ، وبخاصة اليهود الذين كانوا يستجيبون بذلك لدعوة النبى (أشعياء) الذى كان يقول : «فى البرية هيئوا صراط الرب» وهو ما أوصاهم به السيد المسيح بعد ذلك كما ذكرنا ، وفضلاً عما تتيحه لهم الكهوف المنتشرة فى البرية من مأوى آمن ، فإن الصحراء كانت دائماً أنسب مكان للتأمل فى ملكوت الله ، واعتزال الناس والتفرغ للعبادة.

وسوف نلاحظ عند تحليلنا وتفسيرنا لقصة فتية الكهف كما وردت فى القرآن الكريم ، أن عاداتهم ونظامهم وسلوكهم تماثل تماماً عادات وتقاليد ونظم وسلوك الآسينيين والقمرانيين ، ثم تلك الشيعة الصغيرة التى تفرعت عنهما ، والتى تعتبر بقية الباقية بعد أن استهدفتا لعدوان اليهود والمسيحيين معاً ، وهى شيعة الفقراء أو زهاد ، أو كما أطلق عليها الحزبان : حزب اليهود وحزب المسيحيين (الأبيونيين).

وقد اضطهدهم اليهود لأنهم كانوا يرفضون ما فعله الأحبار من تزوير للتوراة ، والتمسك بالشكليات ، وإهمال الجوهر والاتجار بالعقيدة ، والكذب والرياء ، والقسوة والأنانية ، والجشع وحب المال ، واقتراف كل أشكال الرذائل والموبقات ، وأخيراً إيمانهم بالسيد المسيح النبى الذى بشر به موسى عليه السلام ، باعتباره ليس مثل موسى ، ولكنه من بنى إسرائيل ، وهو ما يخالف كل ما حاولوا أن يقنعوا اليهود به

من أن النبى الذى بشر به موسى سوف يكون مثله محارباً يقودهم ضد أعدائهم ، ويلحق الهزيمة بهم ، ويعيد مجد إسرائيل ، ومما زاد الطين بلة ما أظهره الآسينيون والنصارى من سرور بتدمير الهيكل ، وإذا كان (هادريان) قد صب جام غضبه على اليهود جميعاً بدون أن يميز بين من ظل منهم على عقيدته ، ومن آمن بالمسيح البشر الرسول ، فحرم الجميع من الاقتراب من جبل صهيون ، حيث تقوم الكنيسة والمعبد ، فإن اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح ولم يعترفوا به نبياً رسولاً ، ظلوا يتحينون الفرص للانتقام من إخوانهم الذين آمنوا به وبدعوته ، حتى إذا لاحت لهم الفرصة لم يدعوها تفلت منهم ، وانقضوا عليهم فأعملوا فيهم سيوفهم ذبحاً وتقتيلاً ، ومن تمكن منهم من الإفلات من المذبحة لم يلبث أن وقع فى أيدى هؤلاء الذين انحرفوا برسالة المسيح عن طريقها الصحيح ، فزعموا أنه ابن الله .

فعندما انتهت فترة الاضطهاد واستعاد جبل صهيون اسم كنيسة أورشليم وأمجادها ، ألقى المسيحيون تبعة ما حدث على « الناصريين » أى اليهود المسيحيين ، ونسبوا إليهم جرائم الانشقاق والضلال ، خاصة وأنهم قد رفضوا التخلى عن عقيدتهم فى المسيح الرسول ، وعندما اضطلع المدعو ماركوس بوظيفة أسقف أورشليم ، وسعى إلى التصالح مع الرومانيين ومع الكنيسة الكاثوليكية على حساب عقيدة الناصريين ، فما كان من هؤلاء إلا أن رفضوا أن يوافقوه وظلوا يحتفظون بمدينة (بللا) Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق وأنشئوا لهم كنيسة فى مدينة حلب .

ويقول جيبون : « واعتبر اسم النصارى أو الناصريين أسمى وأشرف من أن يطلق على هذه الشرذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأفق وضآلة الإدراك بالإضافة إلى حالتهم ــ الاسم المزرى « الأبيونيين » (٥٢) .

ويقول عنهم أيضاً : « أما الأبيونيون التعساء الذين لفظتهم ديانة لأنهم مارقون (يقصد اليهودية) ولفظتهم الأخرى لأنهم هراطقة (يقصد المسيحية) فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، إلا أنها ذابت بطريقة غير ملحوظة فى الكنيسة المسيحية ،

(٥٢) اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، الجزء الأول ، صفحة ٣٣٢ .

أو فى الهيكل اليهودى » (٥٣) .

وقد ردد الأستاذ عباس العقاد هذا الكلام قائلاً : « ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحين (٥٤) وإذا كان جيبون قد قال إن طائفة الأبيونيين أو الفقراء ربما وجدت حتى القرن الرابع الميلادى ، فإن (ول ديورانت) يقول : إنها ظلت قائمة مدى خمسة قرون على الرغم من أن الكنيسة المسيحية التى قامت على عقيدة تأليه المسيح واعتباره ابناً لله كانت قد حكمت على هذه الطائفة فى نهاية القرن الثانى بالكفر، وأخرجتهم من حظيرتها (٥٥) .

والسبب فى لجوء شيعة الأبيونيين إلى بيرا Perea أو بللا Pella فى قول آخر يرجع إلى أن طائفة الناصريين التى تفرعت عنها هذه الشيعة كانت قد انتقلت من الناصرة إلى بيرا فى القرن السابق على ميلاد المسيح بسبب اضطهاد عامة اليهود لها ، بعد رفضها التعبد فى الهيكل والتقيد بالناموس ، وكان اليهود قد ضموا هذه المدينة إلى مملكتهم عام ٧٨ قبل الميلاد فى نفس الوقت الذى ضموا فيه إلى هذه المملكة السامرة ، وراعوم ، ومؤاب والجليل وأدوميا ، وما وراء النهر أو ما يعرف الآن بشرق الأردن (٥٦) .

العلاقة بين الأبيونيين وطائفتى الآسينين والنصارى :

ولعلنا بعد هذا العرض لما كتبه المؤرخون والمفكرون عن الطوائف اليهودية ، نلاحظ أن بعض المؤرخين ـ وإن كانوا قد استطاعوا أن يميزوا بين الآسينيين والنصارى ـ لم ينجحوا فى محاولاتهم تحديد علاقة طائفة الأبيونيين بطائفتى الآسينيين والنصارى وعن أيها تفرعت ، فمنهم من يذهب إلى القول بأنها تفرعت عن طائفة النصارى كما قال (جيبون) ، ومنهم من يرى أنها تفرعت عن طائفة الآسينيين أو الآسيين ، كما قال (ديورانت) . وهو ما ردده الأستاذ يوسف

---

(٥٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٣٣ .

(٥٤) حياة المسيح ، صفحة ١٤٤ .

(٥٥) قصة الحضارة ، المرجع السابق صفحة ٢٤٨ .

(٥٦) المرجع السابق صفحة ١٦١ .

الحداد (٥٧) فهو يقول : «وكانوا يعتبرون أنفسهم «أهل الصراط المستقيم» الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، والفرقة الناجية من بنى إسرائيل، وأهل (العهد الجديد) الموعود، وكانوا يسمون أنفسهم (قديسى الله) و(الأبيونيين) أى المساكين، وأبناء النور وأهل الرضا، وغرسة الله فى أرضه، وهيكل الله الحى».

ويقول أيضاً : «يؤيد ذلك هداية جماعة قمران إلى «النصرانية» الإسرائيلية، بعد الحرب السبعينية لما رأوا فى خراب أورشليم والهيكل تتميم نبوءة المسيح، فحملوا إليها صفة (الأبيونية) التى كانوا يتصفون بها. وصارت (النصرانية) تتصف (بالأبيونية) (٥٨)».

أما الأستاذ العقاد فإنه يبدو من وصفه لطائفة النذريين أن عاداتها ومعتقداتها لا تختلف فى شىء عن عادات الأبيونيين، وهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن الأبيونيين هم البقية الباقية من طائفتى الآسينيين والنصارى، الذين تمسكوا بعقيدتهم فى المسيح البشر الرسول، وكانوا ـ فى غالبيتهم ـ من الزهاد أو الفقراء. وتقول دائرة المعارف الأمريكية : إنه ربما يكونون هم أنفسهم قد استخدموا هذه الكلمة السامية (أبيونيم) لكى يرمزوا إلى زهدهم وتقشفهم، ولكنها استخدمت على سبيل السخرية من جانب خصومهم الذين قصدوا إلى تحقير لاهوتهم والازدراء بعقيدتهم.

وقد اتفقت الدائرة مع المؤرخين فى أن الأبيونيين كانوا يعتقدون أن يسوع ليس ابناً لله، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم بشأن مسألة ولادته من عذراء، فبعضهم أيده والبعض الآخر عارضه ورفضه. واتفقوا جميعاً، على أن يسوع ـ وإن لم يكن إلهاً ـ إلا المسيح الموعود به، ويذهبون إلى أنه نال منزلته من الله نتيجة لتمسكه بصورة فريدة بالالتزام بحرفية ناموس موسى (التوراة) وهو ما جعل الله يصطفيه ويحتفى به بشكل شعبى وعام أثناء تعميده بمعرفة (يوحنا) فى نهر الأردن، ووقفوا موقف المعارضة للمارسيونية Marcionites وهو المذهب الذى ينكر كل علاقة باليهودية بما فى ذلك العهد القديم (التوراة).

---

(٥٧) المرجع السابق، صفحة ٦٠٩.

(٥٨) المرجع السابق، صفحة ٦١٦.

وكان للأبيونيين مجموعتهم الخاصة من الكتابات المقدسة، واستخدموا العهد القديم لا فى لغته العبرية الأصلية، ولا فى إحدى ترجماته اليونانية التى كانت متداولة بين المسيحيين، ولكنهم استخدموا الترجمة اليونانية التى وضعها (سيماشوس) Symmachus الذى تعتبره الكنيسة اليوسوبية Eusedius أبيونياً. وكانوا ينظرون إلى رسائل بولس بازدراء باعتبارها كتابات وضعها مرتد محرف، ويبدو أنهم لم يكن لديهم أى من الأناجيل المعتمدة وذلك لشكهم فيها، ولكنهم تداولوا إنجيلهم الخاص بهم.

وتقول دائرة المعارف الأمريكية إنه من المحتمل أن يكون جوستين الشهيد Justin Martyr قد ذكر الأبيونيين بطريقة ما (ولو أنه لم يذكرهم بالاسم) حوالى سنة ١٦٠ ميلادية. وفيما بعد تناولهم بالبحث الكتاب المسيحيون الأوائل مثل (ترتوليان) Tertulian وايرنيوس Irenaeus وهيبوليتوس Hippolytus ويوسبيوس Eusedius ومما ذكروه عنهم يمكن الافتراض بأنهم لم يكونوا متفقين فى جميع الأمور، وفيما بعد اصطدموا بالمسيحية الأرثوذكسية، وكان ذلك ابتداء من القرن الرابع الميلادى، ثم مالبثوا أن اختفوا عن الأنظار، وعلى الرغم من أن اصطدامهم بالكنيسة كان بسبب إنكارهم لألوهية المسيح وإيمانهم به بشراً رسولاً(٥٩) وهو ما جعل الكنيسة تصدر قرارها بحرمانهم واعتبارهم محرفين ومهرطقين، فإن هناك سبباً آخر لموقف الكنيسة من هذه الطائفة لايقل أهمية عما اعتبرته هرطقة وتحريفاً من هذه الطائفة، لقولها بأن المسيح بشر وليس إلهاً وابن الإله، وهذا السبب فى الحقيقة قديم وجديد فى آن واحد، وهو عنصرية الغرب الفجة، فقد أنف أن يعتنق عقيدة سامية، هى فى حقيقتها ليست غير مذهب إصلاحى يهودى، وليست ديناً جديداً، وكان الإغريق ومن بعدهم الرومان يكرهون اليهود ويحتقرونهم، لما كانوا يلاحظونه من تصرفاتهم الغريبة والمنفرة، مثل التمسك بالعزلة، وما عرف عنهم من جشع وطمع واستغلال للآخرين، ممن كانوا يسمونهم (الأمميين) وعدم ولائهم للمجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها، وجبنهم الشديد، وعلى الرغم من كل هذه المثالب والعيوب التى أصبحت سمات مميزة لهذا الشعب، فإنهم كانوا يتصرفون بصلف وكبرياء لا لشىء إلا لاعتقادهم الخاطىء بأنهم شعب الله المختار،

(٥٩) **Paul Johnson, A History of Christianity, op cit, 90.**

لكل ذلك لم يتصور الآريون (الأوربيون) أن يعتنقوا ديناً يهودياً، أو حتى منبثقاً عن هذا الدين السامى خاصة أن الساميين كانوا قد وقعوا منذ زمن بعيد فى براثن الاحتلال الآرى، واعتبروا مواطنين من الدرجة الثانية حيناً، وعبيداً حيناً آخر.

ومما لا شك فيه أن بولس عندما ذهب إلى أوربا يدعو إلى المسيحية، ذهب وهو يحمل فى داخله إحساساً بالدونية أمام الفكر الأوربى الذى كان قد درسه وتأثر به، ولذلك فإنه آثر أن يعرض بضاعة تلائم هذا الفكر، لا أن يعرض المبادىء التى جاء بها عيسى عليه السلام، والتى غلب على ظنه أن الآريين لن يقبلوها.

ويمكن أن نلحظ بسهولة النغمة العنصرية القوية فيما كتبه مؤرخ مثل (بونسين) Bunsen (٦٠)، عن المسيحية، فهو حين يتكلم عنها يبدو كما لو كان يسجل صراعاً بين العنصر السامى صاحب اليهودية والنصرانية، والنعصر الآرى (اليونان والرومان) أصحاب المسيحية، وكيف انتهى هذا الصراع بانتصار الآريين الذين نجحوا فى فصل المسيحية عن اليهودية، بإقامة عقيدة التثليث والتأكيد عليها، بحيث أصبح الخلاف بينها وبين عقيدة التوحيد اليهودية جذرياً ولا رجعة فيه، ثم كيف عملوا على الخلاص من اليهود الذين اعتنقوا النصرانية، حتى لا يؤدى وجودهم فى داخل المسيحية، مع إيمانهم بالإله الواحد، وإنكارهم للثالوث، إلى إضعاف المسيحية ثم القضاء عليها.

وقد سبق أن بينا كيف أن كثيراً من الباحثين لاحظوا التماثل الواضح بين عقيدة الآسينيين الذين كانوا يقيمون فى خربة قمران، وبين ما ورد فى الأناجيل، وبخاصة إنجيل يوحنا مما جعلهم يرجحون أن يكون أصحاب تلك الأناجيل قد نقلوا كثيراً مما فيها من مصادر الآسينيين بعد إضافة فكرة التثليث، التى أقحمها بولس على دعوة المسيح عليه السلام، وهذا فى ظننا صحيح لا ينال منه القول بأنهم، أى ــ الآسينيين ــ قد قامت بينهم وبين دعوة المسيح عليه السلام بعض الاختلافات، فهذه الاختلافات بسيطة للغاية، وليست مما يصطدم بأسس العقيدة، بل إن كثيراً منها مصطنع ولا أصل له، من ذلك القول بأنه فى حين كانوا أمة معتزلة

(60) C.C Baron Bunsen, God in History, or the Progress of Man's Faith in The moral order of the World Vol, 1860, p. 42.

عن الشعب يتنجسون من أكله، ومن مجالسة العشارين والخطاة-فإن المسيح كان على العكس من ذلك، يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة، وبينما كانوا يعتبرون الخاطىء نجساً كالمشرك، فإن يسوع كان يقبل توبة الابن الشاطر الفاجر ويسمح للزانية العاهرة—حين تابت وأتت إليه—أن تقبل قدميه وتمسحهما بشعر رأسها، ويرى أن العشار التائب أفضل من الفريسي أو القمراني المتجبر، فإن كل هذه الاختلافات وغيرها إنما نشأت عن أن المسيح كان نبيًّا ورسولاً يوحى إليه من السماء، أو أكثر من هذا، وهو ما قاله بولس، كان إلهاً وابن إله، فله بهذه الصفة أن يغير ويبدل فى الناموس، على الرغم من أنه هو نفسه نفى ذلك بشدة وقال إنه ما جاء ليبدل الناموس، بل جاء ليهدى خراف بنى إسرائيل الضالة. وما فعله الآسينييون لم يكن إلا التزاماً منهم بهذا الناموس.

أما ما قيل من أنهم اختلفوا معه فيما دعا إليه، حيث إنه دعا إلى التثليث فى التوحيد الكتابى فى حين دعوا هم إلى التوحيد التوراتى وأنهم اعتبروا المسيح بشراً رسولاً، فى حين أعلن المسيح فى محاكمته أمام السهندرين، مجلس القضاء الأعلى: «من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله! فقالوا جميعاً: أفأنت إذن ابن الله؟ فقال لهم: أنتم قلتم! أنا هو» فيسوع هو «ابن داود» و«ربه» معاً ويسوع يدعو إلى الله بصفة كونه «أبى» و«أبانا الذى فى السموات» فى حين أنه فى مخطوطات قمران لم يجد العلماء إلا مرة واحدة أنهم يصفون الله أباً»(٦١) فإن كل هذا كلام لم يقم الدليل عليه من أقوال المسيح ذاته، بل إن ما استدل به أنصار هذا الادعاء إنما يثبت عكس ما ادعوه فقول المسيح عن الله تعالى «أبى» ليس معناه أنه يقصد أنه أبوه فعلاً، وإلا فإن ما قاله عن «أبانا الذى فى السموات» يفهم منه أن البشر جميعاً هم أيضاً أبناء الله، ولكن بالميلاد، كما زعموا بالنسبة لعيسى، ولكن الواضح من كلامه أنه كان يقصد أن البشر جميعهم هم عيال الله وليسوا أبناءه بالميلاد.

ولعلنا من هذا البحث المستفيض فى طوائف اليهود وعلاقتها بالمسيح وموقفها من دعوته—نكون قد بددنا جانباً من الغموض الذى أحاط بنشأة الفتية الذين أووا

---

(٦١) يوسف الحداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٧.

إلى الكهف ، والذين لم يكونوا من سكان افسوس ، كما تقول الأسطورة المسيحية ، وإنما كانوا من سكان « بيرا » أو البطراء ، أو فى فرض آخر، من سكان (فيلادلفيا) التى أصبحت تسمى عمان حيث يتوسط الكهف هاتين المدينتين حتى لقد سمى العرب (البطراء) مدينة أهل الكهف .

وكان هؤلاء الفتية من شيعة (الأبيونيين) التى تفرعت عن طائفة الآسينيين فى أرجح الأقوال ، وقد تبين لنا مما ذكره المؤرخون عن هذه الطائفة ، وما أسفرت عنه كشوف البحر الميت ـ أن مبادئها وقيمها وعاداتها وعقائدها كانت مماثلة تماماً لما كان عليه النبى يحيى (يوحنا المعمدان) كما يرد اسمه فى الكتب المسيحية ، ولما جاء به المسيح عليه السلام من الدعوة إلى الحب ونبذ الكراهية والميل إلى السلم ، والتقشف والزهد ، والبعد عن الرياء والنفاق .

كذلك فإنهم كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، ويترقبون مجىء المسيح ، النبى الرسول ، ويقيمون فى الأماكن النائية بعيداً عن صخب المدن ، وإنهم عندما أظهر المسيح دعوته انضموا إليه واعترفوا به نبيًّا ورسولاً ، فأغضبوا قومهم اليهود الذين كانوا يعبدون « يهوه » وهو إلههم وحدهم ، دون غيرهم من الأمم ، ثم لم يلبثوا أن أغضبوا المسيحيين الجدد الذين خلطوا المسيحية الحقة بالوثنية والشرك ، وأقحموا عليها عقيدة التثليث ، ونادوا بألوهية المسيح .

وهؤلاء وأولئك هم قوم الفتية ، ولكنهم منقسمون على أنفسهم إلى يهود متمسكين بعقيدتهم التى أفسدها الأحبار، ومسيحيين من أتباع بولس اليهودى الذى يؤله المسيح ويدعوه ابن الله ، وقد حدث هذا عندما قامت الثورة اليهودية عام ٦٦ ـ ٧٠ ميلادية عندما قضى الرومان على مستوطنة الآسينيين وعلى أديرتهم فى خربة قمران قبل القضاء على أورشليم عام ٧٠ ميلادية ، فقام الآسينيون قبل هروبهم من المنطقة بإخفاء مخطوطاتهم فى الكهوف المنتشرة فى المنطقة ، ومن نجا منهم من مذبحة الرومان انضم بعضهم إلى ما يسمى « النصرانية اليهودية » وهؤلاء هم الذين عرفوا فى التاريخ باسم الأبيونيين أى الفقراء ، وهم الذين قال الإنجيل فيهم : « طوبى *للأبيونيين* » وهى بالآرامية ، ومعناها بالعربية *المساكين*، فى حين انضم البعض الآخر إلى تلاميذ (يوحنا المعمدان) وصاروا يسمون أنفسهم

(المندائيين) (٦٢).

وقد عاش الأبيونيون فى البرية التى توجد فى الضفة الشرقية لنهر الأردن، يعبدون الله الواحد الأحد، ويؤمنون بعيسى بشراً رسولاً، ولكنهم لم يسلموا من الاضطهاد الذى أصبح مصدره مزدوجاً، فقد اضطهدهم اليهود باعتبارهم مرتدين عن اليهودية، واضطهدهم المسيحيون باعتبارهم محرفين؛ لأنهم رفضوا الاعتراف بيسوع ابناً لله ولم يعترفوا بالثالوث.

ولعل هذا يفسر لنا قول الفتية: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (٦٣)

ثم قولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٦٤)

فهم فى القول الأول يقصدون بالإله الذى لن يدعوا إليه، إله اليهود (يهوه) ويقصدون فى القول الثانى آلهة المسيحيين (الأب والابن والروح القدس) ثم العذراء التى اعتبروها إلهة هى الأخرى. وهم من كان فتية أفسوس يؤمنون بهم فى ظل عقيدة التثليث، والراجح لدينا أن طائفة الأبيونيين أو الفقراء لم تنقرض فى القرن الخامس كما ذهب إلى ذلك ديورانت، وإنما استمرت فى الوجود حتى ظهور الإسلام، والدليل على ذلك أن طريقة هذه الطائفة فى الحياة فى الصحارى بعيداً عن العمران، واتخاذ الصوامع للعيش فيها ظلت متبعة من جانب عدد من الرهبان الزهاد الذين كانت صوامعهم تمتد من شرق الأردن إلى عمق الصحراء فى الجزيرة العربية، على طريق التجارة مع الشام، ومع مصر عن طريق أيلة.

كذلك فإن هؤلاء الرهبان الزاهدين كانوا متمسكين كعادة أسلافهم بتوراة موسى، ويعلمون ما فيها من نبوءات، وكذلك بإنجيل المسيح الذى لم تنل منه أيدى بولس وشيعته، ومن شيعة الأبيونيين الراهب المعروف فى التاريخ الإسلامى باسم

---

(٦٢) يوسف الحداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٠.
(٦٣) سورة الكهف، الآية ١٤.
(٦٤) سورة الكهف، الآية ١٥.

بحيرا Bahira الذى تردد ذكره فى كتب السيرة أنه التقى بالنبى ﷺ ، وتنبأ بأنه النبى المنتظر لما رآه من علامات وبشارات تطابق ما جاء فى التوراة والإنجيل الصحيحين ، وقد كانت لدى الأبيونيين نسخ منهما ، كما كان لدى الآسينيين . وكان هذا الراهب يقيم على مقربة من بلدة بصرى بإقليم حوران .

وقد أراد المستشرقون وعلماء التاريخ الغربيون أن يسددوا طعنة إلى الإسلام باتهامهم للرسول ﷺ أنه تلقى عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن من هذا الراهب ، فكان أن رد الله كيدهم إلى نحورهم ، إذ أنهم بذلك يعترفون أن هذا الراهب كان يؤمن بعقيدة التوحيد ، وأن اليهود والنصارى قد غيروا وبدلوا فى كتبهم ، فوصف اليهود الله سبحانه وتعالى بأوصاف لا تليق به ، وصوروه فى صورة سيئة مهينة ، فقد شخصوه ونسبوا إليه عواطف الإنسان وأعماله ، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال ، بل وقالوا عنه ما ذكره القرآن : « يد الله مغلولة » فى حين جعله المسيحيون أباً وزوجاً وأشركوا معه ابناً هو المسيح الذى أضفوا عليه صفة الألوهية ، وجعلوه ابناً لله حيناً ، والله ذاته حيناً آخر .

ولم يكن هناك ، بعد تفشى المسيحية التى وضع بولس أسسها ، وبقاء اليهودية فى بعض أجزاء من فلسطين والشام ، غير طائفة الأبيونيين لتقول هذا الكلام . ولذلك اتهم هؤلاء المستشرقون وغيرهم من المؤرخين الراهب بحيرا بالإلحاد ، بل وشككوا فى اسمه فقالوا إنه ليس بحيرا وإنما اسمه سرجيوس أو جرجيس أو نسطور . وهذا ـ إن دل على شىء ـ فإنما يدل على أنه كان هناك أكثر من شخص يعتنق عقيدة هذه الطائفة ، بل إن هناك دليلاً على أن هذه الطائفة استمرت فى الدعوة إلى عقيدتها ، وأنها نجحت فى إقناع بعض العرب باعتناقها ومن هؤلاء ورقة ابن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج الرسول ﷺ وكان قد تنصَّر فى الجاهلية ، ولكن عقيدته كانت تقوم على التوحيد وإنكار ألوهية المسيح ، أو بنوته لله سبحانه وتعالى ، وهى نفس عقيدة الأبيونيين ، كما أن من المرجح أن تكون هذه الطائفة قد مدت نشاطها إلى عقر دار الإمبراطورية الرومانية ، حيث ظهرت بعض الشيع ، ومنها شيعة الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان ، وشيعة المتبينة

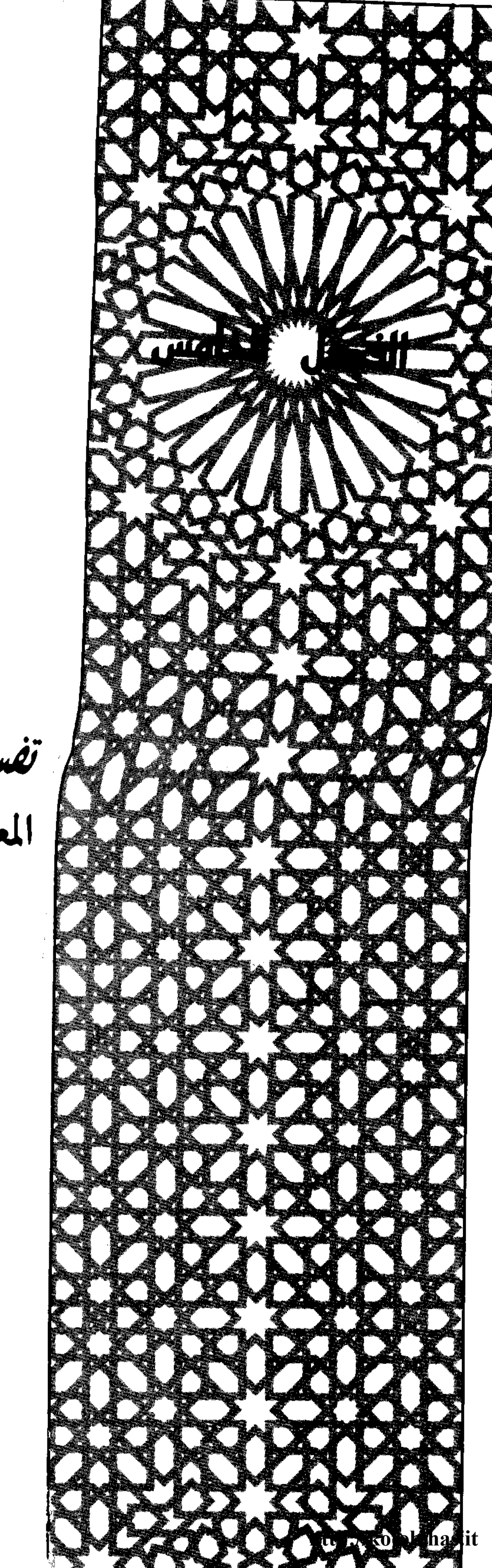
التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة (٦٥)، أى أنه إنسان كغيره ولكن الله اصطفاه.

أما الانقراض الحقيقى لهذه الطائفة فقد حدث بعد الإسلام الذى وجد فيه أفرادها القلائل الذين أدركوه ما يتفق وعقيدتهم، ويعد انتصاراً لها، حيث إنه بظهوره أعاد الأوضاع إلى ما كانت عليه يوم بدأ المسيح ينشر دعوته بين خراف بنى إسرائيل الضالة ـ بل وإلى ما قبل ذلك يوم كانت التوراة نقية سليمة صحيحة، قبل أن يحرفها أحبار اليهود.

وهكذا يتضح لنا أن لجوء الفتية إلى الكهف لا علاقة له بثورة اليهود على الرومان، ولا باضطهاد الرومان للمسيحيين، ومحاولتهم إجبارهم على ترك المسيحية والعودة إلى عبادة الأوثان، وإنما كان نتيجة لعملية اضطهاد مزدوج صادر من جماعتين إحداهما تعبد إلهاً غير إله الفتية، والأخرى تعبد آلهة متعددة من بينها الله، مما يدل على أن هاتين الجماعتين، على الرغم من اختلافهما قد تعاونتا معاً فى الاعتداء على الفتية وجماعتهم، وكل جماعة منهما تهدف إلى إعادتهم إلى دينها: اليهود يريدون أن يعيدوهم إلى عبادة إلههم (يهوه) والمسيحيون يريدون أن يفرضوا عليهم عبادة الثالوث، وقد حدث هذا عندما اضطلع المدعو «ماركوس» أو مرقص بوظيفة أسقف «أورشليم» وسعى إلى التصالح مع الرومان ومع الكنيسة الكاثوليكية على حساب طائفة الآسينيين وشيعتهم الأبيونيين أو الفقراء وهى شيعة الفتية.

---

(٦٥) قصة الحضارة، الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ٢٩٤.



تفسير قصة أصحاب الكهف في ضوء المعلومات التاريخية والمكتشفات الأثرية

تفسير قصة أصحاب الكهف فى ضوء المعلومات التاريخية والمكتشفات الأثرية

لعله يمكننا بعد ما تقدم أن نقدم للقارىء التفسير الصحيح لقصة أهل الكهف ، وهو فى الواقع ليس من وضعنا فنحن لسنا ممن تمرسوا بالتفسير أو ألموا بقواعده وأسراره ، وإنما هو مستخلص من التفاسير المختلفة التى وضعها المفسرون على اختلافهم ، أخذنا منهم ما رأيناه متفقاً مع نظريتنا ، وما نعتقد أنه صحيح ، خاصة أن إلمام المفسرين بالقصة المسيحية قد تسلط عليهم بدرجات متفاوتة ، فجعلهم يغفلون عن كثير من المعانى التى تتضمنها الآيات الخاصة بقصة أصحاب الكهف .

فالذين قالوا إن قصة النيام السبعة هى قصة أصحاب الكهف ، فاتهم أن يلاحظوا أوجه الاختلاف الكثيرة بين القصتين ، وهو اختلاف واضح سواء من حيث المغزى ، أو من حيث الأحداث التى وقعت ، أو من حيث الظروف التى جرت فيها أحداث القصة ، أو المعجزة ، أو من حيث ما اكتنفها من ملابسات ، وهو ما أوضحناه فى الفصول السابقة .

وعلى الرغم مما فى قصة أهل الكهف -كما أوردها القرآن الكريم -من إيجاز شديد فإنها أوفى بكثير من قصة النيام السبعة المسيحية ، مع ما فيها من تفاصيل مسهبة ، فالقصة القرآنية من قبيل ما قل ودل ، وهى مستوفية للشروط التى تجعلها مقبولة من الناحيتين المنطقية والعلمية ، بعكس القصة المسيحية التى تخلو تماماً من هذه الشروط ، مما يجعلها لا تزيد على أن تكون مجرد أسطورة ، وهو ما وصفها به بعض العلماء بحق .

وسوف نتبع فى عرضنا للقصة الإسلامية أسلوب تفسير الآيات كما وردت فى كتب التفسير، معتمدين كما سبق أن قلنا، على الآراء التى نرجح صحتها واتفاقها مع منطق القصة القرآنية، وعلى الوقائع التاريخية، سواء ما كان منها متوفراً فى المصادر التاريخية الغربية وقت وَضْع المفسرين لكتب التفسير المختلفة، ولكنهم لم يطلعوا عليه لسبب أو لآخر، أو ما استجد من وقائع بعد وضع تلك الكتب، ونحن إذا أمعنا النظر فى سورة الكهف فسوف نلاحظ أن أولها يتضمن إنذاراً للذين يقولون إن الله قد اتخذ ولداً:

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (١).

ويصفهم بأنهم: ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٢).

فهذا الجزء من السورة ليس مقطوع الصلة بالجزء الذى يليه، والذى يتحدث عن أهل الكهف، بل هو منه بمثابة المقدمة أو المدخل، ويدل بصورة واضحة على أن حادثة الكهف وقعت بعد أن شاع الاعتقاد لدى بعض المسيحيين أن المسيح هو ابن الله، وذلك نتيجة لما روجه «بولس» وشيعته فى سعيهم الى جذب جماهير الوثنيين فى الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية، باللجوء إلى المزج بين عقائدهم والمسيحية.

ولعله يجدر بنا أن نولى هذه المسألة قدراً أكبر من الاهتمام، نظراً لما يحيط بها من غموض ساعد على شيوع الاعتقاد لدى الكثيرين، بأن المسيحية قامت منذ البداية على أساس الاعتقاد ببنوة المسيح لله تعالى، أو على الأقل أن هذه العقيدة قد قوبلت منذ البداية بالقبول من جانب المسيحيين جميعاً، وهذا ليس من استنتاجنا، وإنما هو وصف لوضع حقيقى كان ولا يزال قائماً، ولست أدرى كيف لم يفطن إليه المفسرون المسلمون الذين بهرتهم قصة النيام السبعة، فجعلهم ذلك يغفلون عما فيها من أخطاء صارخة، أهمها ما قيل من أن الفتية الذين فروا الى الكهف إنما فعلوا ذلك هرباً بعقيدتهم التثليثية من حاكم وثنى يريد أن يكرههم على عبادة الأوثان، فى حين أن الشرك بالله بالادعاء أن له ولداً وزوجة لا يقل

(١) سورة الكهف، الآية ٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٥.

عن عبادة الأوثان إن لم يكن يزيد عليها ، فهو أعظم الكبائر الذى قال الله فيه إنه :

﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ (٣) .

فكأننا حين نردد ما زعمه الأساقفة من أن الله قد شمل برعايته الفتية السبعة الذين اعتنقوا المسيحية كما تصورها الكنيسة ، نعترف بأن المشركين فى حماية الله ، وهذا غير صحيح ، ولكن الصحيح أن هؤلاء الفتية لم يكونوا مسيحيين بالمعنى المعروف اليوم ، وإنما كانو مسيحيين بالمعنى الصحيح ، وهو الذى تعده الكنيسة معنى منحرفاً وتعتبر من يؤمنون به خارجين عليها ومهرطقين .

ويذهب غالبية المفسرين المسلمين إلى أن الذين عناهم الله بقوله :

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤) .

هم النصارى واليهود والمشركون من العرب . وهذا المذهب أصح من مذهب القلة التى ترى أن المقصود بهم المشركون من قريش ، اعتماداً على قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٥) .

الذى فسروه على أن الرسول ﷺ كاد أن يهلك حزناً وألماً بسبب رفضهم دعوته إياهم إلى ما يحييهم وهو الإسلام ، ونسى أصحاب هذا المذهب أنه كان فى قريش من اعتنق المسيحية ، فضلاً عن غيرهم من عرب الحيرة وغسان وغيرهما .

كذلك فإن اليهود كانوا هم الذين حرضوا كفار قريش على توجيه السؤال الخاص بأصحاب الكهف إلى الرسول ، وقد كان ﷺ يتوقع أن يكون أهل الكتاب ، سواء منهم اليهود أو النصارى أول من يؤمن بدعوته ، خاصة أن التوراة والإنجيل قد تضمنا البشارة به ، وهذا فى الواقع أدعى إلى الحزن والكمد من رفض قريش له ، ومحاربتها لدعوته التى كانت أمراً متوقعاً وهم الموغلون فى الشرك ، المتمسكون بعبادة الأوثان ، ومن المعروف أن حزن الإنسان وضيقه وأسفه يكون

---

(٣) سورة النساء : الآية ٤٨ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٤ .

(٥) سورة الكهف ، الآية ٦ .

أشد وأقوى إذا كان العناد والمكابرة والكيد ممن يعلمون أنه على حق وينكرون ذلك، وليس ممن لا علم لهم بصحة ما يدعوهم إليه ويلزمهم به.

كذلك فإن العرب لم يكونوا يقولون إن لله سبحانه وتعالى ولداً، وإنما كانوا يعبدون آلهة متعددة قالوا إنهم يتخذونها زلفى تقربهم إلى الله، أي وسطاء بينهم وبينه. ويقول ابن إسحاق: إن العرب كانوا يقولون: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله، ولم يكن استعمالهم لاسم الذات (الله) ومعناه (الإله) للدلالة على الإله الأعلى فحسب، ولكن للدلالة على عدة آلهة خاصة أيضاً، ولم يستعمل هذا الاسم للدلالة على الله الأوحد، إلا بعد بعث الرسول ﷺ (٦).

ويقول القرطبي (٧) إن قوله تعالى: (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) يقصد به أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وقريش قالت: الملائكة بنات الله، فالإنذار فى أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قالوا: لله ولد.

ويرد ابن كثير على من قالوا إن العرب هم المقصودون بالآية بقوله: «وهذا قول فيه تخصيص من غير مخصص، والحق أن الآية عامة فى إنذار كل من ادعى هذه الدعوى، يستوى فى ذلك المشركون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى» (٨).

والذى نراه أقرب للصواب أن الآية لم تقصد اليهود، فهم - وإن كانوا قد قالوا إن العزير ابن الله - لم يعبدوه كإله ولم يجعلوه شريكاً لله فى ملكه، ولم يقولوا إن أمه إلهة كما فعل النصارى بعيسى وأمه عليهما السلام؛ ولذلك فإننا نرى أن الذين قصدهم الله بهذه الآية هم النصارى، وليس هناك خلاف بشأن تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٩).

---

(٦) سبينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ص ٢٠٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ج ٩، ص ٣٥٣.

(٨) المرجع السابق، المجلد الخامس، ص ١٣٢.

(٩) سورة الكهف: الآيتان: ٧ و ٨

فالخطاب فيها موجه للنصارى الذين كانوا قد انصرفوا إلى اللهو والعبث ، وتعلقت قلوبهم بالدنيا ومتاعها ، يقول لهم : إن ما ترون على سطح الأرض من متاع وأسباب تولعون ببهجته وتفتنون بجماله ، ليس إلا زينة عارضة أعدت لامتحانكم وابتلائكم . واليوم الذى ينتهى فيه هذا الامتحان ستقلب مائدة الترف هذه ، ويطوى بساط اللهو واللذة ، فتصبح الأرض مكاناً قفراً لا حياة فيه (١٠) .

الأهمية الحقيقية لمعجزة الكهف :

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (١١) .

ومعنى الآية : «أتستبعدون على قدرة الله الذى خلق السموات والأرض ، أن يرقد بضعة أناس ثلاثة قرون أو أكثر، ثم يوقظهم شباباً أصحاء كما أرقدهم ؟ إن هناك مما خلقنا ما هو أعجب من ذلك» . وهذا الكلام من الله سبحانه وتعالى إن دل على شىء فإنما يدل على القدر الحقيقى من الأهمية التى لقصة أهل الكهف ، فهى معجزة بسيطة من معجزات الله الكثيرة التى تتفاوت فى الأهمية بحسب ما فيها من دلالة على قدرته سبحانه وتعالى ، فَخَلْقُ السموات والأرض أعظم أهمية بلا شك ، وخلق الإنسان ، وتسيير الرياح ، وحركة الأفلاك وغيرها تفوقها فى الأهمية ، فمعجزة أصحاب الكهف ، على الرغم مما تتضمنه من تحد للإنسان بخروجها على مألوف العادة وتعارضها مع قوانين الحياة . فإنها بالقياس إلى قدرة الله التى لا يرد عليها قيد تعد أمراً بسيطاً .

ولكن المفسرين تأثراً منهم بالقصة المسيحية بالغوا فى وصف الأحداث مبالغة غير مقبولة ، فأضافوا من عندياتهم أحداثاً لا علاقة لها بالقصة ، لا من بعيد ولا من قريب ، بأن جعلوا فيها ملكين أحدهما اضطهد الفتية ؛لأنه وثنى ، والآخر كرمهم عند استيقاظهم ؛لأنه مسلم أو مؤمن صالح ، وأضفوا على الفتية أوصافاً غير صحيحة ، فقالوا : إنهم من أشراف الروم ، أو من أبناء ملوكهم ، إلى غير ذلك مما تتضمنه القصة القرآنية . وفاتهم أن الله تعالى لو رأى أن فى ذكر مثل هذه

---

(١٠) المودودى ، المرجع السابق، ص ١٤ .

(١١) سورة الكهف ، الآية ٩ .

التفاصيل فائدة تعود على الناس لذكرها، فقد سبق أن ذكر الملك الذى يأخذ كل سفينة غصباً، وذكر العزير، وذكر فرعون وغيرهم وغيرهم. فلو أنه كان فى القصة ملك لذكره سواء فى أول القصة أو فى آخرها. ولكنه ذكر وبشكل واضح قوم الفتية وذلك فى قوله تعالى:

﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ (١٢).

وقَوْمٌ ــ على مانعلم ــ غَيْرُ ملك. ولعل الذى دعا المفسرين إلى إضافة هذه التفاصيل المناقضة لسياق القصة ولمعانى الكلمات الواردة بها ـ هو اعتقادهم أن المعجزة يجب أن تكون شائعة ومشهورة، ومحل معاينة من جانب عدد كبير من الناس، وبالذات من علية القوم، أو من الحكام حتى تثبت صحتها ويتأكد حدوثها. وهو اعتقاد خاطىء تماماً؛ لأن كثيراً من المعجزات لم تكن كذلك، بل إن بعضها لم يكن محل مشاهدة إلا من عدد قليل من الناس، بل وأحياناً من شخص واحد كما هو الحال فى معجزة إحياء الطير التى ذبحها إبراهيم عليه السلام، ووزع أجزاءها على الجبال ثم أحياها الله، وكمعجزة إماتة الله للعزير ثم إحيائه له هو وحماره، وغير ذلك كثير.

وهذا فى الواقع لا يقلل من شأن المعجزة أو يدعو إلى الشك فيها، فهى تكون عادة موجهة إلى عدد من الناس بقصد إثبات قدرة الله بشكل أو بآخر فى مكان وزمان معينين؛ ذلك لأن أثر المعجزات - وهى بطبيعتها لا تدرك إلا بالحواس- لا يمتد إلى غير الجيل الذى عاينها وتحقق منها، أما الأجيال الأخرى فإن تصديقها بالمعجزة يكون *تابعاً لإيمانها* بالله وبقدرته، فلا يكون وجود *ملك أو أكثر*، من أسباب تصديقها للمعجزة أو إيمانها بها. ولكنها مبالغات المفسرين تأبى إلا أن تُقحم على القصة تفاصيل ليست منها.

موقع الكهف:

وأصحاب الكهف هم الفتية الذين اعتزلوا قومهم، الذين يعبدون مع الله آلهة أخرى، فلجئوا إلى الكهف حتى لا يفتنهم قومهم عن دينهم الذى يقوم على عبادة

---

(١٢) سورة الكهف، الآية ١٥.

الله الواحد الأحد. فسموا بأصحاب الكهف، وكما سبق أن ذكرنا فإن موقع هذا الكهف مختلف عليه، وإن كانت الغالبية من المفسرين والمؤرخين المسلمين، تذهب تأثراً بالروايات المسيحية، إلى القول بأن الكهف يوجد فى مدينة (أفسوس) بآسيا الوسطى. ومن هؤلاء الطبرى وابن كثير والزمخشرى وغيرهم من القدماء، ويقول المسعودى: إن موضع الكهف من أرض الروم فى الشمال، وإن الفتية كانوا من أهل مدينة (أفسيس) من أرض الروم، ويروى فى هذا الصدد ما حكاه أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى، تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندى، عن محمد بن موسى المنجم، حين أنفذه الواثق من (سُرَّمَنْ رأى) إلى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم، وهذا الموضع المعروف من بلاد الروم بـ(حارمى) وذكر المسعودى ما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم، وقتل من كان معه من المسلمين[13].

وذكر ابن كثير فى تفسيره أقوالاً أخرى، منها ما ذكره منسوباً إلى ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة، وهى مدينة على ساحل بحر القلزم [البحر الأحمر] مما يلى الشام. قيل: هى آخر الحجاز وأول الشام، وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا فى السبت[14].

وفى قول آخر للزمخشرى أن موضع الكهف «بين غضبان وأيلة دولة فلسطين» فى حين قال ابن إسحاق هو عند (نينوى)، وقيل: ببلاد البلقاء، هذا فضلاً عما ذكر من أسماء لبلاد أخرى.

وعلى الرغم من تعقيب ابن كثير الذى قال فيه: «والله أعلم بأى البلاد هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه» فإن ذكره للروايات التى تقول: إن أصحاب الكهف كانوا من الروم، وذكره لأسمائهم يوحى للقارىء بأن الكهف كان ببلاد الروم، وهو نفس النهج الذى انتهجه معظم المفسرين المسلمين، الذين ذكروا الروايات المسيحية عن أصحاب الكهف، ليس ذلك وحسب بل إن بعض المحدثين الذين اهتموا بإثبات أن الكهف لم يكن موضعه فى

---

(١٣) مروج الذهب، ج ١، ص ٣٢٣.

(١٤) ابن كثير المرجع السابق، ص ١٣٥ هامش رقم ٢.

(أفسوس) ببلاد الروم، ذكروا روايات لتأييد ما ذهبوا إليه دون أن يفطنوا إلى أن مَن يمعن النظر في هذه الروايات، لن يلبث أن يغلب على ظنه أن الكهف كان ببلاد الروم فعلاً.

من ذلك ما ذكره الأستاذ محمد تيسير ظبيان (١٥) من أن سعيد بن جبير روى عن ابن عباس أنه قال: غزونا مع معاوية المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن الكريم، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم!! فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله تعالى ذلك من هو خير منك، فقال:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٦).

فقال معاوية: «لا أنتهى حتى أعلم علمهم، فبعث رجالاً وقال اذهبوا فادخلوا وانظروا فذهبوا فلما دخلوا بعث الله تعالى عليهم ريحاً فأخرجتهم» والمعروف أن الطريق الذى كان المسلمون يسلكونه عند غزوهم لبلاد الروم لم يكن يمر بالمنطقة التى قيل إن الكهف الحقيقى موجود بها سواء فى أيلة، كما جاء فى قول لابن عباس، أو فى المنطقة التى تم الكشف عن الكهف بها وهى قرب عَمّان، ولذلك فإن الأمر يقتضى إعادة النظر فى مثل هذه الروايات؛ لأن معظمها مختلق وموضوع، فلا يصح الاستناد إليها إلا بعد مراجعتها للكشف عن أوجه التناقض، سواء فيما تضمنته من وقائع، أو فيما بينها وبين غيرها وهو واضح لا يتعذر كشفه على المتخصصين.

ولعلنا ـ وقد أوضحنا فى الفصل السابق أن الفتية لم يكونوا من (أفسوس)، بل ولم يكونوا من الروم أصلاً، وإنما كانوا يهوداً اعتنقوا المسيحية الحقة، وينتمون إلى طائفة الآسينيين وشيعتها الأبيونية أو الفقراء ـ أن نجد فيما قاله ابن عباس وما قاله غيره أيضاً من أن موضع الكهف قرب «أيلة» فى المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن، الصواب الذى يتفق مع وقائع القصة وأحداثها، خاصة أنه قد ورد فى

---

(١٥) المرجع السابق، ص ٤٧.

(١٦) سورة الكهف، الآية ١٨.

بعض أشعار العرب فى الجاهلية إشارات إلى الكهف والرقيم، يفهم منها أنهم كانوا يعرفون موضعهما مما يدل على أنه كان قريباً منهم بحيث يمرون به، أو على الأقل يعرفون المنطقة التى يقع فيها.

من ذلك قول أمية بن أبى الصلت فى شعر له:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم فى الكهف هُمَّدُ

وكان أمية على دين النصارى الحق، يتردد على بِيَعِهِم التى توجد فى المنطقة الواقعة بين الأردن والجزيرة العربية، ولعله سمع بقصة أهل الكهف من بعض النساك الذين كانوا يقيمون فى الصحراء يتعبدون. مثل: الراهب بحيرا، وورقة بن نوفل وغيرهما.

كذلك فقد روى أن الصحابى عبادة بن الصامت بعثه الخليفة أبو بكر رسولاً إلى ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، وأنه مر على مغارة فيها أجسام بالية، ويعتنى بها فى جبل الرقيم على مقربة من طريق القوافل بين الشام والحجاز، وهناك رواية أخرى تدل على أن المسلمين كانوا يعرفون أن الكهف ليس موقعه فى (أفسوس) كما يدعى النصارى. من ذلك ما رواه الرازى من أن القفال حكى عن محمد بن موسى الخوارزمى المنجم: أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الروم وقال: «فوجَّه ملك الروم معى أقواماً إلى الموضع الذى يقال إنهم فيه (يقصد أفسوس) قال: وإن الرجل الموكل بذلك الموضع أفزعنى من الدخول عليهم، قال فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم. قال: وعرفت أنه تمويه واحتيال، وأن الناس قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها من البلى، مثل التلطيخ بالصبر وغيره، ثم قال القفال: والذى عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع أهل الكهف، ولا عبرة لقول أهل الروم: إن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف» ويعلق ظبيان على هذه الرواية قائلاً: «وليت شعرى هل ثمة رواية تاريخية فى العصر الإسلامى المتقدم أقوى من هذه الرواية، لدحض مزاعم القائلين بأن موضع الكهف هو فى (أفسوس) (١٧).

---

(١٧) محمد تيسير ظبيان، أهل الكهف، ص ٤٨.

كذلك جاء فى كتاب (الاعتبار) الذى صنفه الأمير أسامة بن منقذ، أحد قواد صلاح الدين الأيوبى، أنه زار الكهف ويصف ذلك فيقول: «وسيَّر معى نور الدين عين الدولة الياروقى ثلاثين فارساً فاجتزت فى طريقى الكهف والرقيم، فنزلت فيه ودخلت وصليت فى المسجد، ولم أدخل فى ذلك المضيق الذى فيه، فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معى يقال له (برشق) يريد الدخول فى ذلك الشق الضيق قلت له: صل برًّا. قال: لا إله إلا الله أنا حرام حتى لا أدخل فى ذلك الشق الضيق، قلت: أى شىء تقول؟ قال: هذا الموضع ما يدخل فيه ولد زنى، والله يعلم ما أصدق ما قاله، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا، ومعى فى الجند براق الزبيدى ومعه عبد أسود له كثير الصلاة أدق ما يكون من الحال وآدبهم، فجاء إلى ذلك الموضع وحرص بكل حرص على الدخول فما قدر فبكى المسكين وتوجع، وتحسر وعاد بعد الغلبة عن الدخول».

كذلك ذكر الأستاذ (ظبيان)[18] بعضاً مما كتبه عدد من المستشرقين ورجال الآثار عن الكهف والرقيم، منهم المستشرق (كلير مونت جانو) الذى كان قنصلاً لفرنسا فى القدس (فى العهد العثمانى) وزار الموقع القريب من عمان بالأردن فى عام ١٨٦٨ ووافق الجغرافى العربى المقدسى على أن الكهف الموجود به هو *الكهف الوارد ذكره فى الروايات المسيحية والقرآن الكريم*.

ومن الذين زاروا الموضع أيضاً باحث يدعى (ايزيل فيستر) كتب يقول: «وقد دلت الحفريات الأثرية فى قبور الكهف وما يجاورها، على أن الرأى العلمى يسير جنباً إلى جنب مع الوصف القرآنى لأهل الكهف».

وأخيراً وفى عام ١٩٦٢ ميلادية وفق الله تعالى الأستاذ محمد تيسير ظبيان إلى الكشف عن موقع الكهف بالقرب من عمان عاصمة المملكة الأردنية[19]. وقد جاء فى التقرير الذى وضع عن الموقع الذى يوجد فيه الكهف: «إنه يقع على

---

(١٨) المرجع السابق، ص ٤٩.

(١٩) ذكر الأستاذ رفيق وفا الدجانى فى كتابه «اكتشاف أهل الكهف» أنه هو الذى اكتشف الكهف، وأن الدور الذى قام به الأستاذ محمد تيسير الظبيان لا يزيد على مجرد تقديم بعض المساعدات المالية أو العينية باعتباره كان رئيساً لرابطة العلوم الإسلامية، المرجع السابق صفحة ٥٧.

السفح الجنوبي لجبل قليل الارتفاع (يسمى جبل الرقيم) يشرف على مناظر خلابة، وسهول واسعة يمتد البصر عبرها إلى مدى واسع، كما يبعث النظر فيها إلى التأمل والعبادة، إن الموقع منزو عن المارة بعيد عن الطريق المعبدة وعن (طريق عمان ـــ مأدبا ـــ الكرك ـــ العقبة) مسافة ثلاثة كيلومترات. والكهف لا يمكن أن يراه المار من الطريق، ولا أن ينتبه إليه إلا إذا قرب منه ووصله».

ومن أبرز ما تم اكتشافه عقب الحفريات كوة أشبه بالنفق طولها أربعة أمتار، وعرضها ٤٠ ـــ ٦٠ سم وترتفع عمودياً من أسفل الكهف إلى أعلاه، وفوهتها فى أرض المسجد المقام فوق الكهف، وقد عثر على لوحة حجرية سدت بها فوهة الكوة (النفق) وقد أشار إلى هذه الكوة الأمير أسامة بن منقذ فى كتابه (الاعتبار) عندما زار الكهف كما تقدم.

وقد تبين من الكتابات التى وجدت على جدران الكهف، وهى بالخط الكوفى، أن مسجد الكهف الذى أقامه المسلمون تكريماً لأصحاب الكهف قد جددت عمارته فى أزمنة مختلفة إحداها فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان عام ١١٧هـ، والثانية زمن (خمارويه بن أحمد بن طولون) فى عهده الخليفة الموفق العباسى سنة ٣٧٧هـ. والثالثة زمن قايتباى الملك الأشرف سنة ٩٠١هـ. أما الرابعة ففى سنة ٩١٥هـ فى عهد الملك قنصوه الغورى.

وكل هذا يدل على أن المسلمين كانوا يعرفون أن الكهف هو الذى ذكر فى القرآن وليس كهف أفسوس، وفضلاً عن هذه الأدلة التاريخية فإنه بعد كشف الكهف توفر دليل قوى بل وحاسم هو الدليل الجغرافى الخاص بموقع الكهف، ومدى انطباق آية الشروق المذكورة فى سورة الكهف على الموقع المكتشف تماماً، فقد جاء فى الآية الكريمة:

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾(٢٠).

ويقول البيضاوى فى تفسير الآية: «إن الشمس تميل عن الكهف ولا يقع

(٢٠) سورة الكهف، الآية ١٧.

شعاعها عليهم فيؤذيهم ، لأن الكهف كان جنوبيًّا ، إذا غربت تقطعهم وتصرم عنهم يمين الكهف وشماله لقوله : (وهم فى فجوة منه) أى وهم فى متسع من الكهف يعنى وسطه ، حيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس ، وذلك لأن باب الكهف فى مقابلة (بنات نعش) وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه ، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن ، وهو الذى يلى المغرب ، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه ، ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسامهم ويبلى ثيابهم » .

وقد تبين أن هذه الأوصاف تنطبق كل الانطباق على هذا الكهف ، فإنه يتجه إلى الناحية القبلية والشمس تطل عليه حين تشرق ، وتبعث بأشعتها إلى مدخل بابه ، ولكنها لا تنفذ إلى داخله حيث توجد الفجوة التى كان الفتية يقيمون فيها ، ويستمر الوضع كذلك حتى الغروب .

وعقب الكشف عن الكهف الموجود بالقرب من عمان ، والذى تبين أنه هو الكهف الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، يقول الأستاذ محمد تيسير ظبيان (٢١) : « وفى سبيل استيفاء هذا الموضوع الجليل حقه من التمحيص والتدقيق وبالنسبة لما ذهب إليه رجال الكهنوت والمؤرخون المسيحيون ، وشايعهم فى ذلك بعض المفسرين والمؤرخين المسلمين من اعتبار كهف (أفسوس) الموجود فى الأناضول هو كهف الرقيم ، فقد كتبت دائرة الآثار الأردنية رسميًّا إلى سفارة الحكومة التركية فى عمان بتاريخ ١٩٦٢/٧/٢٣ وطلبت تزويدها بكافة المعلومات عن كهف (أفسوس) مع صور هذا الكهف ، وعما إذا كانت قد أجريت حفريات فى الموقع وغير ذلك من المعلومات التى تتعلق بالموقع المذكور» .

وبالإضافة إلى هذا الكتاب الذى تقدمت به دائرة الآثار إلى السفارة التركية فقد كلفت الدائرة (المستر شارلس هورتون) أحد الخبراء الفنيين فى هيئة الأمم المتحدة ، ومن هواة الآثار أن يتوجه إلى (أفسوس) ويزودها بصور ومعلومات عن الكهف المزعوم فى ذلك المكان ، وبالاستناد إلى الصور والبيانات التى تلقتها

---

(٢١) المرجع السابق ، ص٩٦ ، ٩٧ .

الدائرة من السفارة التركية ومن خبير الأمم المتحدة تبين لها ما يلى :

١ ـ إن المسجد الوارد ذكره فى القرآن الكريم لا أثر له فى الكهف الموجود بأفسوس؛ إذ لا يوجد فوقه أى بناء يدل على وجود هذا المسجد ولا يوجد بجواره أو على مقربة منه أى مسجد آخر.

٢ ـ على أثر الحفريات التى أجريت فى كهف (أفسوس) ظهرت فيه مئات المدافن مبنية من الطوب، أما فى الكهف الذى اكتشف قرب عمان فظهرت ثمانية مدافن منقورة فى الصخر وهى بيزنطية استدل عليها من الزخرفة والنقوش التى عثر عليها.

٣ ـ لا يوجد فى كهف (أفسوس) أى نقوش أو كتابات تدل على أنه هو المقصود، فى حين أن جدران كهف الرقيم فى عمان مليئة بالكتابات والنقوش والخطوط اليونانية والكوفية والثمودية.

٤ ـ تبين أن باب كهف (أفسوس) يقع فى الشمال الشرقى، فآية الشروق لا تنطبق عليه، فى حين أن كهف الرقيم فى الجنوب، وآية الشروق الواردة فى القرآن الكريم تنطبق عليه تماماً.

٥ ـ لا توجد فجوة فى كهف (أفسوس) فى حين أنه عثر فى كهف (الرقيم) على الفجوة الوارد ذكرها فى القرآن الكريم (وهم فى فجوة منه).

٦ ـ إن تاريخ أقدم كنيسة فى (أفسوس) يرجع إلى القرن الأول الميلادى، فى حين أن المعبد (المسجد) الذى أقيم فى الكهف على أثر استيقاظ الفتية يرجع تاريخه إلى زمن الإمبراطور (ثيودوسيوس الثانى) أى فى القرن الخامس، وهذا يتفق مع وضع كهف الرقيم، وقد عثر فيه على نقود لهذا الإمبراطور مع قطع من الفخار البيزنطى.

الرقيم :

وقبل أن نبين للقارىء معنى الرقيم وهى الكلمة التى جاءت بعد كلمة الكهف (الكهف والرقيم) نعرض لما أثير حول معنى عبارة (أصحاب الكهف والرقيم) فمن أطرف ما قيل فى هذا الصدد، أن أصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم، أى أن هناك فتية ناموا فى الكهف، وآخرين ناموا فى الرقيم، وهو ما يفهم مما ذكره البعض من أن موضع الكهف غير موضع الرقيم، وحتى بالنسبة

لمن قالوا: إن موضع الكهف هو مدينة أفسوس، فإنهم قالوا أيضاً: إن موضع الرقيم يقع فى بلاد الروم،ولكنه غير موضع الكهف، وعندهم أن أهل الموضعين، الكهف والرقيم كانوا من الروم أيضاً (٢٢).

أما الذين قالوا إن الرقيم يوجد بموضع فى بلاد العرب، فإنهم جعلوا هذا الموضع غير الموضع الذى يوجد فيه الكهف، ومن ذلك ما قاله سيد مظفر الدين نادفى (٢٣): إن الرقيم كانت تسمى شيلوه بالعبرية وبطرا باليونانية، وكانت قصبة شمال الجزيرة العربية تحت حكم المدينيين أولاً، كما ظلت كذلك فى عهد النبطيين الذين جاءوا بعدهم.

هذا فيما يتعلق بموضع الرقيم، أما فيما يتعلق بمعناه، فإن هناك أيضاً خلافاً بين المفسرين المسلمين حوله، فمنهم من قال إنه الوادى الذى فيه كهفهم، ومنهم من قال إنه القرية التى يقع الكهف بجوارها، ومنه من قال إنه الجبل الذى فيه الكهف، ومنهم من قال: «الرقيم» لوح من الحجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف، وقالوا: «الرقيم» الكتاب، ثم قرءوا: (كتاب مرقوم). ويقول ابن كثير: وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير الطبرى، قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل، وللمجروح: جريح.

وعلى الرغم من وجاهة هذا التخريج فإننا نرى أن ما ذهب إليه الذين قالوا ن الرقيم هو المكان الذى وجد فيه الكهف، سواء كان الوادى أو القرية أو المدينة أو الجبل، هو الأصح، وليس اللوح من الحجارة الذى كتب عليه موضوع الفتية وأسماؤهم وغير ذلك، وهو ما ذهب إليه العلامة أبو الكلام آزاد فى تفسيره الذى عنوانه «ترجمان القرآن» الذى وصل فيه إلى سورة الكهف، فهو يرى أن هذا المكان هو نفسه الذى ذكر فى التوراة باسم «راقم»، وقال إنه الاسم القديم لـ(بيرا) مركز الأنباط التاريخى الشهير، وهذا الموقع قريب من (إيلات) التى قال ابن عباس إن الكهف قريب منها، غير أن المودودى يرى أن راقم ذكرت فى

---

(٢٢) المسعودى، المرجع السابق، ٢١٤.

(٢٣) التاريخ الجغرافى للقرآن، ص ٧٤.

التوراة ضمن ميراث سبط بنيامين ، وأن نفس السفر ــ سفر يشوع ــ يقول إن ميراث هذا السبط كان يقع غرب نهر الأردن و بحر لوط ، حيث لا يمكن أن تكون فيه « بيرا » فإن أطلال « بيرا » توجد فى المنطقة التى يفصل بينها وبين ميراث سبط بنيامين منطقة يهودا وأدومية بأكملها ، وعلى هذا الأساس تردد علماء الآثار فى العصر الحاضر كثيراً فى التسليم بأن « بيرا » و« راقم » مكان واحد ، وعليه فقط ذهب المودودى إلى القول (٢٤) بأن « الرقيم » تعنى « النقش » أو « الكتاب » الذى نقشت فيه أو كتبت فيه أسماء الفتية وقصتهم .

ومع ذلك فإن اسم « راقم » ورد فى الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر العدد ضمن أسماء أربعة من ملوك مدين وهم : أوى وراقم وصور وحور. وذلك بمناسبة زحف بنى إسرائيل على مدين بأمر موسى والرب انتقاماً من أهلها ، بسبب ما كان من إغواء بنات مدين للإسرائيليين ، وجعلهم يتعلقون بعبادة بعلهم ، ويقول الأستاذ محمد عزة دروزه (٢٥) : « ولعل الأسماء أسماء رؤساء مدن واقعة فى منطقة مدين ، والمعروف أن مدين كانت تقع فى شرق البحر الأحمر فى منطقة العقبة وكانت تمتد إلى المنطقة التى كانت تسمى « موآب » ، والتى أصبحت فيما بعد دولة الأنباط ، حيث وجدت « بيرا » أو بطرا وهو ما نعتقد أن « أبو الكلام » آزاد كان يقصدها حين ذكر بيرا ؛ لأن بطرا أو البتراء كانت مركز الأنباط ، ولعله قرأها خطأ بالحروف الإفرنجية ، وإن كانت قد ذكرت هكذا ، أى « بيرا » فيما كتبه (ديورانت) عن هروب اليهود إلى شرق الأردن واستقرارهم فى « بيرا » . وقد أشرنا حالاً إلى ما ذكره سيد مظفر نادفى ، من أن الرقيم كانت تسمى « شيلوه » بالعبرية وبطرا باليونانية وكانت قصبة بلاد النبط .

كذلك من المعروف أن المدن كانت ولا تزال تسمى فى كثير من الأحيان بأسماء الملوك والحكام والقواد العظام ، مثل الإسكندرية وواشنجطن وغيرهما. وهكذا سميت راقم باسم ملكها أو حاكمها المسمى (راقم) الذى ورد اسمه أيضاً بين أسماء المدن التى ذكرها الأصحاح الثالث عشر من سفر يوشع ، وفى الأصحاحات التالية له إلى الأصحاح العشرين .

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢٥) تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى بلاد الشام ، ص ١٦٣ .

غير أننا لا نتفق مع الأستاذ سيد مظفر فيما ذهب إليه من أن الرقيم كانت تسمى شيلوه بالعبرية، وبطرا باليونانية حيث إنه جاء فى الأصحاح الحادى والعشرين من سفر يوشع أن شيلوه كانت فى أرض كنعان حيث يقول: «ثم تقدم رؤساء آباء اللاويين إلى ألعازار الكاهن وإلى يشوع بن نون وإلى رؤساء آباء أسباط بنى إسرائيل وكلموهم فى شيلوه فى أرض كنعان، وكنعان هى الجزء من فلسطين المجاور للحدود المصرية ويفصلها عن آدوم وموآب حيث قامت دولة المدينيين ثم النبط بحر لوط أو البحر الميت وبرية صين.

وكنا قد ذكرنا فى الفصل السابق أن موطن قوم أصحاب الكهف وهم شيعة الأبيونيين أو الزهاد (الفقراء) كما أطلق عليهم (جيبون) كان فى (بيرا) شرقى الأردن وهو ما رجحه أبو الكلام آزاد، غير أن موضع الاعتراض هو قوله إن «بيرا» هى «راقم» التى قيل إنها كانت فى ميراث سبط بنيامين الذى يقع غربى الأردن، وهو اجتهاد منه لا يلزم أن يكون مصيباً فيه، ومع ذلك فقد تبين من الكشف الذى اشترك فيه المرحوم محمد تيسير ظبيان فى عام ١٩٦١ أن المنطقة التى يوجد فيها الكهف الذى كشف عنه وتبين أنه الكهف الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم تسمى الرجيب وهو تصحيف للاسم القديم «الرقيم» حيث إن البدو ينطقونه هكذا «الرجيب» لأنهم كما هو معروف ينطقون «القاف جيماً.

وهناك أكثر من دليل على أن العرب عرفوا الرقيم كمكان، وقد سبق أن ذكرنا رواية الصحابى عبادة بن الصامت التى قال فيها: إنه مر على مغارة فيها أجسام غير بالية ويعتنى بها فى جبل (الرقيم) على مقربة من طريق القوافل بين الشام والحجاز، وكذلك قصة الصحابى سعيد بن عامر الذى جعله الخليفة عمر بن الخطاب على رأس جيش أنفذه إلى الشام، ويروى هذا الصحابى أنه أثناء سيره بالجيش ظن أنه ضل الطريق إلى وجهته، ولكنه ما لبث أن تبين طريقه عندما طلعت الشمس، ويقول: «فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادى وحققت تلك الأرض والجبل وإذا به جبل «الرقيم» فلما رأيته عرفته، فرفعت صوتى بالتكبير وقلت: الله أكبر، وكبر المسلمون لتكبيرى وقالوا: ما هذا الذى رأيته يا بن عامر؟ فقلت: وصلنا بلاد الشام وهذا جبل الرقيم، فقالوا: يا سعيد (وما الرقيم؟) فحدثتهم بحديث الرقيم.. قال سعيد: فعجبوا من ذلك ثم أقبلت بهم إلى الغار

(الكهف) فصلوا فيه، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان (٢٦) .

ولعل هذه الرواية تكون أصح من الروايات التى ذكرت أن الرقيم يقع على طريق التجارة بين الجزيرة العربية والشام؛ وذلك لأنها تحدد موقع الرقيم بأنه قرب عمان حيث كانت الجيوش الإسلامية بقيادة الفضل بن العباس والزبير بن العوام، قد وجهت بأمر من أبى عبيدة بن الجراح قائد جيوش الشام لفتح عمان، حيث التقت مع الجيش الذى كان يقوده سعيد بن عامر.

كذلك أشار أبو عبد الله البشارى المقدسى إلى الموقع المسمى بالرقيم، مستشهداً بما ورد فى شعر كثير عزة فى قصيدته التى بشر فيها يزيد بن عبد الملك بالخلافة قال :

أمير المؤمنين إليك نهوى ... على البخت الصلادم والعجوم
إذا اتَّخذَت وجوه القوم نصباً ... أجيج الواهجات من السموم
فكم غادرن دونك من جهيض ... ومن فعنل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيدا ... بأكتاف الموقر والرقيم
تهنئه الوفود إذا أتوه ... بنصر الله والملك العظيم

ويقول المرحوم الأستاذ محمد تيسير ظبيان (٢٧) إن الموقر والرقيم كليهما على مقربة من عمان وفيهما قصور أموية ورومية، كما توجد أنقاض قصور أموية أخرى فى تلك المنطقة، ويضيف إلى ذلك قوله : ويقول الأستاذ العابدى فى كتابه «الآثار الإسلامية» إن المقدسى المذكور بحث عن مكان قريب من قصر الموقر المعروف إلى أن اهتدى إلى قرية الرجيب (الرقيم) وقال إنها محرفة عن الرقيم، ولا سيما أن فى الغرب منها كهوفاً تسترعى النظر» .

وجاء فى كتاب (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) : والرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير، ويزعمون أن من دخل من الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير. ولكن من يقرأ ما ذكره المقدسى يلاحظ أنه لم يقصد أن يقول إن هذه المغارة هى الكهف الذى لجأ إليه الفتية

(٢٦) الواقدى، فتوح الشام، ص ٧١.
(٢٧) المرجع السابق، ص ١٠٤.

وناموا فيه ؛ لأنه يروى قصة أخرى عن ثلاثة نفر الذين تحدث الرسول ﷺ عنهم (٢٨) .

ومع ذلك فإن ماقاله المقدسى عن المسافة بين الرقيم وعمان صحيح ، وذلك بعكس البطراء أو (بيرا) التى تزيد المسافة بينها وبين عمان على ذلك كثيراً ، ولما كان المقدسى جغرافيًا معروفـاً ، فقد أخذ عنه من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين ، ولا سيما السائح الهروى الذى أثبت رأى المقدسى فى كتابه .

وممن أيدوا هذا الرأى ياقوت الحموى فى كتابه (معجم البلدان) قال : عمان بلد فى أطراف الشام ، وكانت قصبة أرض البلقاء وبالقرب منها الكهف والرقيم .

ويقول الإصطخرى : « الرقيم مدينة قرب البلقاء ، وهى صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها فى صخر كأنها حجر واحد » .

ولجورجى زيدان (٢٩) رأى مختلف عمن سبقوه ، فهويقول : إن العرب عندما شاهدوا

---

(٢٨) وقصة هؤلاء النفر كما رواها مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدىّ فسقيتهما قبل بَنىَّ ، وإنه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمىَّ ، فلم يزل دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء . وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى أتيها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة ففرج لهم ، وقال الآخر : إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها ، فجاءنى فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ، قلت اذهب إلى تلك البقر ورعائها فأخذه فذهب به . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى ففرج الله ما بقى . وهى كما نرى غير قصة أهل الكهف .

(٢٩) العرب قبل الإسلام ، ص ٨٤ .

آثار (بطرا) عاصمة الأنباط سموها الرقيم وهو، كما يقول، تعريب أحد أسمائها اليونانية؛ لأن اليونانيين كانوا يسمونها أيضاً أركه Arkae فحرفه العرب وقالوا الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم خزنة فرعون على الخصوص، واشتهر هذا المكان فى دولة بنى أمية، وكان ينزله الخلفاء وفى جملتهم يزيد بن عبد الملك، ونظراً لما شاهدوه من الأبنية والأساطين والنقوش، زعموا أنه المكان الذى كان فيه أهل الكهف، ورووا عنه أخباراً ذكرها المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم).

غير أننا نستبعد ما ذكره جورجى زيدان من أن خلفاء بنى أمية أقاموا مساكن لهم فى هذا المكان (البتراء) وإنما الصحيح أنهم أقاموا قصورهم فى المكان القريب من عمان، والمسمى بوادى الرقيم، حيث تم الكشف عن بقايا تلك القصور.

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن جورجى زيدان لم يشأ أن يشكك فى القصة المسيحية التى ذكرت أن الكهف يوجد فى أفسوس، ولذلك لجأ إلى التشكيك فى الروايات الإسلامية.

وبغض النظر عن قرب أو بعد قرية الرقيم التى تحدث عنها الجغرافيون العرب وغيرهم، من موقع الكهف الذى كشف عنه قرب عمان، فإن ما قالوه يدل على أن الرقيم ليس حجراً عليه نقش ولا كتاب، وإنما هو مكان سواء كان جبلاً أم قرية أم مدينة، ولا نعتقد فى صواب ما ذهب إليه جورجى زيدان من أن الرقيم تحريف للكلمة اليونانية Arkae نظراً للاختلاف الواضح بين الكلمتين، فما هى العلاقة أو ما هو وجه الشبه بين أركى ورقيم؟

وهناك فضلاً عن كل ما تقدم دليل آخر يمكن استخلاصه من الملابسات والظروف التى أحاطت بلجوء الفتية إلى الكهف، والتى لم تكن تسمح أو تستلزم نقش أسمائهم فى لوح، أو كتابتها فى كتاب، فهم على عكس ما جاء فى الروايات المسيحية لم يكونوا مطلوبين من جانب الحكومة فى ذلك الوقت.

ولعل هذا يبدو بوضوح من القصة القرآنية، حيث لم يرد فيها ذكر لملك يطلبهم أو حكومة تطاردهم، وإنما كان لجوءهم إلى الكهف بمحض إرادتهم، فهم كما جاء ذكرهم فى القرآن الكريم:

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (٣٠)

أى أن ما فعلوه هو اعتزال لقومهم الذين يعبدون آلهة أخرى مع الله ، ولا نظن أن الاعتزال يتطلب نقش أسماء المعتزلين فى قائمة ، ووضعها على باب المكان الذى اعتزلوا فيه ، أو إدراج أسمائهم فى كتاب ووضعه فى صندوق من النحاس ، لعل الأجيال القادمة تعثر عليه وتطلع على ما فيه ، وأى شيء هذا الذى ستجده فيه ؟! أسماء جماعة رفضت أن تشرك بالله ، وماذا فى ذلك ، وقد كان الشرك متفشياً ؟ ولقد كان هناك من يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ومع ذلك لم يكتبوا قصتهم فى كتاب !! ولكنها القصة المسيحية أوحت للمفسرين بذلك فغفلوا عن المعانى الواضحة فى القرآن .

فإذا قيل وكيف عرفهم الناس وتأكدوا من شخصياتهم ؟ قلنا لهم إن هذه المعرفة وهذا التأكيد ليسا واردين بالمرة ، سواء عند اللجوء إلى الكهف ، أو عند الاستيقاظ فيه ، فهم عندما أووا إليه لم يكن لهم أسر ينتمون إليها ، فهم كما سبق أن قلنا من طائفة الآسيين التى تفرعت عنها شيعة الأبيونيين أو الفقراء ، وكان المنتمون إلى هذه الشيعة وتلك الطائفة من الشباب الذين يتركون أسرهم للتفرغ للعبادة والتطهر ، ولا يقربون النساء ، ولا يتعاملون معهن ، وكانوا يقيمون ـ كما كشفت لفائف البحر الميت ـ فى معسكرات فى الصحراء ينامون فى الخيام أو فى الكهوف ، وهم عندما أووا إلى الكهف وأرقدهم الله لم يكن أحد يعتقد أنهم سوف يبعثون من نومهم ، فهم إذا كانوا قد ماتوا فإن التقاليد لم تكن تتطلب نقش أسماء الموتى فى لوحات ، وإذا كانوا لم يموتوا ، ويعلم الناس ذلك ، فإننا لا نعتقد أنه وجد قوم ينقشون أسماء كل من ينام منهم تحسباً لما قد يصيبه فى نومه .

ليس ذلك وحسب ، بل إن الفتية عندما أووا إلى الكهف لم يكونوا يعتقدون أنهم سوف ينامون كل هذا الوقت ؛ لأن الله شاء أن يكونوا موضوعاً لمعجزة من معجزاته ، كذلك لم يكونوا يعتقدون أنهم سوف يقضون نحبهم فى الكهف بعد أن

(٣٠) سورة الكهف ، الآية ١٦ .

يمضى عليهم فيه فترة من الزمن طالت او قصرت ، والدليل على هذا أنهم حملوا معهم نقوداً ، ولا يمكن أن نتصور أن من يلجأ إلى الكهف ليموت فيه جوعاً وعطشاً يحمل معه نقوداً ، فهم إذاً لم يلجئوا إلى الكهف إلا من أجل أن يمكثوا فيه ريثما يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه من كرب وبلاء ، وهذا لا يحتاج إلى أن يكتبوا قصتهم أو ينقشوا أسماءهم ، أو أن يفعل غيرهم هذا نيابة عنهم ؛ لأنه كما هو واضح من سير الأحداث لم يكن هناك من يعرف شيئاً مما فعلوه .

كذلك فإن الفكرة التى كانت شائعة يومئذ أن ملكوت الله آت ، وعلى المؤمنين أن يستعدوا له ، أى أن القيامة قائمة والساعة آتية لا ريب فيها ، وهو ما كان المسيح عليه السلام يردده وما فهمه الناس ، بل أقرب الناس إليه وهم الحواريون ، على أنه يعنى أن القيامة ستقوم بعد أيام أو شهور أو سنوات قليلة . ويقول شارل جنيبير(٣١) إنهم لم يشعروا البتة بالحاجة إلى تدوين ذكرياتهم أو رسم شعورهم عن المسيح ، إنهم لم يفكرو فى أن يكتبوا إلى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأتى . فالعالم ــ عالم الظلم والخطايا ولذات الجسد ــ كان فى عقيدتهم ، وشيك النهاية وكانوا يترقبون بين لحظة وأخرى توقف الحياة البشرية ، وظهور المسيح المنتصر فى السماء ، وكان هذا هو شعور المؤمنين عامة ومنهم الفتية .

وهكذا يتبين لنا أنــه لم يكن هناك لزوم لنقش أسمائهم ، عندما أووا إلى الكهف ، ليس ذلك وحسب ، بل إنه تبين أيضاً من دراسة الفترة التى وقعت فيها الحادثة ، أن عشرات أو مئات غير هذا العدد من الفتية أووا إلى الكهوف فراراً من الظلم ، وهرباً من الاضطهاد ، سواء أكانوا على حق أم على ضلال ، فلماذا يكون هؤلاء الفتية دون غيرهم هم الذين تنقش أسماؤهم على لوح أو كتاب !!

وكما سبق أن قلنا فإن القصة المسيحية قد تسلطت على عقول المفسرين المسلمين ، فجعلتهم يغفلون عن كثير من الحقائق التى فى القصة القرآنية ، سواء ما كان منها صريحاً أم ما كان ضمنيًّا ، من ذلك أنهم وقد صدقوا أن الفتية كانوا من الشرفاء أو من أقارب الحكام ــ كما تقول إحدى الروايات المسيحية ــ لم يتسرب إليهم الشك فى حقيقة وجود الرقيم ، بمعنى اللوح الذى نقشت عليه أسماء

---

(٣١) المرجع السابق ، صفحة ١٢٨ .

الفتية، فى حين أن الآيات تشير فى ضوح إلى أن الفتية كانوا من عامة الناس الذين لا حول لهم ولا طول، كما أنهم كانوا من طائفة لا تؤمن بالحرب ولا تميل إلى العنف أو استخدام القوة، ولذلك لجئوا إلى الكهف داعين الله أن يؤتيهم من لدنه رحمة، وأن يهيىء لهم من أمرهم رشداً، وقولهم بعضهم لبعض: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) وهم فى هذه الحال يقفون موقفاً مغايراً لموقف قوم آخرين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فلم يأبهوا لهم، وتمسكوا بدينهم وجاهدوا فى سبيله، فكأن الله سبحانه وتعالى يعرض علينا أساليب مختلفة يتخذها المؤمنون إزاء الكفار وأعداء الحق.

ولقد رأينا كيف كانت طائفة الآسينيين لا تميل إلى العنف أو القوة، وتجنح إلى الهدوء والسلام، وتكره صناعة السلاح، ولا تميل إلى استخدامه، بعكس الطوائف والشيع اليهودية الأخرى.

فإن قيل: إن هذه الأسماء ربما تكون قد نقشت بعد استيقاظهم، فإن لنا أن نتساءل بدورنا عمن يكون قد نقشها؟ هل هم رجل الكنيسة فى (أفسوس)؟ وقد تبين لنا بما لا يدع مجالاً لأى شك، أن كهفهم لم يكن فى هذه المدينة، كذلك سبق لنا أن تساءلنا عن اللوح المزعوم الذى قيل: إن أسماءهم كانت منقوشة عليه، ولماذا لم تحتفظ به الكنيسة على الرغم من قرب العهد به بالمقارنة، مع ما تحتفظ به هذه الكنيسة من آثار تزعم أنها مقدسة والله أعلم بحقيقتها؟ أم يقولون: إن الذين نقشوا أسماءهم هم قومهم الذين بُعثوا بينهم فى المكان الذى يقع قرب عمان، حيث الكهف والرقيم، فنقول لهم: إن هذا أيضاً مستبعد لأن الفتية حين بُعثوا لم يكن هؤلاء القوم مسلمين، كما سوف يتبين، وإنما كانوا نصارى على مذهب (بولس) وما كان فى صالحهم أن يثبتوا هذه المعجزة التى كان أبطالها مؤمنين بالله الواحد، لا يشركون معه لا المسيح ولا مريم، ولا يقولون إن الأول ابن الله وإن الثانية زوجته وأم ابنه، فهم لذلك لم يأخذوا من المعجزة إلا جانباً واحداً منها فقط، وهو حقيقة البعث، ويؤيد هذا الرأى ما وقع فيه هؤلاء من تضارب حول عدد الفتية أكانوا ثلاثة أم خمسة أم سبعة؟ وفى روايات أخرى قال بعضهم: إنهم كانوا ثمانية، وقال البعض: تسعة، وقال البعض الثالث: إنهم كانوا اثنى عشر أو ثلاثة عشر. فما جدوى الرقيم إذن إذا كانت

أسماؤهم قد نقشت عليه أو كتبت فيه ؟!

والغريب فى الأمر أن بعض المفسرين المسلمين وقعوا فى التناقض ، فبينما هم يفسرون *الرقيم* على *أنه اللوح الذى نقشت عليه أسماء الفتية* ، أو الكتاب *الذى* أدرجت فيه أسماؤهم وكتبت قصتهم ، فإنهم مع ذلك يفسرون قوله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ (٣٢) .

على أن الله سبحانه أراد أن يعلم ما إذا كان المختلفون فى أصحاب الكهف ــ وهم فريقان ــ استطاعوا أن يحصوا ، أى يضبطوا المدة التى لبثوها فى الكهف ، ومقتضى هذا أنهم لو كانوا قد نقشوا أسماءهم وقصتهم على لوح أو فى كتاب ، كما يقول المفسرون ، فمعنى ذلك أن الفريقين (الحزبين) لن يعجزوا عن إحصاء مدة لبثهم فى الكهف ، ليس ذلك وحسب ، بل إن قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٣٣) .

هذا القول يدل على أن عدد الفتية لم يكن معروفاً ، ومن ثم فإن أسماءهم التى قيل إنها نقشت فى اللوح (الرقيم) ليست صحيحة ، على الأقل من ناحية العدد . فلو أنه كان هناك سجلٌ نقشت فيه أسماؤهم لما اختلط الأمر على الناس ، وما أختلفوا حول عددهم ، ولذلك نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن سؤال أهل الكتاب فى أصحاب الكهف ؛ لأنهم لا يعلمون عنهم شيئاً ، وما يقولونه فى هذا الصدد ما هو إلا رجم بالغيب . وقد استثنى سبحانه من أهل الكتاب عدداً قليلاً هم الذين يعلمون العدد الصحيح للفتية (ما يعلمهم إلا قليل) .

---

(٣٢) سورة الكهف ، الآيات ١١ ، ١٢ .

(٣٣) سورة الكهف ، الآية ٢٢ .

الحزبان المختلفان فى أهل الكهف:

هذا بالنسبة للكهف والرقيم، أما فيما يتعلق بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾

فإن المفسرين اختلفوا فى معناه فالقرطبى يقول [٣٥]: «الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا أنهم لبثوا قليلاً، والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعِثَ الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا فى مدة أصحاب الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين، وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية».

فى حين يذهب الزمخشرى [٣٦] إلى القول بأن الحزبين يقصد بهما المختلفون منهم (أى من أصحاب الكهف أنفسهم) فى مدة لبثهم فى الكهف، لأنهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك، وذلك لقوله:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [٣٧].

وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول.

وفى الجلالين: قال قائل منهم أى واحد منهم كم لبثتم. قالوا لبثنا: أى قال الستة الباقون مجيبين له، لبثنا إلخ. وقوله: قالوا ربكم. أى قال بعض الستة المجيبين أولاً لبعضهم بدليل الخطاب فى (رَبُّكم)، وإلا لو كان القائل جميعهم لقالوا ربنا.

أما النسفى، فإنه يقول فى تفسيره على هامش الخازن [٣٨] إن المقصود: المختلفون

(٣٤) سورة الكهف، الآية ١٢.

(٣٥) المرجع السابق، جـ١٠، ص٣٦٤.

(٣٦) الكشاف، ج٢، ص٤٧٤.

(٣٧) سورة الكهف، الآية ١٩.

(٣٨) ص١٨٥.

من الفتية فى مدة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك،وذلك قوله: (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا بأن لبثهم قد تطاول.

والذى نراه أن المقصود بالحزبين اليهود والنصارى؛ لأن الفتية كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية من اليهود، والدليل على هذا، فضلاً عما سبق أن سقناه من أدلة، أن أحبار اليهود اعتنوا بحفظ خبرهم وأمرهم، وأنهم هم الذين حرضوا قريشاً على توجيه السؤال الخاص بأصحاب الكهف إلى الرسول ﷺ، فلو أنهم كانوا يجهلون خبرهم ما سألوا عنهم، فلا شك فى أنهم كانوا يعلمون شيئاً عنهم، فالثابت أن يهود المدينة أصلهم من سكان فلسطين الذين هاجروا منها إلى الجزيرة العربية، فجاءوا محملين بتراثهم وتاريخهم، وكأن الله أراد أن يفضحهم عندما نصحوا المشركين بتوجيه هذا السؤال إلى الرسول ﷺ، فكشفوا بذلك عن علمهم بالحادثة، وأنها كانت تخص بعضاً منهم؛ لأن المعروف أن اليهود-لشدة أنانيتهم وغرورهم الناشىء عن اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار- لا يهتمون بتاريخ الشعوب والجماعات الأخرى إلا بقدر ما يكون له من علاقة بتاريخهم، وكذلك النصارى الذين استعار أحد أساقفتهم القصة، ودسها فى تراث الكنيسة على أنها وقعت فى (أفسوس) وأن أبطالها كانوا من أتباع المسيح، فإن هذا الاهتمام من جانبهم يدل على أن أحداث القصة وقعت فى فترة من التاريخ، كانت المسيحية فيها لا تزال مختلطة باليهودية.

أما بشأن الاختلاف الذى وقع بين الفتية حول مدة لبثهم فى الكهف، فلا يصح أن يؤدى إلى النظر إليهم كحزبين أو كفريقين مختلفين، ولعل هذا ما جعل الزمخشرى، فى رأى آخر له يقول: (أو أى الحزبين المختلفين من غيرهم) أى من غير أصحاب الكهف، وهو ما قاله النسفى أيضاً، وكان القرطبى قد سبق إلى القول بأن الآراء التى قيلت فى هذا الصدد لا ترتبط بألفاظ الآية.

من هم قوم أصحاب الكهف؟

أما قوله تعالى:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا

مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ (٣٩).

فقد فسرها معظم المفسرين على أن الفتية بعد أن قوى الله تعالى قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان، والنعيم والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام (إذ قاموا) بين يدى الجبار دقيانوس من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم، إلى آخر ما جاء فى (الكشاف) على لسان الزمخشرى، ومثل ذلك على لسان ابن كثير وغيره، وهو كلام يستند إلى قصة النيام السبعة المسيحية، وقد أثبتنا عدم صحته، والحقيقة أن الفتية لم يرفضوا عبادة الصنم كما تقول القصة المسيحية، ولكنهم رفضوا عبادة (يهوا) إله اليهود الذين وصفوه بما أملته عليهم أهواؤهم، وكان المؤمنون بعيسى بشراً ونبيًّا من اليهود، قد تعرضوا فى الفترة التى وقعت فيها حادثة الكهف لاضطهاد شديد من جانب اليهود، الذين أصروا على البقاء على عبادتهم لـ(يهوا) وأنكروا نبوة المسيح؛ لأنه لم يأت بالصورة التى كانوا قد رسموها له فى خيالهم كنبى من طراز موسى وداود وسليمان، محارباً يقودهم إلى النصر على أعدائهم.

فلما رفضت شيعة (الأبيونيين) التى ينتمى إليها الفتية عبادة (يهوا) طردوهم وطاردوهم إلى ما وراء نهر الأردن، وهكذا قال الفتية: (ربنا ربُّ السمٰوات والأرض) أى رب الجميع، وليس كما يريد اليهود، ربهم وحدهم من دون الأمميين.

أما عن قومهم، أى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية على مذهب (بولس) فقاموا بتأليه عيسى وأمه، فإنهم يقولون عنهم:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ (٤٠).

وهذا خلاف ما ذهب إليه المفسرون من أن المقصود بالآلهة: الأوثان التى كان يعبدها قوم الفتية، وواضح تأثرهم بالقصة المسيحية التى تقول: إن الفتية كانوا

(٣٩) سورة الكهف، الآية ١٤.

(٤٠) سورة الكهف، الآية ١٥.

من الروم ويقيمون فى أفسوس. فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك، فقد كانوا يهودا اعتنقوا المسيحية الصحيحة.

ومما يسترعى الانتباه أن المصدر الوحيد الذى أخذ بهذه النظرية هو تفسير المنتخب الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر، وقد وضعته لجنة من علماء المسلمين، فقد جاء فى حواشى التفسير أنه من المحتمل أن يكون هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف، واعتصموا به من اليهود، إلا أن الملاحظ أن واضعى التفسير لم يشاءوا أن يقطعوا برأى فى الأمر، فلجئوا إلى الاحتمال بقولهم (إنه من المحتمل) ثم ذكروا فترتين تاريخيتين تعرض فيهما اليهود للاضطهاد: الأولى فى عهد الملك السلوقى (انتيوخوس)(٤١) الرابع الملقب بنابيفانيس حوالى (١٧٦ ـ ٨٤ ق.م) والثانية فى عهد الإمبراطور الرومانى هاردیانوس (١١٧ ـ ١٣٨ ميلادية). ولكن الذى فات اللجنة إدراكه أن الفتية، وإن كانوا يهوداً أصلاً، إلا أنهم أصبحوا نصارى يؤمنون بعيسى عليه السلام نبيًّا رسولاً. غير أن اللجنة، وقد ذكرت فترتين تاريخيتين قالت: إنه يحتمل أن تكون حادثة الكهف قد وقعت فى إحداهما، الأولى سابقة على الميلاد، والثانية بعد الميلاد، فإنها لم تأخذ فى حسابها أن يكون هؤلاء اليهود قد اعتنقوا دين المسيح. غير أن إعمال النظر فيما ورد فى الآيات، وفيما كان عليه اليهود فى هذه الفترة أو تلك، كان من شأنه أن يكشف عن أن اليهود كان مغضوباً عليهم من الله تعالى، وهو ما عبر عنه المسيح عليه السلام فى خطبه وعظاته، إذ لعنهم وتوعدهم بالعذاب.

ومما لا شك فيه أن المرحوم محمد تيسير ظبيان لم يفطن إلى هذا الأمر، فبادر إلى تخطئة اللجنة استناداً إلى دليل واه: هو أن اليهود أنفسهم لم يشيروا إلى قصة أصحاب الكهف فى كتبهم، وفاته أن الذين حرضوا مشركى قريش على سؤال الرسول ﷺ عن هذه القصة هم يهود المدينة، الذين كانوا ـ ولا شك ـ يعلمون عنها

(٤١) كان (انتيخوس) الثالث هذا، أو انطيخوس كما جاء فى بعض المصادر، على حد ما روته الإصحاحات اليهودية من سفر المكابيين الأول ومن سفر المكابيين الثانى، قد أوقع بهم المذابح الهائلة، ونهب أموالهم وهدم بيوتهم، وأقام المذابح الوثنية فى مختلف الأنحاء، إلا أنه لم يكرههم على عبادة آلهة من بينها الله تعالى، الذى استثناه الفتية عندما قالوا: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) فالله لم يكن قط من بين ما يعبده اليونان من أوثان.

الكثير الذى قصدوا أن يدحضوا به ما سوف يقوله الرسول ﷺ لو أنه كان غير صحيح ، فلما أفحمهم بخبر السماء :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ (٤٢) .

لاذوا بالصمت ، ولو أن المرحوم محمد تيسير ظبيان تنبه إلى هذه الواقعة لأدرك على الفور أن اليهود ـ وإن كانوا على علم بالقصة علماً يتناقلونه شفاهة ـ فإنهم لم يضمنوه كتبهم لكراهيتهم لأصحاب الكهف الذين كانوا من شيعة يهودية آمنت بالمسيح البشر الرسول ، الذى أنكروه وسعوا فى هلاكه .

وقول الفتية (هؤلاء قومنا) يفهم منه أنه لم يكن هناك ملك وثنى يريد إكراههم على عبادته ، أو السجود لتمثاله ، وإنما يدل على أن هناك قوم الفتية الذين اتخذوا آلهة مع الله ، وهو أمر يصطدم بعقيدة الفتية ، التى تقوم على عبادة الله الواحد لا يشركون به أحداً ، فليس هناك إذن مطاردة من ملك ، أو ملاحقة من أعوانه ، وجنوده لهؤلاء الفتية ، الذين كانوا يقيمون مع قومهم فى المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن ، والتى كانت تخضع لحكم ملك الأنبا ط ، وهو ـ وإن كان ملكاً وثنيًّا ـ لم يكن يفرض على من يقيمون فى مملكته أن يعيدوا آلهته ، والدليل على ذلك أن اليهود ، من بقى منهم على يهوديته ، ومن آمن بالمسيح بشراً رسولاً ، ثم بعد ذلك من آمن به ابنا لله وإلهاً ـ كانوا جميعاً يعيشون فى دمشق التى كانت خاضعة لحكم الأنباط ، وفى غيرها من المدن الواقعة شرقى نهر الأردن دون أن يقع عليهم أى ضغط ، أو يوجه إليهم أى عمل من شأنه إكراههم على تغيير عقيدتهم ويروى فى هذا الصدد أن (بولس) أول من وضع عقيدة التثليث هاله ـ وقت أن كان لا يزال يهوديًّا ـ أن يلقى اليهود المسيحيون الحماية فى دمشق تحت حكم الأنباط ، فطلب الإذن من رؤساء اليهود فى أورشليم بالسفر إلى دمشق للتنكيل بهم وإعادتهم إلى أورشليم لمحاكمتهم ، ثم حدث له ما حدث مما جاء فى الروايات المختلفة من أنه سمع صوت يسوع (الرب) وهو فى طريقه إلى دمشق يعاتبه لموقفه منه ، واضطهاده له ، ويدعوه إلى الإيمان به ، فانقلب على أثر ذلك مسيحيًّا ، ثم سافر فيما بعد إلى دمشق ليروج لمذهبه الجديد فى التثليث ، كل هذا دون اعتراض

---

(٤٢) سورة الكهف ، الآية ١٣

من أحد، فلو صح ما قيل من أنه كان هناك ملك يُكره الناس على عبادته لكان أولى بهذا الملك أن يُكره (بولس) على عبادته.

كذلك فإن الفتية قالوا: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) وهو ما فسره الزمخشرى على أن (إلا الله) يجوز أن يكون استثناء متصلاً على ما روى أنهم -أى قوم الفتية- كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه آخرين، فإذا صح هذا، وهو بلا شك صحيح، فإن القول بأن الفتية كانوا من الروم الذين يعبدون الأصنام يتعارض مع هذا المعنى؛ لأن الرومان لم يكونوا يعبدون الله مع آلهتهم الوثنية بل إن تاريخهم الدينى الطويل لم يرد فيه ذكر لله سبحانه وتعالى، على كثرة ما عبدوا من آلهة، بعضها للحرب، وبعضها للحب، والبعض الثالث للنسل وهكذا. ولكن الذين عبدوا الله مع آلهة أخرى هم المسيحيون الذين قالوا: إن عيسى ابن الله وألهوه، وألهوا أمه، واتخذوا عقيدة التثليث جاعلين من الله ثالث ثلاثة، ومن ثم فإن قول الفتية: (وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) يقصدون به قصر العبادة على الله دون المسيح ومريم عليهما السلام.

وإنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقاً أن يفوت كل المفسرين ملاحظة الاختلاف الواضح بين قول الفتية:

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾

وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾

ثم قولهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾

فإنه لشدة تسلط القصة النصرانية على فكر المفسرين جعلتهم يذكرون فى تفاسيرهم كيف فر الفتية من الملك الوثنى، وكيف وكيف دون أن يبينوا لنا لماذا قال الفتية: (لن ندعوَ من دونه إلهاً) ومن هو هذا الإله الذى طولبوا بعبادته، ثم قولهم: (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) ودعوتهم بعضهم بعضاً إلى اعتزال

قومهم وما يعبدون إلا الله ، مما يعنى أن الله تعالى كان من بين الآلهة التى يعبدها قوم الفتية ، فلو صح ما قاله الفتية من أن قومهم يعبدون آلهة مع الله ، فإن ذلك يكون متعارضاً مع ما قالوه من أنهم دعوا إلى عبادة إله غير الله ، وأنهم رفضوا ذلك ، فإذا قيل إنه يصح أن تكون هذه الدعوة إليهم لعبادة إله غير الله ، مقصود بها إله من بين الآلهة المتعددة التى يعبدها قومهم ، فعندئذ يكون لنا أن نتساءل : ولماذا إله بالذات دون بقية الآلهة ؟ ويأتى الرد : بأن الإمبراطور ديكيوس هو الإله المقصود ، وأنه هو نفسه دعاهم إلى عبادته والتضحية له ، فنقول : إن هذا إذا صح وأيدته الرواية المسيحية فإن قول الفتية : (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) يتعارض معه ، ذلك لأن الرومان لم يكونوا يجعلون الله من بين الآلهة الكثيرة التى كانوا يعبدونها ، وفى كل ما عرف من أسماء آلهة الإغريق والرومان لم يقل أحد إن من بينها إله هو الله .

كذلك فإنه ـ وإن جاز القول بأن «ديكيوس» الذى قيل إنهم أووا إلى الكهف هرباً منه دعاهم إلى عبادته ، أو تقديم القرابين لتمثاله ـ فإن ذلك لا يعنى أنه جعل من نفسه إلهاً يعبد من دون آلهة الرومان ، صحيح أن بعض الأباطرة الرومان ألّهوا أنفسهم ، ولكنهم لم يجرءوا على أن يجعلوا الناس تعبدهم من دون الآلهة الأخرى .

ومن المفسرين الذين قالوا : إن الفتية استثنوا الله مما يعبده قومهم من آلهة ، الأستاذ محمد فريد وجدى فى تفسيره المسمى «المصحف المفسر» فهو يقول : «وقال قائل منهم إذ تجنبتموهم وما يعبدون من الآلهة ما عدا الله» وهذا يدل على أن الله سبحانه كان من بين ما يعبده القوم كما ذكرنا .

كذلك يلاحظ على ما قاله الفتية : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

أنهم قالوا : ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾

ولم يقولوا : «فأووا إلى كهف» كما قال ابن نوح عليه السلام :

﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى﴾

فهو قد يقصد أى جبل بدون تحديد، اعتقاداً منه أن ارتفاع الجبل، أى جبل، كفيل بعدم وصول الماء إليه وغرقه. أما الفتية فقد قالوا: (فأووا إلى الكهف) ويقصدون بذلك كهفاً معيناً عرفوه وعاينوه، وأدركوا ملاءمته لهم وصلاحيته لإيوائهم، مما يدل على أنهم كانوا قد اعتادوا التردد عليه وقضاء بعض الوقت فيه، وهذه عادة الأبيونيين الذين كانوا يقيمون بالقرب من المنطقة التى وجد بها الكهف، بعكس الروم الذين لم تكن لديهم مثل هذه العادة، فهم أهل الحضارة يحيون فى المدن العامرة، ولا يطيقون حياة الصحراء والعيش فى الكهوف.

كذلك فإن ما قصدته القصة المسيحية من أن النيام السبعة فروا من الملك (ديكيوس) أو (ديسيوس) واختبئوا فى الكهف، فلحق بهم جنوده وأغلقوا بابه عليهم، يفهم منه أن هؤلاء الفتية لم يكونوا يعرفون الكهف الذى اختبئوا فيه، ولم يسبق لهم التردد عليه، فلو أن قصة النيام السبعة هى قصة أصحاب الكهف حقاً لكان من الأصوب أن يقول القرآن على لسانهم: (فأووا إلى كهف) وليس إلى الكهف، باعتبار أن أى كهف يصلح للاختباء فيه عن أعين الملك وجنوده.

ليس ذلك وحسب، بل إن اختيار الفتية للكهف لاعتزال قومهم فيه، لم يكن أمرًا أملته الصدفة، ولم يكن تصرفاً عشوائيًا، وإنما كان بتوجيه من الله سبحانه وتعالى الذى هداهم إليه من أول الأمر، حتى إذا أووا إليه يوم يتخذون قرارهم باعتزال قومهم، كان ملائماً لهم وللظروف والأحوال التى ستمر بهم أثناء نومهم الطويل.

وأما قوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (٤٣).

---

(٤٣) سورة الكهف، الآية ١٧.

فقد سبق أن بينا معناها حين تكلمنا عن موقع الكهف .

وفى الآية التالية دليل جديد على أن القصة التى رواها الأسقف (جيمس الساروجى) ليست صحيحة على الإطلاق ، حيث ذكر فيها أن الملك « ديكيوس » أمر بإغلاق الكهف على الفتية بالحجارة الضخمة حين فروا إليه ، ولست أدرى كيف غفل المفسرون المسلمون عن هذه الآية وغيرها ، وهم يأخذون بلا تردد ودن إعمال نظر من القصة المسيحية المختلقة ، مما جعل تفاسيرهم تأتى متناقضة مضطربة ، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (٤٤) .

ومعنى هذا أن الكهف كان مفتوحاً والكلب راقد على بابه وقد بسط ذراعيه .

ومعنى قوله : (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) أن أعينهم لم تنطبق شأن أعين النائمين ، وإنما ظلت مفتوحة لئلا يسرع إليها البلى ،فإنها إذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها (٤٥) فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً (٤٦) ، كذلك فإنه سبحانه وتعالى كان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، والواقع أن هذا الوصف يثير قضية على جانب كبير من الأهمية ألا وهى : إذا كان باب الكهف مفتوحاً والكلب راقداً أمامه وقد بسط ذراعيه ، والفتية بداخله مفتوحى الأعين ، يتلقبون ذات اليمين وذات الشمال ، بحيث لو اطلع عليهم أحد لولى منهم فراراً وقد امتلأ رعباً ، فهل وضعهم بهذه الصورة كان لغاية معينة أو أنه جاء مصادفة ؟

الذى نعلمه علم اليقين أن القرآن الكريم الذى تستخدم فيه لا الكلمات فحسب ، بل والحروف أيضاً للتعبير الدقيق المحكم ، بحيث لا نجد كلمة زائدة ، ولا نصادف كلمة ناقصة ، أو حتى كلمة لا تعطى المعنى المطلوب بصورة شاملة دقيقة ، كذلك فإنه لو لم يكن من إعطاء هذه الصورة لوجودهم داخل الكهف

(٤٤) سورة الكهف ، الآية ١٨ .
(٤٥) ابن كثير، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .
(٤٦) الكشاف ، المرجع السابق ، ص ٤٧٥ .

فائدة ومغزى، ما أوردها الله تعالى، والذى جعلنا نهتم بهذا الموضوع هو اتصاله الواضح وارتباطه الوثيق بموضوع الرقيم الذى قيل إنه اللوح الذى نُقشت عليه أسماؤهم أو الكتاب الذى سجلت فيه هذه الأسماء، فالذى نراه هو أنه لم يكن هناك حاجة إلى هذا الكتاب أو ذلك اللوح، لماذا؟ لأن الفتية كانوا - بوجودهم فى الكهف راقدين مفتوحى الأعين، يتقلبون وكلبهم على بابه باسط ذراعيه - دليلاً كافياً لا يفوقه دليل آخر على حدوث المعجزة، فالمترددون على المنطقة التى يوجد فيها الكهف وهم من شيعة الفتية - يعرفونهم ويشاهدونهم يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام وعقداً بعد عقد، ويروون قصتهم لأبنائهم وأحفادهم، وهؤلاء بدورهم يعاينونهم كلما ساقتهم أقدامهم إلى المنطقة التى يوجد فيها الكهف، ولكنهم لا يجرءون على الاقتراب منهم أو دخول الكهف لوجود الكلب على بابه، وإلا فما هو الغرض من رقود الكلب على باب الكهف، وقد بسط ذراعيه؟ أهو لمجرد الشكل فقط، أم لغرض آخر أهم؟

كذلك فإن الله كان من بين مقاصده من هذه المعجزة أن يعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، وهذا لا يمكن أن يحدث، أى إحصاء مدة لبث الفتية فى الكهف إلا إذا كانت واقعة اعتزالهم لقومهم واللجوء إلى الكهف معروفة، فالإحصاء لا يمكن أن يقع على مجهول، ولا يمكن أن يختبر الله خلقه بمجهول لا علم لهم به، ولا يمكنهم أن يعاينوه بحاسة من حواسهم، وعليه فإن الكهف كان معلوماً لقومهم الذين كانوا يمرون عليه ويشاهدونهم فى رقادهم، ولكنهم لا يجرءون على الاقتراب منهم، بل إنهم ما يكادون ينظرون إليهم حتى يولون منهم فراراً، وقد ملأهم الرعب، ولذلك فإن الله تعالى حين وجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بقوله:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (٤٧).

ولو أراد الله قومهم لقال: (لو اطلعوا عليهم لولوا منهم فراراً وللئوا منهم رعباً) وهذا يعنى أن قومهم كانوا يطلعون عليهم، ولكنهم لا يقتربون منهم لما كان يصيبهم من رعب يجعلهم يفرون منهم، وهكذا ظلوا يشاهدونهم جيلاً بعد جيل، وكل جيل

(٤٧) سورة الكهف، الآية ١٨.

يروى للذى يليه قصتهم، لا يدرى أحد إذا كانوا لا يزالون أحياء أم أنهم ميتون.

ولعل تخصيص الرسول ﷺ بالخطاب فى قوله تعالى: (لو اطلعت عليهم) يدل على مدى ما كان يسببه وجودهم بهذا الوضع من رعب يدفع إلى الفرار، ذلك أنه إذا كان الرسول المبعوث من الله والذى يتميز بقوة العزيمة والشجاعة ورباطة الجأش، سيولى منهم فراراً ويمتلىء رعباً إذا اطلع عليهم فما بالنا بغيره من الناس؟ لا شك أن رعبهم سيكون أعظم، وفرارهم سيكون أسرع.

ومما يرجح وجهة نظرنا بشأن أن أهل الكهف كانوا محل معاينة ومشاهدة من الناس، ولم يكونوا مجهولين بالنسبة لهم أثناء المدة التى لبثوها فى الكهف - هو العلة التى من أجلها ضرب الله على آذانهم فى هذا المكان بالذات دون غيره، والذى يبدو كما لو كان قد أعد إعداداً خاصاً ليكون بالحالة التى هو عليها، سواء من حيث تصميمه، ففيه فجوة تتسع لهم أو تزيد، أو من حيث موقعه بالنسبة للشمس وحركتها فى الشروق والغروب وما ترسله من أشعة وضوء وعلاقة ذلك بتهوية المكان، فلو أن الغرض كان اختباءهم أو اختفاءهم عن قومهم حتى لا يصلوا إليهم فإنه لم تكن هناك حاجة إلى كهف بمثل هذه المواصفات، فيكفى أى مكان طالما أنه يصلح للاختفاء، حتى ولو ترتب عليه موتهم تماماً وفناء أجسادهم، فإن ذلك لن يعجز الله عن بعثهم بهيئاتهم التى كانوا عليها يوم موتهم، أو بغيرها. وهو ما سوف يفعله الله بكل خلقه يوم تقوم الساعة، فما أهمية أن يأوى الفتية إلى هذا الكهف أو إلى غيره؟ وما الفرق بين أن يحتفظوا بهيئاتهم وبمظهرهم، كما لو كانوا أيقاظاً، أو ألا يحتفظوا بها، ويظهروا بمظهر الرقود رقدة الموت التى لا صحوة بعدها إلا يوم البعث؟

كذلك ما هى الضرورة التى تدعو إلى جعل من يطلع عليهم يولى منهم فراراً، ويمتلىء رعباً؟ ولماذا يضفى الله عليهم هذا المظهر الذى يسبب الرعب لمن ينظر إليهم، طالما أنهم شأنهم شأن من لا يطلع عليهم أحد من الموتى أو المختبئين، فنحن نتردد على الجبانات والقبور، وقد نصادف مقابر مهدمة ونرى رفات من دفنوا بها فلا نفزع ولا نولى الأدبار، كما أننا نشيع الموتى ونحضر دفنهم حتى يتم مواراتهم التراب، فلا نرتعب ولا نولى الأدبار، وإن كنا نتأثر لنهاية الإنسان ونتعظ بما

حدث له ، ونعود إلى صوابنا ، فندرك بوضوح أكثر أن الدنيا فانية ، وأن كل نفس ذائقة الموت .

فليس هناك ما يدعو إذاً إلى نومهم فى كهف بهذه المواصفات ، إلا إذا كانت هناك حاجة حقيقية إلى توفر هذه المواصفات فى الكهف بهذه الصورة ، هذه الحاجة هى أن يكون الفتية ظاهرين فيه بداخل الفجوة ، ينامون فى ظروف ملائمة ، بحيث لا تبلى أجسامهم أو يصيبها التلف ، فهناك الشمس التى تفيدهم بدفئها ولا تصيبهم بأشعتها ، والهواء الذى يدخل إليهم من باب الكهف بالقدر الذى يحتاجون إليه فى التنفس أثناء نومهم ، وتجديد جو المكان ، فالكهف فى هذه الحالة يشبه واجهة عرض مكيفة ومعدة لتلائم المعروض فيها ، وتتيح الفرصة كاملة أمام المشاهدين ليطلعوا عليه .

بقى حماية ما فى الواجهة من عبث العابثين ، ونحن نشاهد فى أيامنا هذه وسائل كثيرة لحماية ما يعرضه التجار فى واجهات محالهم ، خاصة إذا كان ما يعرضونه ثميناً ومبتكراً ، يريدون أن يجتذبوا به أنظار الناس ، وفى نفس الوقت يحافظون عليه من أن تمتد إليه أيديهم بالإتلاف أو السرقة ، فترى بعضهم يضع قضباناً من الحديد أمام الزجاج ، بحيث تحول دون وصول الأيدى العابثة إليه لكسره والاستيلاء على ما وراءه ، وترى البعض الآخر يضعون نوعاً من الزجاج الذى لا يُكْسَر ، فى حين يضع البعض الثالث عدسات تليفزيونية تراقب الزبائن وتسجل حركاتهم ، وقد يضيفون إليها أجهزة إنذار تنطلق إذا اعترض عارض ، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً طريق سير الأشعة ، فتدوى صفاراتها تنذر بما حدث ، إلى غير ذلك من الوسائل ، وقد علمنا الله تعالى ، وهو الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، أسلوباً من أساليب الحماية فى مثل هذه الأحوال ، وهو التخويف الذى يدفع الإنسان إلى الهرب ، بأن جعل مظهر الفتية فى الكهف مخوفاً مفزعاً يصيب من يراهم بالرعب فيولى الأدبار.

وقد قال البعض : إن السبب فى ذلك هو نمو شعورهم وأظافرهم ، ولكننا نستبعد أن يكون هذا هو السبب ؛ لأن شعورهم لو كانت قد نمت كما يقولون للاحظ الفتية ذلك عندما استيقظوا ، ولأدركوا على الفور طول المدة التى لبثوها فى الكهف ، ولكن الملاحظ أن بعضهم قال : (لبثنا يوماً أو بعض يوم) مما يتنافى مع

ما قاله الزمخشرى من أن شعورهم وأظافرهم بلغت حداً من الطول أضفى عليهم مظهراً يثير الرعب، ويبعث على الخوف، ونعتقد أن الخوف لم يكن مبعثه مظهر الفتية، ووضع كلبهم على باب الكهف، وإنما كان الخوف منهم مبعثه شعور داخلى يبعثه الله فى قلب من يراهم حماية لهم، وإبقاء عليهم، وهو شعور كان يزيد فى عمقه ويضاعف من تأثيره طبيعة المكان الذى يوجد فيه الكهف وحال الفتية، وكلبهم، ثم طبيعة الناس الذين كانوا يقيمون فى المنطقة التى يوجد فيها الكهف، وهم من الزهاد المنقطعين للعبادة.

والمهم فى الأمر أن الفتية كانوا محل مشاهدة وموضع معاينة لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وذلك على خلاف الرجل الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه هو وحماره، وأبقى على طعامه وشرابه كما هو لم ينله عطب أو يُصِبْهُ فساد، فإن أحداً لم يشاهده لا وهو يموت ولا وهو يبعث، وإنما هو نفسه الذى شاهد جسمه وهو يبعث من جديد، وذلك لأنه كان قد شك فى البعث، برغم إيمانه بالله فقال حين مر على قرية قد دمرت.

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (٤٨).

فأراد الله أن يثبت له حقيقة البعث ففعل به ما فعل، ولم يكن المقصود إثبات هذه الحقيقة للغير، بغض النظر عما رددته أساطير اليهود عن الرجل وكيف عاد إلى أهله إلى آخر ما قيل فى ذلك، غير أن الأمر المتيقن مما ذكره القرآن الكريم عنه أنه كان هو نفسه المقصود بالمعجزة دون غيره.

أما أهل الكهف فإنهم على خلاف هذا الرجل، لم يشكوا فى البعث ولم ينكروا الحساب، بل إن قومهم الذين اعتزلوهم لم يكونوا من المهتمين بهذا الأمر، ولم يكن هو موضع الخلاف بينهم وبينهم، وإن كان موضع الخلاف هو عبادة هؤلاء القوم آلهة أخرى مع الله، وهو ما رفضه الفتية، وأبوا أن يطيعوهم فيه، فاعتزلوهم. وهكذا يتبين لنا أن نوم الفتية فى الكهف كان لحكمة، وأن بعثهم فيه كان لحكمة أخرى كانت مرهونة بوقتها، وهو الوقت الذى بُعث فيه الفتية

---

(٤٨) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

حيث كان الناس قد أضافوا إلى الشرك بالله بعبادتهم للثالوث، إنكار البعث أو الشك فيه، فبعث الله الفتية الذين كانوا نائمين كل هذه المدة غير المألوفة، والمخالفة لما عرفه الناس عن الأعمار، وما تمتد إليه الحياة، وما تحتاج إليه من طعام وشراب ورعاية للجسد وعناية به، فكان لزاماً أن يعاينوا بأمهات أعينهم حالة رقاد الفتية طيلة ثلاثمائة سنة، جيلاً بعد جيل، وهم يتساءلون: أهم أيقاظ أم رقود؟ أحياء أم موتى؟ ومع ذلك لا يجرءون على الاقتراب منهم.

وليس من شك فى أن عدد الناس الذين كانوا يشاهدون الفتية وهم فى داخل الكهف، وقد استسلموا لسبات عميق كان قليلاً جدًّا، حيث إن المنطقة التى يوجد فيها الكهف كانت ولا تزال منطقة جبلية وعرة وجرداء، لا يتردد عليها أحد، اللهم إلا من يذهب إليها عامداً من الزهاد وهم غالباً من شيعة الفتية، أو من قد يلوذ بها، أى بالمنطقة من الأفراد الهاربين لأى سبب كان، سواء أكان ارتكاب جريمة أم كان الفرار من اضطهاد دينى، وأمثال هؤلاء وأولئك يكتفون بإلقاء نظرة على النائمين دون أن يساورهم أى تفكير فى الاقتراب منهم، أو الدخول عليهم، نظراً لوجود الكلب الباسط ذراعيه على باب الكهف، وكأنه مستيقظ متحفز، وهو ما يدل عليه بسطه لذراعيه.

كذلك فإن وجود عدد من الأفراد بداخل أحد الكهوف، وقد ناموا لا يسترعى انتباه أحد ممن يقيمون أو يترددون على هذه المناطق الجبلية المقفرة، وحتى إذا تكرر مرور فرد أو أكثر على نفس المكان، ورآهم على نفس الحال التى سبق أن رآهم عليها، فسوف يعتقد أنهم استيقظوا ثم عادوا إلى النوم ثانية، اللهم إلا إذا راقبهم لمدة ليعرف ما إذا كانوا استيقظوا أم لا، وهذا ما لا يتصور حدوثه فى مثل هذه المنطقة المهجورة، حيث إن وجود سبعة أفراد معاً فى مكان لا يتردد عليه الناس إلا فرادى للأسباب التى سبق ذكرها يثير الشعور بالخوف منهم لدى أى شخص يراهم، لاحتمال أن يكونوا عصابة قد تعتدى عليه إذا رأوه، أما إذا وجد لديه سبب لإيقاظهم، فإنه سوف يخاف من كلبهم، وإذا تجرأ وتجاوز الكلب فإن منظرهم الذى يبعث على الخوف سوف يجعله يولى الأدباء.

ولاشك أنه بمضى الوقت وتتابع السنين ازدادت المنطقة المحيطة بالكهف وحشة، بعد أن أقفرت من سكانها، وتقطعت السبل بالمترددين عليها، وتغير مسار

الطريق الممتدة بين مناطق التجمعات السكانية تماماً، كما حدث بالنسبة للمناطق التى توجد بها الآثار القديمة، والتى كانت فى الماضى مناطق عامرة.

ولقد شاهدت فى مدينة الخارجة بالوادى الجديد قبراً يرجع إلى فترة الحكم الإغريقى لمصر، توجد به مومياوات لأناس ماتوا فى تلك الأيام، فلم يزد الوقت الذى نظرت فيه إلى تلك المومياوات على بضع دقائق انصرفت بعدها دون أن أفكر فيما إذا كان أصحاب هذه المومياوات أمواتاً أم أحياء، وربما لو أنه خطرت لى هذه الفكرة لنزلت إلى حيث توجد المومياوات، وتفحصتها لأتأكد مما إذا كانوا أحياء أم لا. فقد استقر فى وعيى منذ أن سمعت وقرأت عن المومياوات أنها لأناس ماتوا منذ زمن بعيد، وهكذا الحال بالنسبة للفتية، فإن من يراهم وقد ناموا فى حين أن كلبهم باسط ذراعيه على باب الكهف، لن يفكر فى أن يتحقق من أنهم ليسوا خلاف ذلك، وأنهم لا ينهضون من النوم كما هى عادة الناس.

ولم يكن اشتمال الرد الذى نزل به الوحى على سؤال اليهود، من خلال المشركين العرب، عن الفتية الذين ذهبوا فى الزمن الأول، على بيانات دقيقة مثل عدد الفتية واختلاف الأقوال بشأنهم، أكانـــوا ثلاثـة أم خمسة أم سبعة، ثم تحديد المدة التى لبثوها فى الكهف بأنها ثلاثمائة سنة وتسعة-أمراً زائداً ليس من شأن وروده على هذا الوجه إلا نشوب الخلاف حول ترجيح أى الأرقام هو الصحيح، أو احتدام الجدل خول ما إذا كان ذكر المدة التى لبثوها فى الكهف قد جاء على سبيل الخبر أم التقرير، فهذا وذاك هو مما يجب أن ننزه القرآن عنه، وإنما وردت هذه المعلومات لحكمة ما كان يجب أن تخفى علينا إذا كنا قد تعلمنا ما أراد الله تعالى أن نتعلمه، من أحوال اليهود وأسلوب تفكيرهم وطباعهم الشاذة، فهم منذ القدم مولعون بالجدل ميالون إلى الخلاف، معاندون، مكابرون، مراوغون، وقد وصف لنا القرآن موقفهم من أنبيائهم، فقد كانوا يجادلونهم فيما لا يستحق الجدال ويرهقونهم بأسئلتهم ويعارضونهم حتى فيما لهم فيه مصلحة، ويفعلون عكس ما يطلبونه منهم، فقد أخبرهم موسى عليه السلام أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فاتهموه بأنه يهزأ بهم، فلما نفى ذلك لم يستجيبوا للطلب فيذبحوا أى بقرة، طالما أن الله تعالى كان يريد أن ييسر عليهم الأمر، وإنما جادلوه كعادتهم، فسألوه أن يدعو لهم ربه يبين لهم ما هى، فلما أخبرهم عادوا يطلبون منه

أن يدعو لهم ربه يبين لهم ما لونها، فلما أخبرهم عادوا فطلبوا للمرة الثالثة أن يدعو ربه يبين لهم ما هي؛ لأن البقر تشابه عليهم!! وهو نوع من المراوغة اشتهروا به وكثير منه ذكره القرآن الكريم، وامتلأ به تاريخهم القديم والحديث.

وقد لاحظنا أنهم بعد أن سمعوا الرد على أسئلتهم التي كان من بينها السؤال الخاص بالفتية الذين أووا إلى الكهف، لم يكذبوا ولم يجادلوا، بل لزموا الصمت على خلاف ما هو معروف عنهم، مما يدل على أن الإجابة أفحمتهم إلى الحد الذي جعلهم يعجزون عن ممارسة عادتهم في الجدل واللجاج، فما الذي أفحمهم في إجابة الوحي عن سؤالهم؟

إن الذي أفحمهم إلى الحد الذي جعلهم يلوذون بالصمت هو البيانات الدقيقة التي اشتمل عليها الرد، والتي لم يكن هناك من يعلمها غيرهم، فمن كان يعرف سر الأرقام الفردية: ٣، ٥، ٧ أو من كان يعرف سر المدة التي لبثها الفتية في الكهف، وأمر الخلاف في التقويم الذي كانت تتبعه الطائفة التي ينتمي إليها الفتية؟ ومن كان يعرف أمر اختلاف الإله الواحد الذي يعبده الفتية عن الإله الواحد الذي يعبده اليهود (يهوه)، والآلهة المتعددة التي من بينها الله تعالى التي يعبدها النصارى، الذين كانوا يهوداً آمنوا بالمسيح بشراً رسولاً، ثم انحرفوا فآمنوا بما ادعاه (بولس) من أن المسيح إله وابن إله، فعبدوه وأمه مع الله؟ إنها جميعاً أسرار لم يعرفها غير اليهود، وكذلك النصارى الذين آمنوا بالمسيح إلهاً وابن إله.

عدد أصحاب الكهف:

أما قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

(٤٩) سورة الكهف، الآية ١٩.

بأنه فضلاً عن دلالته على أن الفتية لم يدركوا أنهم قد قضوا فى الكهف نائمين مدة بلغت الثلاثة القرون أويزيد، فقد أورد الحوار الذى دار بينهم حيث سأل أحدهم: كم لبثتم؟ فرد عليه جماعة (لا تقل عن ثلاثة) قائلين: لبثنا يوماً أو بعض يوم، فقالت جماعة أخرى: ربكم أعلم بما لبثتم. ويقول الزمخشرى عنهم: «كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أن المدة متطاولة وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله».

فمن الحوار يتبين لنا أنهم كانوا سبعة، فإن قيل: ولماذا لا يكونون أكثر، فالجمع يحتمل أكثر من ثلاثة، وقد يكون الذين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم أربعة أو خمسة، كما قد يكون الذين قالوا: (ربكم أعلم بما لبثتم) مثلهم. فإننا نقول لهم: إنه لو كان ما تقولونه صحيح إلا أنه بعيد عن الاحتمال لأن مقتضى ذلك أن نفتح الباب على مصراعيه لكل من يريد أن يفترض عدداً يدخل فى صورة الجمع، وبذلك قد يكون الفتية مائة أو أكثر، ولكن الأقرب إلى العقل والمنطق أن يكون عدد الجماعتين اللتين ردتا على المتسائل «كم لبثتم؟» ستة أفراد، ثلاثة لكل جماعة لا أكثر. ولعل الله تعالى أراد بهذا أن يوحى إلينا بعددهم، فذكر أن واحداً قد تساءل، فردت عليه جماعة، ثم ردت عليه الأخرى، وكان يمكن أن يجعل الحوار شائعاً فى الجماعة فيقول مثلاً: وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم، قالوا: كم لبثتم قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم. ولكن الله تعالى قسمهم إلى واحد وجماعتين.

ولما كان الجمع لا يكون إلا بثلاثة فمعنى ذلك أن عددهم كان سبعة، ولذلك فإن الجماعة الثانية حين ردت على الجماعة الأولى قالت لها: ربكم أعلم بما لبثتم، فلو كان القائل جميعهم لقالوا: ربنا أعلم بما لبثنا، وهذا ما قاله الجلالين إلا أنه يعيبه أنه افترض أن الستة ردوا أولاً على السائل: (قال قائل منهم كم لبثتم) فقالوا لبثنا يوم أو بعض يوم، ثم عاد بعضهم إلى القول: ربكم أعلم بما لبثتم، وهذا غير متصور إذ يجيب البعض عن سؤال واحد مرتين، واحدة تدل على العلم بالمدة التى لبثوها فى الكهف، والثانية تدل على تعذر العلم.

ولكن الرأى الأقرب إلى المنطق والعقل أن يكون البعض قد أجاب بالإجابة الأولى فى حين أجاب البعض الآخر بالإجابة الثانية، وهو قول لابن عباس رضى

الله عنهما الذى استدل على أن الصحيح أن عددهم سبعة ، لأنه قد قال فى الآية : (قال قائل منهم كم لبثتم) وهذا واحد، قالوا فى جوابه : (لبثنا يوماً أو بعض يوم) وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا : (ربكم أعلم بما لبثتم) وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (٥٠).

أما قوله تعالى : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) فالملاحظ فيه أنه قول واحد منهم ؛ إذ لا يعقل أن يكون قول جماعة ، وإلا لدار بين الجميع حوار مماثل للحوار الذى دار بمناسبة ما طرحه أحدهم من تساؤل عن المدة التى لبثوها ، فى حين أن الأمر بأن يبعثوا أحدهم جاء حاسماً محدداً لا يحتمل الجدل أو النقاش : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة). كذلك جاء واضحاً ومشتملاً على توجيهات وإرشادات واحتياطات تدل على حنكة وتجربة وبعد نظر وخبرة بالناس ، فهو يقول : ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

ويبين لهم عاقبة انكشاف أمرهم فيقول لهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ وعندئذ ، لن تفلحوا إذاً أبداً ، مما يدل على أن قائل هذا هو قائد للجماعة أو رئيس لها ، أو مرشد مسئول عن الجماعة وهو ما يفهم من قوله : (ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً) أى لا يجعل أحدا يشعر بوجود الجماعة التى هو مسئول عنها ، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام قد صدر عن عدد منهم وإلا لقالوا : «ولا يشعرن بنا أحداً».

وهكذا يتبين أن الستة كانوا يخضعون أو يأتمرون بأمر السابع الذى يبدو من كلامه أنه أبعد نظراً كما قلنا ، ولذلك فإنه يقول لهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ وهذا القول منه يلقى لنا الضوء على ما كان هؤلاء القوم يوقعونه من عقوبة على من يترك دينهم ، وهذه العقوبة هى الرجم إذا لم ينجحوا فى ردهم إلى دينهم القائم

---

(٥٠) تفسير النسفى ، هامش صفحة ١٨٧.

على الشرك بالله، وهذا يعد مؤشراً آخر، بل برهاناً واضحاً على أن القوم لم يكونوا من الروم؛ لأن الروم لم يكونوا يعرفون الرجم كعقوبة توقع على من يترك دين آبائهم، بل إن من يقرأ تاريخ العقوبة فى الدولة الرومانية يلاحظ أن الرجم لم يكن من بين العقوبات التى كانت تطبق على من يرتكبون الجرائم، سواء أكانت دينية أم غير دينية، وإنما الذين كانوا يطبقون هذه العقوبة، وبالذات على من يترك دينهم، هم اليهود. كما كانوا يطبقونها على مرتكبى بعض الجرائم كالزنى، ولعلنا نذكر واقعة احتكامهم إلى الرسول ﷺ بشأن اليهوديين (رجل وامرأة) اللذين كانا قد زنيا، وكيف أخفوا آية الرجم من التوراة فكشف عنها عبد الله بن سلام الذى مالبث أن أسلم، أما فيما يتعلق برجمهم من يعتبرونه مجدفاً فى الدين، أو كافراً بدين آبائه فإن (ديورانت)(٥١) يروى فى كتابه أن أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين (النصارى) واسمه اصطفانوس أو (استيفن) استدعى للمثول أمام السنهدرين (المجلس اليهودى الأعلى) واتهم بأنه يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله، فدافع الرجل عن نفسه دفاعاً قوياً لم ينكر فيه إيمانه بالمسيح مما آثار غضب السنهدرين فأمر بأن يجر إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة.

أما الرومان فإنهم حين بدءوا فى اضطهاد المسيحيين لم يعاقبوهم بالرجم، وإنما عذبوهم وضربوهم حتى الموت، أو قدموهم للحيوانات المفترسة فى المجتلدات الرومانية الشهيرة، أو أحرقوهم حتى الموت، ولم تذكر كتب التاريخ أن أحداً من الذين اعتنقوا المسيحية عوقب بالرجم.

وهذه النقطة بالذات تبين لنا أهمية إلمام المفسرين بالنظم المختلفة، سواء منها العقابى أو الجنائى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى، أو على الأقل الرجوع إلى ماكان منها مطبقاً فى هذه الدولة أو تلك، أو فى هذا المجتمع أو ذاك قبل أن يدلوا برأى، أو يقدموا تفسيراً لإحدى الآيات قد يكون بعيداً عن الصحة أو مخالفاً للحقيقة، وهكذا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم العقوبة، وهى الرجم للدلالة على القوم الذين يطبقونها وهم اليهود الذين كانوا ــ كما هو

(٥١) قصة الحضارة، الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ٢٤٤.

وارد فى التوراة ــ يعاقبون بالرجم كل من يخرج على دينهم . وقد ورد فى كتب التاريخ أنهم كادوا يرجمون بولس نفسه ، كما أن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ، على مذهب بولس (التثليث) ظلوا يطبقون عقوبة الرجم على من يخرج على هذا المذهب ، باعتباره مهرطقـــاً وكافراً ، وذلك دون المسيحيين الآخرين الذين اعتنقوا المسيحية فى أوربا .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الإمبراطور (دوميتيان) الرومانى حكم على ابن عم له بالإعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية ، ويقول (ول ديورانت) إن المقصود المسيحية ، ولم يكن تنفيذ العقوبة بالرجم ، بل بقطع الرقبة بالسيف .

كذلك فإن مما يرجح أن يكون عدد الفتية سبعة ، وأن اليهود كانوا يعرفون ذلك ، وأرادوا أن يختبروا صدق نبوة الرسول ﷺ ، أنهم فى تاريخهم الطويل كانوا مولعين بهذا الرقم (٧) يحرصون على أن يكون أى تجمع منهم مكوناً من سبعة ، وذلك على سبيل التفاؤل باليوم السابع ، أو من قبيل التكريم له أو التقديس ، واليوم السابع هذا هو اليوم الذى زعموا أن الله تعالى قد استراح فيه بعد أن انتهى من خلق الكون (٥٢) ، وهو أيضاً يوم راحتهم المقدس أى يوم السبت .

ونجد الرقم (سبعة) يتكرر كثيراً فى التوراة ، ففى الأصحاح السابع الفقرتان ١ و٢ : « وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك ؛ لأنى إياك رأيت باراً لدى فى هذا الجيل ، من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى .. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض ؛ لأنى بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وليلة » .

وفى الأصحاح الثامن من سفر التكوين الفقرة رقم أربعة « واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط » . وفى الفقرات من ١٠ إلى ١٣ « فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك ، فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء فى فمها ، فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض ، فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً » . وفى الفقرة ١٤ « وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين

---

(٥٢) سفر التكوين ، الإصحاح الثانى ، الفقرتان الأولى والثانية .

من الشهر جفت الأرض».

كذلك فإن يافث ابن نوح ولد له سبعة أبناء هم (١) جومر (٢) ماجوج (٣) ماداى (٤) ياوان (٥) توبال (٦) ماشك (٧) تيراس.

وفى الأصحاح الواحد والعشرين من سفر التكوين الفقرات ٢٨ إلى ٣٠ «وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها، فقال أبيمالك لإبراهيم ما هى هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها؟ فقال إنها سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لأنهما هناك حلفا كلاهما».

كذلك أنجب إبراهيم من سراريه سبعة أبناء هم: إسماعيل الذى ولدته هاجر، وستة ولدتهم له قطورة هم: زمران، ويقشان، وزمدان، ومديان، ويشباق، ومشوحا.

وفى الأصحاح ٢٩ من سفر التكوين الفقرتان ١٨ و١٩: «وأحب يعقوب راحيل فقال أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى». وفى الفقرة رقم ٢٧: «أكمل أسبع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التى تخدمنى أيضاً سبع سنين أُخَر ففعل يعقوب هكذا فأكمل أسبع هذه. فأعطاه راحيل ابنته زوجة له».

وفى قصة يوسف عليه السلام رأى فرعون حلماً: «وإذا هو واقف عند النهر، وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم، فأرتعت فى روضة، ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم، فوقف بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر، فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة» (٥٣).

ليس ذلك وحسب، بل إنهم فيما كانوا يفترضون من قضايا يبحثون لها عن حلول كان يقحمون الرقم (سبعة). فقد سأل الصدوقيون المسيح عليه السلام قائلين: «يا معلم قال موسى إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلاً لأخيه. فكان عندنا سبعة إخوة وتزوج الأول ومات، وإذا لم يكن له

(٥٣) تكوين، الإصحاح ٤١، الفقرات من ١ إلى ٨.

نسل ترك أمراته لأخيه . وكذلك الثانى والثالث إلى السبعة . وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً ، ففى القيامة لمَنْ من السبعة تكون زوجة . فإنها كانت للجميع » (٥٤) .

وقد سبق أن ذكرنا كيف دعا الحواريون التلاميذ لكى ينتخبوا سبعة رجال منهم ، يشهدون لهم ومولين من الروح القدس ، وحكمة من أجل أن يقوموا بخدمة الموائد حتى لا يترك الحواريون كلمة الله ، وليواظبوا على الصلاة ، فاختار التلاميذ من بينهم سبعة أفراد ليقوموا بهذه الخدمة .

وإذا كان اليهود قد اهتموا بالرقم (سبعة) وتعمدوا أن يقحموه إقحاماً فى أسفارهم بمناسبة وبدون مناسبة ، فإن المسيحيين بدورهم حاولوا أن يجدوا لأنفسهم هم الآخرون رقماً تكون له دلالة فاهتدى أحد كرادلتهم الأوائل المدعو أوريجن إلى الرقم (٨) ، الذى يعبر عن عدد الأشخاص الذين كانوا على ظهر سفينة نوح عليه السلام أثناء الطوفان ، وهم : نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث . ويأخذ أوريجن على عاتقه ما كتبه جوستن فى كتابه (الحوار) لقد وهبوا رمز اليوم الثامن الذى فيه ظهر مسيحنا مبعوثاً من بين الموتى . وكتب أيضاً : « إن نوحاً هو الوليد الأول لخلق جديد ، إنه صورة المسيح الذى حقق ما يمثله نوح (كذا) ويتابع المقارنة بين نوح من جانب ، الذى أنقذه خشب السفينة ، والماء الذى يجعلها تطفو ، ومن جانب آخر ماء التعميد ، (ماء الطوفان الذى منه تولد بشرية جديدة) وخشب الصليب ، وهو يؤكد على قيمة هذه الرمزية ويختتم بالتأكيد على « الثراء الروحى والعقدى للطوفان » (٥٥) .

حكمة بعث الفتية فى الكهف :

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾

فيظهر منه أن معجزة النوم فى الكهف كان لها حكمة أو غاية غير تلك التى كانت

(٥٤) متى ، الإصحاح ٢٢ ، الفقرات من ٢٤ إلى ٢٩ .

(٥٥) موريس بوكاى المرجع السابق ، صفحة ٥٦ .

(٥٦) سورة الكهف ، الآية ٢١ .

لبعثهم فيه، فبينما نجد أن نومهم كان الهدف أو الغاية منه حمايتهم من قومهم المشركين، الذين عبدوا الثالوث، وإثبات ذلك للفتية أنفسهم عند يقظتهم، إذ يدركون أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لدعائهم، فنشر عليهم رحمته، وأبقاهم أحياء في حين مات مضطهدوهم من زمن بعيد. فإن الغاية من بعثهم كانت إثبات حقيقة البعث وقدرة الله عليه لقوم شكوا فيه أو أنكروه، ومرة أخرى نجد المفسرين المسلمين يستعينون بقصة النيام السبعة عند تفسيرهم لهذه الآية، فيقولون: إن تأثير الشرك والوثنية الرومانية والفلسفات اليونانية كان لا يزال قوياً ظاهراً حول الوقت الذى استيقظ فيه الفتية فى كهف أفسوس (٥٧). ومنهم من يقول: إن الملك الصالح ثيوديوسيوس لما رأى الشك فى البعث يتفشى فى الناس دعا الله أن يريهم معجزة أو آية تثبت لهم خطأهم، وتردهم إلى الإيمان بالبعث والنشر (٥٨). وهذا غير صحيح بالمرة؛ لأن الكهف لم يكن بـ(أفسوس) كما أن الفتية لم يكونوا من الروم، ولا كان الملك ثيودوسيوس صالحاً أو مسلماً كما قيل، وإنما كان كما سبق أن ذكرنا مشركاً، جعل عيسى إلهاً وأمه إلهة، واضطهد كل من حاول أن ينفي عنهما صفة الألوهية.

كذلك فإن الآيات ليس فيها ما يدل على وجود ملك صالح، وكل ما فيها أن الله بعث الفتية ليعلم قومهم:

﴿ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾

ولكنه التأثر الواضح بالقصة المسيحية وعدم الإلمام بما كان عليه المدعو ثيودوسيوس وغيره من ملوك الشرك الذين عضدوا الكنسية فيما ذهبت إليه من أن عيسى ابن الله وشريكه فى ملكه.

وقد سبق أن ذكرنا أن الفتية وهم من شيعة الأبيونيين التى تفرعت عن طائفة الآسينيين، التى انتقلت إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، حيث عثر على كهوفهم ومستعمراتهم قريباً من المكان الذى يوجد فيه الكهف، الذى انطبقت عليه الأوصاف الواردة فى القرآن الكريم على مشارف عمان، وكانت هجرتهم أو

---

(٥٧) المودودى، المرجع السابق، صفحة ٢٤.

(٥٨) الزمخشرى، المرجع السابق، صفحة ٤٧٧.

فرارهم إلى هذا المكان عقب تدمير تيطس لأورشليم والهيكل اليهودى، وتشتيته لليهود الذين ألقوا التبعة فيما حدث على عاتق إخوانهم، الذين اعتنقوا المسيحية والذين رحبوا بتدمير الهيكل (هيكل سليمان) باعتباره تحقيقاً لنبوءة المسيح، وفى ذلك الوقت الذى فر فيه الفتية إلى الكهف كانت المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن خاضعة للدولة النبطية العربية، التى ما لبث أن اضمحلت بعد استيلاء الإمبراطور الرومانى (تراجان) على عاصمتها بطرا، أو (البتراء) عام ١٠٦ ميلادية.

أما فى الوقت الذى استيقظ فيه الفتية فإن دولة عربية أخرى كانت قد قامت على انقاض الدولة النبطية، وهى دولة الغساسنة التى شمل سلطانها المنطقة التى يوجد فيها الكهف، ومستعمرة الآسينيين فى خربة قمران وفى (بللا) حيث إن سلطان هذه الدولة كان يشمل بلاد حوران وشرق الأردن، وأطراف فلسطين، ويمتد أحياناً فيشمل دمشق دون مساس بالسيادة الرومانية التى كانت تخف حيناً وتشتد حيناً آخر، وقد ظلت هذه المملكة قائمة حتى الفتح الإسلامى، أما قيامها فقد اختلفت بشأنه الآراء، فهناك من يرجع بتاريخ نشأة هذه الدولة إلى القرن الأول الميلادى وهو المؤرخ العربى (حمزة الأصفهانى). فى حين يقول «جورجى زيدان»: إنهم كانوا لا يزالون فى تهامة، موطنهم الأصلى، حتى أواسط القرن الثانى الميلادى، أما المستشرق الألمانى (نولدكه) فإنه يقول: إن دولتهم نشأت فى القرن الخامس الميلادى، حيث إن أول ملك من ملوكهم، على حد قوله، ويدعى (جبلة أبو شمر) توفى نحو عام خمسمائة ميلادية، ولكن جورجى زيدان وإن كان لا ينكر على (نولدكه) إصابته فى كثير من ملاحظاته، إلا أنه لا يوافقه على ما ذهب إليه من حصر تلك الدولة فى عشرة ملوك فقط، حكموا مائة سنة وبعض المائة، كما أنه لا يوافق حمزة الأصفهانى على أنهم ٣٢ ملكاً، حكموا ستة قرون وهو لذلك يقدم رأياً وسطاً ذهب فيه إلى أن الغساسنة نزلوا الشام بعد أواسط القرن الثانى الميلادى، وقد يكون نزولهم فى القرن الثالث(٥٩). فإذا كان ذلك صحيحاً فمعناه أن المنطقة التى عثر فيها على مستعمرة الآسينيين، ثم على الكهف المجاور لعمان، كانت خاضعة لسلطان

---

(٥٩) العرب قبل الإسلام، صفحة ٢١١.

الغساسنة ابتداء من القرن الثالث وحتى الفتح الإسلامى، وذلك بعد أن انتهى الصراع بينهم وبين الضجاعم الذين كانوا من قضاعة، والذى كان من نتائجه سيطرة الغساسنة على المنطقة وإنشاء دولتهم فى البلقاء وحوران، واتخاذهم من (بصرى) عاصمة لها، ثم امتداد سلطانهم إلى ممتلكات دولة الأنباط البائدة، بعد أن سحبت الدولة الرومانية حاميتها من البتراء فى عهد الإمبراطور (فالنس) فى النصف الثانى من القرن الرابع، وبنمو دولتهم واشتداد ساعدها وازدياد قوتها، أحس الرومان بحاجتهم إليها، فاستعانوا بها ضد عدوتهم اللدود دولة فارس، متخذين منها دولة حاجزة تمنع عنهم هجوم الفرس، كما اتخذت فارس من دولة الحيرة دولة حاجزة ضد هجوم الروم.

ومعنى هذا ببساطة أن خربة قمران وعمان وغيرها من المناطق التى تقع شرقى الأردن، كانت تحت حكم ملوك الغساسنة، فإذا كان هناك ملك استيقظ الفتية فى عهده، فإنه يكون ملك الغساسنة وليس ثيودوسيوس ملك الروم وإمبراطورهم الذى كان يقيم على بعد مئات الفراسخ فى القسطنطينية، بعيداً عن عمان وخربة قمران والرقيم.

والمعروف أن الدولة الغسانية اعتنقت المسيحية على مذهب التثليث، وفى القرن الثالث الميلادى أظهر المدعو (بريل) الذى كان أسقفاً لبصرى مذهبه المنكر للبعث وخلود النفس وقيامة الموتى، وقد أحدث كلامه هذا صدى سرعان ما راح يتردد ويتسع مداه حتى شمل المنطقة الممتدة من بصرى إلى خربة قمران وعمان، وكل شرق الأردن وغيرها، حيث رحب به اليهود الذين كانت طائفة منهم وهى طائفة الصدوقيين تنكر البعث كما سبق أن ذكرنا، وما وافى القرن الخامس حتى كانت الغالبية العظمى من الناس سواء منهم اليهود أو المسيحيون تشك فى البعث والحساب، فجاء استيقاظ الفتية وانبعاثهم فى الكهف ليثبت لهؤلاء وأولئك أن البعث حقيقة لا شك فيه.

ومع ذلك فإننا لازلنا نصر على القول بأن هذه المعجزة لم يكن مقصوداً بها الجموع التى تعيش تحت سلطان دولة الغساسنة، بل ولا كل المسيحيين ولا كل اليهود، ولكن كان المقصود بها عدداً قليلاً من الناس هم الذين عاينوا حادثة الانبعاث فى الكهف، وهم فى واقع الأمر لم يكونوا -كما ذهب إلى ذلك معظم

المفسرين والمؤرخين المسلمين ـ مسلمين يرفعون على باب مدينتهم اسم الله الواحد الأحد، وإنما كانوا مشركين يشكون فى البعث والحساب أو ينكرونه، وإلا فإنهم لو كانوا مسلمين يؤمنون بالله الواحد وبالبعث والحساب ما كانت هناك حاجة إلى إثبات هذه الحقيقة لهم. فالمعروف أن كل المعجزات سواء ما جرى منها على أيدى الأنبياء أو الصالحين، وما لم يقع منها على يد أحد منهم، وإنما وقع مباشرة، لم تحدث إلا لإثبات حقيقة هى بذاتها موضع شك أو محل إنكار، ولعل هذا يبدو لنا بوضوح من قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ (٦٠).

فقد تنازع الناس واختلفوا فى أمر الفتية وبطبيعة الحال فإن النزاع كان حول حقيقتهم، وهل قضوا فعلاً هذه الفترة نياماً أو لا؟ وهل هم الفتية الذين ذهبوا فى الزمن الأول؟ فلما ازدادت حيرتهم وعجزوا عن الوصول إلى رأى واحد بشأنهم قالوا: ﴿ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾

وقولهم: ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾

وليس «ربنا أعلم بهم» يفهم منه أنهم ما زالوا ينظرون إليهم على أنهم يعبدون رباً غير رب القوم.

وقد سبق أن رأينا الفتية يقولون حين أووا إلى الكهف:

﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

فميزوا بين ربهم الذى يعبدونه، وبين رب قومهم أو أربابهم. وكانت هناك جماعة أخرى وصفها المؤرخون والمفسرون بأنهم الملك وأعوانه:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

هذا مع العلم بأنه ليس بشرط أن يكون هؤلاء الغالبون على أمرهم هم أصحاب السلطان الدنيوى، فقد يكونون من أصحاب السلطان الدينى، من رجال الكهنوت الذين كانوا قد قاسموا الملوك سلطانهم، وشاركوهم فى سطوتهم باسم الدين، وهذا هو

---

(٦٠) سورة الكهف، الآية ٢١.

الأرجح ؛ لأنهم قالوا لنتخذن عليهم مسجداً ، أى معبداً .. وهؤلاء ملعونون ، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم والنسائى أن النبى ﷺ قال : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة » رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

ومع ذلك فإننا نجد المفسرين والمؤرخين المسلمين يصرون على أن الملك والناس فى (أفسوس) كانوا صالحين ومسلمين ، فما هى ضرورة إظهار المعجزة إذا كانوا مسلمين يؤمنون بالبعث والحساب ؟ وكيف يكونون ملعونين ومن شرار القوم ، كما قال الرسول وهم المسلمون الأتقياء ؟ ألا يدلنا هذا على مدى التناقض الذى وقع فيه المفسرون والمؤرخون ؟

والمرجح أن يكون استخدام القرآن لكلمة « مسجد » يقصد به الدلالة على أن القوم كانوا من اليهود ، وليس فقط للدلالة على مكان العبادة ، حيث إن النصارى لا يسجدون فى كنائسهم ، ولكن اليهود هم الذين يفعلون ذلك ، وهو جزء من صلاتهم أمروا به منذ القدم :

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ (٦١) .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن تأثر بعض المفسرين والمؤرخين ، قديماً وحديثاً ، بالقصة المسيحية جعلهم يبذلون جهدهم للتوفيق بينها وبين القصة القرآنية ، ولو على حساب الحقائق التى اشتملت عليها القصة الأخيرة وهو ما ظهر بوضوح فى محاولتهم تفسير الآيات الخاصة بعدد الفتية ، وبالمدة التى لبثوها فى الكهف ، فقد وجد البعض أن عدد الفتية فى بعض الروايات المسيحية أكثر من سبعة ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه ، كما وجدوا أن المدة التى لبثوها فى الكهف أقل بكثير من المدة التى ذكرها القرآن ، فما كان منهم لرفع هذا الاختلاف إلا أن أولوا الآيات بقصد إيجاد التطابق بين القصة المسيحية والقصة الإسلامية ، وكأن القصة المسيحية حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فإذا تعارض القرآن معها كان ذلك ضده لا له ، فيجب التوفيق بينهما ، وكأن القرآن بحاجة إلى

---

(٦١) سورة البقرة ، الآية ٥٨ .

دليل لإثبات صدقة وتأكيد صحته، والله تعالى يعلم ما فى القصة المسيحية من افتعال وكذب وافتراء، وأولو العلم يعلمون أنها لا تتضمن من الحقيقة إلا جزءاً ضئيلاً يقتصر على واقعة لجوء الفتية إلى الكهف ونومهم فيه، أما ما عدا ذلك فإضافات من صنع «چيمس الساروجى» يتناقض بعضها مع بعض، وهو ما نعتقد أن القارىء قد أدركه.

الاختلاف فى عدد الفتية:

يقول الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (٦٢).

ونلاحظ هنا أن عدد الفتية فى كل مرة كان فردياً: ثلاثة، خمسة، سبعة، مضافاً إليها الكلب فى كل مرة، وهذا أمر عجيب، فلماذا لم يقولوا ثلاثة ثم أربعة ثم خمسة وهكذا؟ وهذا هو المعتاد إذ يختلف الناس فى فرد واحد زيادة أو نقصاً، ثم لماذا لم يقولوا: اثنان ثم أربعة ثم ستة وهكذا؟ لعلنا نجد تفسير هذا الأمر فيما كان عليه النظام لدى الأبيونيين، فقد سبق أن ذكرنا أنهم كانوا يتآخون اثنين اثنين طالما كانوا فى وسط الجماعة، فإذا انتقلوا خارجها وجب عليهما أن يصحبا معهما ثالثاً أكبر منهما سناً وخبرة، لكى يقودهما وينصح لهما ويوجههما، وهكذا فإن الاثنين يصحبان ثالثاً، والأربعة يصحبون خامساً والستة يصحبون سابعاً، وهذا يرجع إلى أن كل اثنين يكونان متآخيين، وقد كان عدد الفتية ستة، اثنين اثنين، ومعهم قائد أو مرشد أو رئيس وهو الذى كانت الطائفة تطلق عليه اسم «مباقر» بالعبرية، ومعناها المفتش، وهذا يفسر لنا قول أحدهم: ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (٦٣).

فهذا الشخص هو «المباقر» أو المفتش أو المرشد، وهو الأكبر سنا والأكثر خبرة

---

(٦٢) سورة الكهف، الآية ٢٢.

(٦٣) سورة الكهف، الآيتان ١٩، ٢٠.

وحنكة ، أما الستة الآخرون فكانوا من الشباب الذين دخلوا الجماعة حديثاً .

ولا يبدو لنا صحيحاً ما ذكره البعض من أن الاختلاف فى عدد الفتية سببه أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران ، كانوا عند النبى ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيًّا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال العاقب : وكان نسطوريًّا : كانوا خمسة سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق الله قول المسلمين ، وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل عليه السلام (٦٤) . فهذا الكلام إذا صح فإنه يتعارض مع الرواية التى سبق ذكرها ، وهى الخاصة بتحريض اليهود لقريش على توجيه السؤال الخاص بالفتية الذين ذهبوا فى الزمن الأول ، أى أصحاب الكهف ، فجاء الرد بواسطة الوحى متضمناً القصة كلها ، وهذا يعنى أن الخلاف بشأن عدد الفتية لم يكن له محل أو موجب طالما أن القصة قد نزلت كاملة .

وإذا افترضنا صحة ما ذكره الزمخشرى وغيره ، فإنه يحق لنا أن نسأل : لماذا قال اليعقوبى : إنهم أى الفتية ، كانوا ثلاثة فى حين قال النسطورى إنهم كانوا خمسة ، وقال المسلمون : إنهم كانوا سبعة ، ولماذا لم يقولوا : إنهم كانوا ثلاثة وأربعة وخمسة ، أو اثنين وثلاثة وأربعة ، أو أربعة وخمسة وستة وهكذا ؟ لاشك أن النصارى وكذلك اليهود الذين كانوا على علم ، أو على الأقل كانوا قد سمعوا بقصة الفتية كانوا يعلمون الشىء غير القليل عن نظام الآسينيين الذى ورثته شيعتهم من الأبيونيين ، فجاء الوحى يردد ما كانوا يقولونه دون تغييرأو تبديل ، حتى يثبت لهم أن محمداً ﷺ ، الذى لم يكن لديه علم بنظام الآسينيين ، إنما يتلقى العلم من الله العليم الذى لا تخفى عليه خافية .

ويهمنا ونحن بهذا الصدد أن نوضح أمراً على جانب كبير من الأهمية ، لا ندى كيف غفل عنه معظم المفسرين ، ذلك أنهم فسروا الآية الخاصة بعدد الفتية مستندين إلى قصة السيد والعاقب وهما الكاهنان اللذان قيل إنهما حضرا للقاء رسول الله ﷺ ، حيث ثار الجدل حول عدد أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيًّا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال العاقب وكان نسطوريًّا : كانوا خمسة

---

(٦٤) الزمخشرى ، المرجع السابق ، صفحة ٤٧٨ .

سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق الله قول المسلمين ، الذين عرفوا ذلك بإخبار الرسول ﷺ على لسان جبريل عليه السلام .

ولا ندرى كيف أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين فى وجود المسيحيين (السيد والعاقب ومن كان معهما من أهل نجران) ولماذا لم يرد هو مباشرة طالما أنه كان جالساً معهم ؟ وقد عرفنا أنه ﷺ كان يبلغ ما نزل عليه الوحى به مباشرة إلى من يهمه الأمر من رجال أو نساء ، دون أن يتخذ فى ذلك واسطة إلا فيما ندر.

ومع ذلك فإن هناك الرواية الأخرى التى تقول إن اليهود قاموا بتحريض قريش على توجيه بعض الأسئلة إلى الرسول بهدف التحقق من صدق نبوته ، من بينها السؤال الخاص بالفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول ، أى أصحاب الكهف ، فنزل الوحى عليه مشتملاً على الإجابة عن أسئلتهم ، ولا ندرى أى الواقعتين أسبق فى الحدوث ؟ هذه الواقعة أم واقعة السيد والعاقب ؟

ونعتقد أن ثبوت حدوث إحدى الواقعتين ، يعنى نفى حدوث الأخرى ، وهذا أمر منطقى ، إذ طالما أن سؤالاً قد طرح وتمت الإجابة عنه فليس هناك ما يبرر إعادة طرحه . فلو أن سؤال قريش كان قد حدث أولاً ، فمعنى ذلك أن كل المسلمين قد علموا بالإجابة التى اشتمل عليها الوحى، بحيث إنه إذا أعاد أحد السؤال، فإن أى مسلم يمكنه ببساطة شديدة أن يقدم له الإجابة، فإذا كان مسيحيو نجران عندما حضروا مع السيد والعاقب قد طرحوا السؤال الذى لم يكن لديهم علم بما نزل من وحى بشأنه، فإن أى مسلم من الحاضرين كان يمكنه أن يرد عليهم دون أن ينتظر وحياً ينزل على الرسول ثم يقوم الرسول بإخبارهم به .

وكذلك إذا كانت واقعة سؤال وفد نجران قد سبقت واقعة سؤال قريش بتحريض من اليهود ، فإن معنى ذلك أنه ما كان بالرسول عليه الصلاة والسلام حاجة إلى انتظار الوحى يحمل إليه الإجابة ، وقد قيل إنه تأخر عليه فعانى من ذلك ما عانى .

لذلك فإننا نرجح أن يكون ما ورد فى سورة الكهف بشأن الفتية ، إنما كان إجابة للسؤال الذى وجهته قريش إلى الرسول ﷺ بتحريض من اليهود ، وليس

كما قيل إجابة لسؤال السيد والعاقب. يؤيد ذلك أكثر من قرينة بل دليل، لا ندرى كيف غفل عنها المفسرون، فمن ناحية يبدو ما أوردوه من جدل زعموا أنه دار بين المسلمين والسيد والعاقب ساذجاً وغير مقنع؛ إذ لم يبينوا لنا لماذا قال كل فريق إن عدد الفتية كان كما زعم: ثلاثة وخمسة وسبعة. فبدا الأمر وكأنه مزايدة لا معنى لها، ومن ناحية ثانية جاء تفسيرهم لقول المسلمين إن عدد الفتية كان سبعة، غريباً فى بابه ومثيراً للدهشة، فلو تصورنا الجدل وقد بدا مما ذكروه أنه كان سريعاً، فالسيد قال: إن عدد الفتية كان ثلاثة، فرد العاقب قائلاً إنهم كانوا خمسة، فرد المسلمون قائلين إنهم كانوا سبعة. كيف؟ يقول المفسرون: إن ذلك بإخبار الرسول ﷺ عن لسان جبريل، وكأنه من عادة جبريل عليه السلام أن يحضر مثل هذه اللقاءات، ليكون فى نجدة المسلمين يمدهم بالإجابات على الفور!!

وكان لتمسك المفسرين بقصة السيد والعاقب أثره الواضح على تفسيرهم، لما ورد فى القرآن عن عدد الفتية، فنسوا أن الله تعالى قال: (سيقولون ثلاثة) أى أنهم سوف يقولون فى المستقبل، ولم يقل «يقولون» أو «قالوا». وهذا منطقى لأن الواقعة الصحيحة والحقيقية هى واقعة سؤال قريش للرسول عن «الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول». وسؤالهم عن «ذى القرنين» وسؤالهم عن «الروح» فى رأى، وعن صاحب الجنتين فى رأى آخر، ولذلك جاءت الإجابة فى القرآن مسبوقة بـ(ويسألونك عن ذى القرنين) وفى الثانية بـ(ويسألونك عن الروح). وقد اقتصرت قريش على السؤال فقط فى انتظار الإجابة لتعرضها على اليهود لينظروا فيها ويروا رأيهم، وما إذا كانت خاطئة أم صائبة، ولذلك جاءت الإجابة فى القرآن شاملة برغم إيجازها الشديد، فصادرت على ما قد يقوله اليهود: «سيقولون ثلاثة.. ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب» فهم لم يقولوا بعد، ومن الواضح أن التفات المفسرين عن واقعة سؤال قريش للرسول ﷺ واقتصارهم على واقعة السيد والعاقب، لم يوقعهم فى هذا الخطأ فحسب، بل أوقعهم فى غيره من الأخطاء، نظراً لرغبتهم، بل حرصهم على أن يبدوا متسقين مع ما غلب على ظنهم من أنه كانت هناك أقوال من هذين الكاهنين لم يزد دور القرآن، فى رأيهم، على الإخبار بها، فقالوا: إن ما ذكره عن عدد الفتية ومدة

لبثهم فى الكهف ليس إلا خبراً عن أهل الكتاب وليس تقريراً، وهذا من أعجب ما يكون، إذ كيف ينزل الوحى على الرسول بما يقوله أهل الكتاب دون أن يرد على سؤالهم ؟! وهل كان هذا هو نفسه أسلوب القرآن فى إجابته عن الأسئلة الأخرى كسؤالهم عن ذى القرنين، وعن الروح ؟

والواقع أن القرآن الكريم لم يذكر عدد الفتية، أو مدة لبثهم فى الكهف، على سبيل التقرير فحسب، بل ذكرها على سبيل الإفحام بأمر لم يكن اليهود ولا المسيحيون يعتقدون أن أحداً يعرفه، فهو فيما ذكره من أعداد حرص على أن يلتزم ترتيباً معيناً لا شك أن له دلالة، كما سبق أن ذكرنا، وقلنا إنه كان ينبغى أن يسترعى انتباه المفسرين، فالأعداد الفردية : ثلاثة وخمسة ثم سبعة لا شك أن لها دلالة، وأقل ما يمكن أن نستنتجه من وجودها على هذا النحو، أنها تعنى أن الشيعة التى كان ينتمى إليها الفتية اتبعت فى تنظيمها لعمل أعضائها، نظاماً يكون عددهم بموجبه فردياً، إما بشكل دائم، أو فى ظروف معينة، فالقرآن إذن لم يذكر هذه الأرقام اعتباطاً أو كيفما كان، وهو بذلك يكون قد كشف لليهود عن سر لا يعلمه إلا القليل، هذا السر يكمن فى تكوين الأعداد على هذا النحو الفريد، الذى يذكرهم بما كان عليه نظام شيعة أصحاب الكهف، وهو النظام الذى سبق أن وصفناه، حتى إذا سمع اليهود الأرقام : ثلاثة وخمسة وسبعة أدركوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام الذى لا علم له بما كانت عليه هذه الشيعة من نظام، إنما هو رسول الله حقاً.

ومما لا شك فيه أن موقفهم كان سيختلف إذا جاءت الأعداد بشكل مختلف، فإنهم كانوا سيقولون إن الرسول إنما يذكر أرقاماً كيفما اتفق له، ولكن القرآن ذكرها لهم كما كانت بالفعل، وهذا يشبه أن يسأل شخص شخصاً آخر عن تكوين جيش فى بلد ما فيقول له : إنه يتكون من سرية وكتيبة ولواء، أو من غير ذلك مما تعرفه الجيوش، وقد تختلف فيه،فلو أنه أجاب بغير ما هو معروف فسوف يثبت كذبه، كأن يذكر نظاماً تطبقه دولة ما على أنه مطبق فى الدولة التى سأله عنها. أو كأن يدلى بأى إجابة كيفما اتفق، وعلى أى حال فالبون شاسع بين هذا المثال وما ورد فى القرآن بشأن عدد الفتية، فنظام الآسينيين وشيعتهم الآبيونيين لم يكن شائعاً ولا معروفاً لأحد من العرب، بل ولا لغيرهم، ففيما عدا قلة من اليهود

والنصارى كانوا قد توارثوا العلم بهذا الأمر، لم يعلم بهذا النظام أحد إلا بعد العثور على لفائف البحر الميت.

وعلى الرغم من وضوح الأمر، فإن بعض المفسرين اعتقاداً منهم بدقة الرواية المسيحية التى ورد فى بعضها أن عدد الفتية كان أكثر من سبعة، ولرغبتهم فى تحقيق المطابقة بين القصة الإسلامية، وتلك الروايات المسيحية لجئوا إلى تأويل الآيات وفسروها بطريقة من شأنها أن تجعلها تحتمل أى عدد تتضمنه الروايات المسيحية، فقد ذكر الطبرى رواية منسوبة إلى ابن عباس قال فيها: إنهم كانوا ثمانية نفر، وذكر المقدسى أنهم كانوا ثلاثة عشر رجلاً، ويقول سيد قطب: «وإنه ليستوى أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة، أو أكثر، وأمرهم موكول إلى الله وعلمهم عند الله، وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه، أو من رؤيته الصحيحة فلا ضرورة إذن من الجدل الطويل حول عددهم» (٦٥). فهو لا يرى أن ما ورد بالآية بشأن عدد الفتية، إنما ورد على سبيل التقرير، وهو ما ذهب إليه أحد رواة قصص القرآن (٦٦) فى تعليق له على ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية حيث قال: «إن القرآن لم ينص على عدد أهل الكهف، ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم، بل أمر الله رسوله أن يقول عن عددهم (ربى أعلم بعدتهم) والملاحظ أن للشيخ عبد الوهاب النجار كتاباً عن قصص الأنبياء، أبدت اللجنة العلمية التى ألفها عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر للنظر فى الكتاب، رأيها فيه وكان مما قالته: «إنها لا ترى تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم لأسباب أهمها أن مؤلفه تعسف فى التأويل، وخرَّج الآيات القرآنية تخريجاً بعيداً إن لم يكن باطلاً، فخالف بذلك إجماع المفسرين، ولم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحاً، ومع ذلك يتصرف فيما ينقل من أقوال، وينكر بعض الأحاديث الصحيحة ليحكم عقله، ويجعل التوراة والإنجيل مهيمنين على القرآن» (٦٧).

وفيما قاله ابن تيمية (٦٨) تفسيراً لهذه الآية، الرد الكافى على أصحاب الرأى

(٦٥) فى ظلال القرآن، المرجع السابق، صفحة ٢٢٦٥.

(٦٦) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث صفحة ٤٥٦، تعليق الشيخ عبد الوهاب النجار.

(٦٧) راجع مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار.

(٦٨) مقدمة فى أصول التفسير، صفحة ٤٧.

القائل بأن عدد الفتية لم يذكر على سبيل التقرير، وإنما على سبيل الخبر عن أهل الكتاب، فهو يقول: «فقد اشتملت الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ماينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده على ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: (قل ربى أعلم بعدتهم) فإنه مايعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال:

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٦٩).

أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنه لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب، فهذا أحسن مايكون فى حكاية الخلاف، وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل عن الأهم، فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فيما تركه، أو يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً، فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، ويرجع حاصلها إلى قول، أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وأكثر مما ليس بصحيح، فهذا كلابس ثوبى زور».

كذلك يقول المودودى (٧٠) فيما ورد بالآية: ومع ذلك يغلب على الظن بأن عددهم الصحيح سبعة فتية؛ لأن الله تعالى لم ينفه أو يدحضه.

كذلك اختلف المفسرون فى تفسير قوله تعالى: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) فمنهم من عده خبراً عن بعض الناس وليس قول الله وتقريره. ودليلهم على ذلك أن الله تعالى يعلق بعد ذلك مباشرة بقوله: (قل الله أعلم بما لبثوا) فلو كان العدد المذكور تقريراً من الله، لما كان لقوله بعد ذلك

---

(٦٩) سورة الكهف، الآية ٢٢.

(٧٠) المرجع السابق، صفحة ٢٨.

مباشرة: (قل الله أعلم بما لبثوا) معنى قط. وهو قول لقتادة ومطرف بن عبد الله اللذين قالا: إن هذا القول حكاية لكلام أهل الكتاب، وهو رأى بعض المحدثين، ومنهم المودودى، والشيخ النجار الذى سبق أن أشرنا إليه والذى قال فيه: «أكثر المفسرين تعتبر أن قوله تعالى: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) خبر عن مدة مكث أهل الكهف فى كهفهم منذ دخوله إلى أن استيقظوا، ولكنى أفهم غير ذلك وأقول إن قوله: (ولبثوا) إلخ معمول لقوله: (سيقولون ثلاثة) إلخ فهو من مقول السائلين وليس خبراً من الله تعالى، ولذا أتبع ذلك القول بقوله: (قل الله أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل). وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم، بل أمر الله رسوله أن يقول عن عددهم (ربى أعلم بعدتهم) وأن يرد عليهم حين يقولون: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) بقوله: (الله أعلم بما لبثوا). وقد ورد هذا القول عن ابن عباس. غير أن ما قاله الشيخ النجار ليس له وجود فى تفسير ابن عباس، بل إن الثابت بأسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنه قال: إن عددهم كان سبعة، وهو موافق لما ذكرت الآيات ولم يقل إنه خبر عن أهل الكتاب. أما قوله تعالى: (قل الله أعلم بما لبثوا) فمعناه أنه تعالى أعلم من الذين اختلفوا فى مدة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به (٧١).

ولابن كثير رأى وإن اتفق فيه مع الزمخشرى إلا أنه يختلف معه بشأن معنى (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) فهو يقول: «هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية، وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية. فإن تفاوت ما بين كل مائة (سنة) بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا تسعاً) ويقول: وهذا الذى قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف» (٧٢).

ومن هذا الرأى الأستاذ سيد قطب الذى يقول: «وإلى هنا لم نكن نعلم:

---

(٧١) الزمخشرى، المرجع السابق، صفحة ٤٨١.

(٧٢) المرجع السابق، صفحة ١٤٦.

كم لبث الفتية، فلنعرفه على وجه اليقين» ويذكر الآية، ثم يقول: «هذا هو فصل الخطاب فى أمرهم، يقرره عالم غيب السموات والأرض» [٧٣].

ومن الذين أدلوا برأى فى هذا الموضوع شيخ الإسلام ابن تيمية [٧٤] ففى رده على ما ذكر ابن البطريق، من أن الفتية لبثوا فى الكهف مائة وسبعاً، أو تسعاً وأربعين سنة قال: «هذا مما أخطأ فيه، فإن الله تعالى أخبر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، لكن بعض المفسرين زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله (الله أعلم بما لبثوا) وليس كذلك، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب بل ذكره كلاماً منه تعالى».

أما الأستاذ محمد محمد عبداللطيف (ابن الخطيب) [٧٥] فإن له رأياً فيما قاله ابن كثير تفسيراً لقوله تعالى: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) من أن التسعة تمثل الفرق بين التقويمين الشمسى والقمرى، وهو ما ردده من بعده بعض المحدثين فهو يقول: «إن ما تضمنته بعض التفاسير المحدثة والقديمة تأويلاً لقوله تعالى عن أصحاب الكهف: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) إن «ثلاثمائة» بالتاريخ الميلادى وثلاثمائة وتسعة بالتاريخ الهجرى [٧٦] هو تكلف لا داعى له البتة يتنافى مع لغة العرب التى نزل بها القرآن، وإنما المعقول المقبول فى التأويل عند ذوى العقول: أن الله تعالى بعثهم من مرقدهم على رأس الثلاثمائة من السنين، وكان من أمرهم ما كان! ثم أنامهم تسع سنين أخرى فى كهفهم ثم أماتهم كما يميت غيرهم».

وعلى الرغم من وجاهة تأويل الأستاذ (ابن الخطيب) فإنه لم تتضح فيه الحكمة من إنامة الله للفتية تسع سنين أخرى زيادة على الثلاثمائة، والأقرب إلى التصور أن يكونوا قد لبثوا فى الكهف بعد استيقاظهم لمدة تسع سنين أخرى، بعد أن أعثر الله تعالى الناس عليهم، وهذا هو الأقرب إلى المنطق، حيث إن سياق

---

(٧٣) فى ظلال القرآن، صفحة ٢٢٦٦.

(٧٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الجزء الثالث، صفحة ٣٤.

(٧٥) حقائق ثابتة فى الإسلام، صفحة ١٣٩.

(٧٦) الصحيح «التقويم القمرى» لأنه عند نزول آيات سورة الكهف، بل والقرآن كله، لم يكن العرب قد عرفوا ما يسمى بالتقويم الهجرى الذى لم يبدأ استعماله إلا فى عهد عمر بن الخطاب.

الآيات لا يبين منه ما إذا كانوا قد ماتوا عقب العثور عليهم أم أنهم ماتوا بعد ذلك بتسع سنين كما يقول الاستاذ (ابن الخطيب) فالآية تقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾

ويعقب العثور عليهم التنازع بشأنهم:

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾

مما يفهم منه أنهم ماتوا عقب العثور عليهم. وطبقاً لما قاله ابن الخطيب، فإن استيقـاظ الفتية أعقبه نقاشهم فى المدة التى لبثوها فى الكهف، ثم صدر الأمر من قائدهم بذهاب أحدهم إلى المدينة لشراء الطعام، فلا يتصور أن يعودوا إلى النوم مرة أخرى، إلا إذا كان يعتقد أن الله أراد أن يشاهد الناس ويعاينوا حالهم وهم نائمون لمدة أخرى بلغت هذه المرة تسع سنين، وهذا مالا نعتقد أنه يفيد فى شىء وإنما المفيد أن يشاهدهم الناس وقد عادوا إلى الحياة والحركة فى كهفهم، وربما يكون ذلك أدعى إلى تصديقهم حيث إنه لا يكفى ظهور أحدهم فى سوق المدينة وقد ارتدى ثياباً ترجع إلى زمن مضى، سواء أكان قرنين أم ثلاثة، وحمله نقوداً قديمة لتصديقه فيما يقوله من أنه كان نائماً هو وزملاؤه كل هذه المدة فى أحد الكهوف، وهو ما زعمت القصة المسيحية أنه حدث فأدى إلى تصديق وجوه المدينة بما قاله الفتى، وبادروا إلى إخطار الملك بالأمر فحضر على الفور لرؤية المعجزة! فهذا القول من (چيمس الساروجى) يدل على السذاجة، أو على الأقل حسن النية، وهو مالم نعرفه فى هؤلاء القوم، فكهذا ـ وببساطة شديدة، ولمجرد وجود قطع من النقود ترجع إلى عهد بعيد مع شخص ما يرتدى ثياباً قديمة، ترجع إلى قرنين مضيا، وهو تقدير المسيحيين للمدة التى لبثها الفتى فى الكهف ـ يبادر الناس إلى الإيمان بأن الفتية كانوا نياماً كل هذه المدة، وأنهم يمليخا ومكسميلينا وغير ذلك من أصحاب الكهف الذين وردت أسماؤهم بالقصة المسيحية، وعنها نقلها بعض المفسرين المسلمين، وأى أناس أولئك الذين صدقوا القصة! إنهم ثيودوسيوس وشيعته من أتباع (بولس) الذين لم يؤمنوا بما هو أقرب إلى التصديق من ذلك الذى قاله الفتية. إنهم لم يصدقوا أن الله قادر على أن يغفر الذنوب

والخطايا والآثام إن شاء، وزعموا أنه لكى يسقط عن ذرية آدم عليه السلام الخطيئة التى ارتكبها بمعصيته الله تعالى، والتى انتقلت إلى هذه الذرية من بعده، فقد اضطر، أى الله، تعالى عن ذلك علوا كبيراً، إلى أن يبعث ابنه، فى قول، وأن ينزل هو بنفسه فى قول آخر ليدخل رحم أنثى من البشر ثم يولد، ثم يمر بمراحل النمو المتتالية، حتى إذا بلغ مرحلة الرجولة بدأ يدعو الناس إلى التوبة والخير والحب والرحمة، ثم إذا به يُقبض عليه ويحاكم وينفَّذ فيه حكم الإعدام فيموت مصلوباً من أجل أن يفدى البشرية بدمه ويُسْقِط عنهم خطيئة آدم!. فلم أنهم كانوا بالبساطة التى تصور المفسرون المسلمون أنهم عليها لكفوا أنفسهم مئونة التحايل واللف والدوران، والدخول فى تفسيرات أشد غموضاً من الفكرة ذاتها، ولاعترفوا أن المسيح ليس ابنا الله، وأنه مجرد بشر اختاره الله لإبلاغ رسالته، فهل يتصور عاقل أن مثل هؤلاء الناس، الذين دفعتهم المكابرة والتمسك بالباطل إلى حد الشرك، أن يؤمنوا هكذا وببساطة بما قاله فتى يحمل نقوداً قديمة، ويرتدى ثياباً تنتمى إلى عصر غير العصر، ويصدقوا زملاءه حين قالوا لهم إنهم كانوا نياماً لمدة قرنين تقريباً، ثم استيقظوا! هذا مالا يمكن تصوره، ولو أنه حدث لكان عدول أتباع بولس عن غيهم أسهل، ولآمنوا بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد، ولكنهم للأسف لا يزالون سادرين فى غيهم، بل إنهم يزدادون مع الوقت عناداً ومكابرة.

فالأقرب إلى التصور إذن أن الفتية الذين ظلوا فى الكهف ثلاثمائة سنة استيقظوا واستأنفوا حياتهم فى الكهف لمدة تسع سنين، فإذا نفس الناس الذين شاهدوهم بالأمس، والذين سمعوا بهم من آبائهم يشاهدونهم وقد استيقظوا وتحركوا، إنها المعجزة الحية التى كان مسرحها أحد الكهوف، والتى كان أبطالها فتية مؤمنين.

أما مايقال عن النقود، فإن المعروف أن تداولها فى الأزمنة القديمة لم يكن مرهوناً بوجود ملك معين فى الحكم أو عدم وجوده، ومن يقرأ التاريخ فسوف يجد أن نقوداً ترجع إلى عهود قديمة تصل إلى قرون ظلت متداولة هنا وهناك، دون أن يشك أحد فيمن يحوزها أو يرتاب فيمن يتعامل بها. ولنا أن نتصور الآن أن شخصاً ما ظهر فجأة وقد ارتدى ثياباً قديمة ترجع إلى العصر المملوكى، ويحمل

نقوداً ترجع إلى ذلك العصر، وادعى أنه كان قد أوى إلى كهف من كهوف جبل المقطم، حيث ظل نائماً فيه مدة لا يعلمها وأنه استيقظ ليجد نفسه وسط أناس لا يعرفهم، فهل سنصدقه حتى لو قدَّم لوحاً أو رقيماً كتبت عليه قصته؟ لاشك فى أننا سوف نرجح أن يكون قد عثر على النقود وكذلك الثياب فى مكان ما ككهف أو قبر قديم.

وإذا كان الله تعالى قد أشار إلى (الورق) أى النقود التى كانت مع الفتية، فإنما فعل ذلك للدلالة على أن الفتية عندما أووا إلى الكهف لم يتصوروا أنهم سوف يقضون فيه كل هذا الوقت نائمين لا يحتاجون إلى طعام أو شراب، فحملوا معهم نقوداً لمواجهة متطلبات الحياة، فهم كما قال البعض لم يكونوا متواكلين ينتظرون أن يأتيهم الطعام بلا سبب أو بدون سعى.

كذلك فإن ذكر نقود فى القرآن له أكثر من دلالة، فهو من ناحية يصور لنا الحال التى كان عليها الفتية عندما اتخذوا قرارهم بالاختفاء فى الكهف، فهم شأنهم شأن كل هارب من خطر محدق به لم يفكروا فى حمل متاع قد يثقلهم ويقلل من سرعتهم فى الهرب، أو ربما كان الخطر المحدق بهم مباغتاً وسريعاً بحيث لم يجدوا أمامهم وقتاً لجمع ما يحتاجون إليه، فاكتفوا بالنقود باعتبار أنه بواسطتها يمكنهم أن يشتروا ما يحتاجون إليه.

كذلك يبدو أن الوقت القليل الذى كان متاحاً لهم للهرب إلى الكهف، لم يمكنهم من شراء طعام يقتاتون به أثناء وجودهم فى الكهف، أو أنهم لم يكونوا فى حالة ذهنية أو نفسية تسمح لهم بالتفكير فى الطعام أو فى غيره، وكل ما كانوا يفكرون فيه هو الإفلات من الخطر الداهم، وهذا شأن كل إنسان يواجه خطراً عظيماً أو تتهدده مصيبة جُلى، فهو يحصر تفكيره فى كيفية الخلاص منها، فإذا كان مؤمناً، كما كان حال الفتية، فإنه يضرع إلى الله ويدعوه لكى يخلصه مما يوشك أن يصيبه، وهو ما فعله الفتية حالما استقر بهم المقام فى الكهف، حيث أخذوا يضرعون إلى الله تعالى قائلين:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (٧٧).

---

(٧٧) سورة الكهف، الآية ١٠.

فهم فى حالتهم التى كانوا عليها يلتمسون من الله أن يرحمهم وأن يسدد خطاهم ويرزقهم الرشد حتى لا يضلوا .

كذلك فإن قول رئيسهم لهم : ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾

يدل على أن ما كان مع الفتية من نقود كان مملوكاً لهم ملكية جماعية ، وليس ملكية فردية بحيث يحتفظ كل منهم بنقوده فى حوزته ، ثم يساهم منها بنصيب حينما يحتاجون إلى شراء شىء . وهذا يتفق مع ما كان عليه نظام جماعة الآسينيين التى كانت تؤاخى بين أعضائها اثنين اثنين ، فإذا انضم الاثنان إلى اثنين آخرين أو أكثر شملهم النظام الجماعى السائد فى الجماعة التى لم يكن فيها مكان للإنسان الفرد .

فمعاً يأكلون ، ومعاً ينامون ، ومعاً يدرسون ويتعبدون ويصلون ، ومعاً يواجهون الخطر ، ومعاً يموتون ، وكل ما لديهم من مال أو متاع أو طعام ملك للجميع لا لواحد ، حتى ولو كان هو الذى جاء به أو اشتراه ، أو حصل عليه بأى طريقة ، وللجميع نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، والامتياز لا يكون بالأمور المادية ، ولكن بالمكانة التى أحرزها العضو بواسطة الدرس والتحصيل والعبادة والعمل فى سبيل الجماعة والالتزام بنظامها ومبادئها. فهم فيما بينهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، يتعانون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان ، وكيف لا وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

فتية آمنوا بالله الواحد لا بالثالوث كما زعم المفسرون الذين نقلوا عن المصادر المسيحية بدون تمحيص أو إعمال نظر ، فينتهى بهم الأمر إلى الوقوع فى التناقض .

وفيما يتعلق بما قاله بعض المفسرين تفسيراً لقوله تعالى : (قل الله أعلم بعدتهم) وقوله : (قل الله أعلم بما لبثوا) من أن ما ذكره الله بشأن عددهم والمدة التى لبثوها فى الكهف إنما جاء على سبيل الخبر عن النصارى أو اليهود ، الذين قالوا إن عددهم سبعة وإنهم لبثوا فى الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، فإنه

بالإضافة إلى ما ذكره المفسرون الذين يقولون خلاف ذلك ، أى أن الله إنما ذكر هذا خبراً منه سبحانه وليس إخباراً بما قاله اليهود والنصارى ، إن ما ورد بكتب السيرة النبوية من أن مشركى قريش بعثوا باثنين منهم ليسألوا يهود يثرب عن أشياء أو أمور يسألون بشأنها محمداً لعلهم يكشفون ادعاءه النبوة ، واتصاله بخبر السماء . فما كان من اليهود إلا أن أشاروا عليهما بأن يسألوه عن ثلاثة أشياء ، وكان من بين الأشياء الثلاثة أمر الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول ، فإذا صحت هذه الرواية ، وهى على ما يبدو صحيحة ؛ لأن الجواب جاء فى القرآن الكريم بشأن ذى القرنين والروح وقد استهل بـ(ويسألونك عن ذى القرنين) ، وبـ(يسألونك عن الروح) مما يدل على أنه كانت هناك أسئلة وجهت إلى الرسول ﷺ بشأن بعض الأمور.

والمعروف أنه إذا تلقى شخص سؤالاً عن أمر ما ، فإنه يجب عليه أن يقدم ردًّا محدداً وواضحاً ، حتى لا يتهم بالكذب فيما يدعيه من قدرة على الاتصال بمن لديه العلم بهذا الأمر، أو بما يدعيه لنفسه من علم . فما بالنا إذا كان هذا الشخص يقول إنه نبى ، وإنه يأتيه خبر السماء بواسطة الوحى ، لا شك أنه يكون أشد التزاماً من غيره بتقديم الجواب الحاسم والواضح والدقيق على ما وجه إليه من أسئلة ، لكيلا يترك أى فرصة للشك فى نبوته ، ويقضى على كل فرصة قد تثير الارتياب فى أمره ، وإلا فإنه سوف يظهر أمام السائلين وأمام غيرهم ممن يراقبون الموقف بحذر فى انتظار حسم الأمر، سواء له أو عليه ، بمظهر الكاذب الدعى ، ومن ثم يفقد كل شىء .

والذى لا شك فيه أيضاً أن الرسول ﷺ، وكذلك العرب عامة كانوا يعلمون أن اليهود عندهم علم بأحداث وقعت فى الأزمنة الغابرة ، فلو أنه ، أى الرسول ﷺ، لم يأت بجواب عن أسئلتهم ، أو أتى بإجابات غير صحيحة أو غير واضحة ومحددة ، فإنه سوف يظهر بمظهر من لا أساس صحيح لقوله إنه رسول الله وعلى اتصال بالوحى ، ومقتضى قول هذا الفريق من المفسرين الذين فسروا الآيتين ، أن ما ورد بشأن الفتية من حيث عددهم ومدة لبثهم فى الكهف إنما جاء على سبيل الإخبار عما كان يقوله اليهود والنصارى ، أن محمداً ﷺ لم يقدم الجواب عن سؤالهم ، *فلم يقل لهم: كم كان عدد الفتية ، ولا كم من الزمن لبثوا فى الكهف ،*

وهما بيانان من أهم بيانات القصة ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القصة ذاتها جاءت موجزة أشد الإيجاز، وفى أسلوب مجرد تكاد تخلو من التفاصيل ، فإن معنى هذا أن الرسول ﷺ لم يقدم إجابة شافية ومحددة للسؤال الذى وجه إليه ، وهذا غير متصور لأنه يشبه أن تسأل شخصاً ما عن عدد الأفراد فى مكان ما فيرد عليك قائلاً : إنهم يقولون : إن عددهم كذا أو كذا ، وينسى أنه قال إنه يعرف عددهم ، أو إنه بوسعه أن يعرفه لأنه على اتصال بمن يعرف كل شيء ويعلم كل شيء ، وأنه يأتيه الوحى بخبر السماء والأرض ، فإذا به لا يعرف كيف يجيب عن سؤال كهذا ، بل وأكثر من سؤال ، حيث إن إجابته عن السؤال الخاص بالروح اكتفى فيه بالقول إن علمها عند الله تعالى ، فإذا كان موضوع الروح سرًّا من الأسرار التى اختص الله بها نفسه فليس كذلك عدد الفتية ولا المدة التى لبثوها فى الكهف .

لذلك فإن البيان الخاص بعدد الفتية وبمدة لبثهم ، إنما هو خبر عن الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، يؤيد هذا أننا لا نجد فيما ورد بالروايات المسيحية بياناً مماثلاً للبيان الخاص بالمدة التى لبثوها فى الكهف ، وقد سبق أن ذكرنا ما قيل فى هذا الصدد وهو ولا شك قد جاء على سبيل التحديد خاصة ، وأن هذه الروايات تزعم أن الفتية لجئوا إلى الكهف فى عهد ملك يدعى (ديكيوس) معروف تاريخه ومدة حكمه ، وأنهم استيقظوا فى عهد ملك يدعى ثيودوسيوس معروف تاريخه أيضاً وكذلك مدة حكمه ، والخلاف بين بعض هذه الروايات وبعضها ، فيما يتعلق بمدة لبث الفتية فى الكهف ، إنما يعود سببه إلى طول مدة حكم الملك الأخير، أى ثيودوسيوس الذى ولى الحكم لمدة بلغت ثمانية وأربعين عاماً ، مما جعل القول بأن الفتية استيقظوا فى عهده يحتمل معه القول بأنهم استيقظوا فى أول حكمه أو فى منتصفه أو فى نهايته ، وفى كل مرة تختلف المدة اختلافاً واضحاً ولكنها لم تبلغ قط فى كل ما ذكر من روايات مسيحية عن الفتية ، الرقم الذى ورد فى القرآن على سبيل التحديد : (ثلاثمائة سنين وزادادوا تسعاً) .

كذلك فإننا لم نقرأ فيما ورد فى كتب السيرة أو فى غيرها أن أحداً سواء كان يهوديًّا أو نصرانيًّا اعترض على ما ذكره القرآن الكريم بشأن عدد الفتية ، وذلك خلاف ما حدث بالنسبة لقصة موسى والعبد الصالح ، حيث حاول أحد اليهود الذين أسلموا أن يشكك فى شخصية موسى عليه السلام فقال : إن موسى الذى

كان مع العبد الصالح ليس هو موسى نبى إسرائيل وإنما هو موسى آخر، وهو ما ذكره مسلم فى صحيحه (٧٨).

وقد عرفنا أن القصة المسيحية قد حددت عدد الفتية فى عنوانها «نيام أفسوس السبعة» مما يدل على أنه فى الوقت الذى سمع فيه «جيمس الساروجى» بالقصة فى بلده بالعراق، بعد أن وصل خبرها إليه قادماً مع المسافرين من فلسطين والأردن والشام، كان عدد الفتية الذين وقعت لهم المعجزة معروفاً لعدد من الناس، أما المدة التى لبثوها فى الكهف فلم تكن معروفة على وجه التحديد، نظراً لأن التاريخ الذى لجأ فيه الفتية إلى الكهف لم يكن معروفاً على

---

(٧٨) ورد فى مسلم مرفوعاً إلى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوفاً البكالى (نسبة إلى بنى بكال بطن من حمير) يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بنى إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام، فقال: كذب عدو الله، سمعت أُبَىَّ بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قام موسى عليه السلام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: أى ربى كيف لى به؟ فقيل له: احمل حوتاً فى مكتل (القفة أو الزنبيل) فحيث تفقد الحوت فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام حوتاً فى مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوت فى المكتل حتى خرج من المكتل فسقط فى البحر، قال: وأمسك الله عنه جرية الماء حتى كاد مثل الطاق، فكان الحوت سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ونسى صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذى أمر به، قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً، قال يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة فرأى رجلاً مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: انى بأرضك السلام. قال أنا موسى، قال موسى نبى إسرائيل؟ قال: نعم. قال إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، قال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً؟ قال إنك لن تستطيع معى صبراً، وكيف تصبر على مالم تحط

قال أنا موسى، قال موسى نبى إسرائيل؟ قال: نعم. قال إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، قال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟ قال إنك لن تستطيع معى صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً إلى آخر القصة كما وردت فى القرآن الكريم.

سبيل التحديد، وهو ما أعطى لهذا القس ولغيره الفرصة للاختلاق والادعاء بأن الفتية إنما لجئوا إلى الكهف فى عهد (ديكيوس) وإنهم استيقظوا فى عهد ثيودوسيوس. فلو أن ما ذكره القرآن لم يكن واضحاً ومحدداً ما سكت أعداء الإسلام ولانبروا لتفنيده، ولقارنوا بينه وبين ما يحتفظون به تحت أيديهم من أدلة وبراهين لدحض ما ذكره الرسول ﷺ، ولكن نظراً إلى أنهم لم يكونوا يعرفون عن القصة إلا ما سمعوه نقلاً عن آخرين لم يعاصروها بدورهم، فإن القرآن قد جاءهم بالخبر اليقين لا بشأن عدد الفتية وحسب، ولا بشأن المدة التى لبثوها فقط، بل قدّم لهم وصفاً جليا وواضحاً للكهف وللفتية بداخله وهكذا، فلم يملكوا إلا أن يلوذوا بالصمت.

أما فيما يتعلق بإجابة الرسول ﷺ عن السؤال الخاص بالروح، وأنها من أمر الله:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٩).

فإن هذه الإجابة لم تأت هكذا اعتباطاً أو لمجرد الهروب من السؤال بعد العجز عن الإجابة عنه، ولكنها جاءت عن قصد وبثقة كاملة؛ لأن أحداً من البشر سواء اليهود أو غيرهم كان لديه علم بأمر الروح، ومن ثم فإنه لم يكن بمقدورهم أن يردوا على الرسول ﷺ بما لديهم من علم مزعوم بشأن الروح، أما المسائل الأخرى التى تقبل بطبيعتها إحاطة علم الإنسان بها، كالأحداث التاريخية والأخبار وغيرها، فإن الرد عليها لا ينبغى أن يكون غامضاً أو مبهماً أو فيه مراوغة؛ لأن احتمال وجود معلومات صحيحة لدى أصحاب السؤال يعرض المسئول للفضيحة بعد أن يظهر عجزه عن تقديم الإجابة الصحيحة، وكذبه فيما أدلى به من إجابة.

---

(٧٩) سورة الإسراء، الآية ٨٥.



خلاصـــــة :

فى ضوء ما تقدم من تحليل ونقد لقصة « نيام أفسوس السبعة » يمكننا أن نقدم تصوراً لما نعتقد أنه القصة الحقيقية لأصحاب الكهف ، نستمد عناصره من الظروف والأوضاع والملابسات المختلفة التى اشتملت عليها الدراسات التاريخية ، سواء منها ما كان قديماً أو ما كان حديثاً .

ومما لاشك فيه أن العثور على ما يسمى بلفائف خربة قمران ، التى تشتمل على جزء هام من تاريخ طائفة الآسينيين التى ينتمى إليها فتية الكهف ساعد إلى حد كبير فى تكوين بناء القصة بشكل سليم ومتسق ، كما أنه أدى فى الوقت نفسه إلى كشف التزوير الذى قام به « چيمس الساروجى » وغيره من أساقفه الكنيسة الكاثوليكية ، عندما انتحلوا الفكرة الأساسية للقصة ، وهى نوم الفتية فى كهف لمدة طويلة ، ثم نسجوا لها قصة لا أساس لها ادعوا أن أحداثها وقعت فى « أفسوس » وأن أبطالها فتية يونانيون يؤمنون بعقيدة التثليث ، على ما بينا فى صلب الدراسة وللأسف فقد نقل عنهم المفسرون والمؤرخون المسلمون هذا السخف ، وحاولوا جاهدين أن يوفقوا بينه وبين القصة القرآنية ، وعلى الرغم من استحالة هذا التوفيق مما اضطرهم إلى تأويل الآيات بطريقة واضحة الافتعال ، ترتب عليها الادعاء بأن الله تعالى لم يحدد فى قرآنه لاعدد الفتية ولا المدة التى لبثوها فى الكهف ، لالشىء إلا لأنهم وجدوا أن الروايات المسيحية اختلفت فيما بينها بشأن عدد الفتية ، كما اختلفت مع القرآن بشأن المدة التى لبثوها فى الكهف ، فما كان منهم إلا أن لجئوا فى حل المشكلة إلى إنكار أن يكون ما ورد من آيات فى هذا الصدد خبراً عن الله تعالى ، وزعموا أنه خبر عما كان يقوله اليهود والنصارى .

وفاتهم أنه لا اليهود ولا النصارى قالوا إن المدة هى «ثلاثمائة سنين وتسعاً»، ولا أجمعوا على أن عدد الفتية كان سبعة.

ليس هذا وحسب، بل إنهم تغاضوا عن حقائق كثيرة، إما عن غفلة، وإما عن جهل بالحقائق التى لم تكن متاحة لهم فى ذلك الوقت، فما غفلوا عنه أن الفتية كانوا مسلمين يؤمنون بالمسيح بشراً رسولا، ويعبدون الله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكونوا من المسيحيين الذين يعبدون الثالوث، أما ما جهلوه فهو أن الملك «ثيودوسيوس» الذى قالوا عنه: إنه كان مسلماً صالحاً، لم يكن كذلك بل كان مشركاً فاسداً، على ما أوردنا عنه فى هذه الدراسة نقلاً عن المؤرخين الغربيين.

أما بعد أن توفرت معظم المعلومات التاريخية عن الفترة التى وقعت فيها حادثة الكهف، فإنه يمكننا أن نقدم التصور التالى لقصة الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول وهى كالآتى:

بعد أن رفع الله المسيح واجه الحواريون ظروفاً صعبة فى محاولتهم الاستمرار فى الدعوة إلى ما جاء به السيد المسيح، وما ذلك إلا لأن اليهود شنوا حملة من الإرهاب والاضطهاد على أبناء دينهم الذين آمنوا بالمسيح بشراً رسولاً، واضطر الحواريون إلى الخضوع للمجلس الأعلى اليهودى «السنهدرين» وإظهار الالتزام بأوامره حتى لا يتهمهم بالخروج على الناموس، ثم لما ضاقت بهم السبل فى فلسطين، ولمسوا استحالة القيام بالدور الذى سبق أن التزموا به أمام السيد المسيح، فى ظل الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، اضطروا إلى التفرق فى البلاد المجاورة للدعوة إلى مبادىء المسيح بين أهلها.

وحدث فى ذلك الوقت أن أعلن «بولس» إيمانه بمبادىء المسيح عليه السلام، ولكنه ما لبث أن زيف هذه المبادىء، بأن ادعى أن المسيح ليس بشراً رسولاً، ولكن إله وابن إله، فجعله بذلك شريكاً لله تعالى فى ملكه، وعلى الرغم من كراهية اليهود الذين بقوا على يهوديتهم للمسيح ولمبادئه، فإنهم أبدوا تساهلاً ملحوظاً مع الذين اعتنقوا مبادىء «بولس» باعتبار أن ذلك من شأنه أن يبقى عليهم كأصحاب الدين الوحيد الذى يدعو إلى التوحيد، وبالتالى يحفظ لهم

وضعهم كشعب الله المختار. وهذا كان ولا يزال دأب اليهود منذ أيام موسى عليه السلام، وهو ما تكرر عند ظهور الدعوة المحمدية، فقد وقفوا ضدها وحرضوا كفار قريش للقضاء عليها، على الرغم من أن الإسلام يدعو إلى عبادة الله الواحد الذى زعموا أنهم يعبدونه، فى حين أن الكفار مشركون يعبدون الأصنام ولذلك يلاحظ أن اليهود فى تاريخهم الطويل لم يلجئوا إلى التبشير بدينهم فى أى وقت من الأوقات، ولا فى أى مكان، كما أنهم لا يرحبون بمن يرغب فى الدخول فى دينهم مفضلين أن يبقوا على الوضع الذى هم عليه، من حيث قلة العدد والضعف، على أن ينضم إليهم من ليسوا من أصل يهودى، وما ذلك إلا لأنهم جبلوا على الأنانية وحب الذات والجشع والطمع وكراهية الخير للناس، والرغبة فى الاستئثار بما غلب على ظنهم أنه تفضيل الله لهم، وإيثارهم بالجنة دون غيرهم من الشعوب.

وعلى الرغم من تفشى مبادىء «بولس» التثليثية بين من سبق لهم اعتناق المسيحية، ومن اعتنقوها حديثاً، فقد بقيت طائفة صغيرة من اليهود كانت موجودة قبل ميلاد المسيح عليه السلام بقرن أو يزيد هى طائفة «الآسينيين» آمن أعضاؤها بدين موسى وتمسكوا بناموسه، ورفضوا الانحراف عنه مع الطائفتين اليهوديتين، الكبيرتين، الصدوقيين والفريسيين، واعترضوا على ممارسات الأحبار التى يراعون فيها الشكل دون المضمون، ويتخذون من ذلك مبرراً لارتكاب كل الموبقات كالتعامل بالربا وأكل مال اليتامى والبغاء والكذب والنفاق والرياء.

فلما جاء المسيح لم تنكره طائفة الآسينيين، بل آمنت به بشراً رسولاً، واتبعته هى وطائفة «النذريين» أو «الناصريين» التى عرفت فى التاريخ باسم «النصارى» وما زالت تطلق على المسيحيين أتباع «بولس» التثليثيين إلى الآن على سبيل الخطأ، على الرغم من الاختلاف العظيم بين هؤلاء وأولئك، ولقد لقيت الطائفتان من اضطهاد اليهود وعنتهم وظلمهم الكثير، إلا أن هذا لم يزدهم إلا تمسكاً بعقيدة التوحيد، ولم يلبث المسيحيون من أتباع «بولس» أن انضموا إلى اليهود فى اضطهاد وملاحقة طائفة الآسينيين، وكذلك طائفة النصارى أو النذريين، وكان ذلك حوالى سنة ٤١ ميلادية عندما قتل المدعو يعقوب بن زبيدى فقبض على بطرس ولكنه فر، ثم قتل يعقوب العادل فى عام ٦٢، وبعد

أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما وأيقن المسيحيون المقيمون فى «أورشليم» أن نهاية العالم قد دنت، فلم يأبهوا بالشئون السياسية وخرجوا من المدينة وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن (مملكة الأنباط) وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة، فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد (تيطس) تحقيقاً لنبوءة المسيح، وكان ذلك عام ٧٠ ميلادية.

وفى عام ١١٥ — ١١٦ ميلادية قام اليهود بثورة قتلوا فيها غير اليهود، ووجهوا انتقامهم بالذات إلى طائفة «الآسينيين» التى كانت قد انتقلت لتقيم فى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وفى المنطقة التى أصبحت تعرف بـ(خربة قمران) حيث عثر على ما يسمى بلفائف البحر الميت أو لفائف خربة قمران فى العقد الرابع من هذا القرن، وهى مخطوطات هامة يبدو أن الآسينيين كانوا قد بادروا إلى وضعها فى جرار، وأخفوها فى المغارات المنتشرة فى المنطقة، عندما أدركوا أن مستوطنتهم وحياتهم أيضاً توشك أن تتعرض لخطر عظيم ماحق من جانب اليهود الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر، وتشتمل هذه المخطوطات على الكثير من مبادئهم ونظمهم وتاريخهم وأحوالهم وأوضاعهم.

والغريب فى الأمر أنه عقب العثور على تلك المخطوطات، وكان ذلك بواسطة أحد الأعراب- أن يبادر اليهود إلى شرائها، وكذلك بعض الهيئات الأمريكية حيث حرص هؤلاء وأولئك على إخفائها، ومنع العلماء من الاطلاع عليها، وكان هدفهم من ذلك إخفاء ما تتضمنه من حقائق تاريخية بالغة الأهمية، من شأنها لو أنها ظهرت أن تفضحهم وتكشف عن أكاذيبهم الكثيرة، وتؤيد ما جاء فى القرآن الكريم من آيات وبالذات بالنسبة لأصحاب الكهف، ومع ذلك فقد استطاع بعض الباحثين أن يطلعوا على بعض الأجزاء الهامة من هذه المخطوطات، وأن يدرسوها، فخرجوا على العالم ببعض الحقائق التاريخية عن طائفة الآسينيين كانت خافية على الناس. وقد ثبت من حفائر (خربة قمران) أن طائفة الآسينيين ظلت تقيم بالمنطقة حتى عام ٧٠ ميلادية، حيث خربت على أيدى اليهود، ومنذ هذا التاريخ انتقلت الطائفة إلى شرق الأردن، وبالذات فى المنطقة القريبة من (عمان) التى كانت تسمى (فيلادلفيا) وامتداداً إلى عاصمة دولة النبطيين

القديمة (البطراء) أو (بيرا) كما كانت تسمى فى اليونانية القديمة، حيث ظلوا يقيمون إلى سنة ١١٥ ــ ١١٦ ميلادية عندما وقع عليهم الهجوم الأخير.

وهناك احتمال فى أن يكون يهود «بنى النضير» الذين كانوا يقيمون فى المدينة (يثرب) إلى أن طردهم الرسول ﷺ منها بعد تواطئهم مع قريش اسمهم الأصلى «بنو النذير» نسبة إلى (الندريين) أو الناصريين الذين كانوا يقيمون فى فلسطين قبل ظهور المسيح عليه السلام، ثم لما ظهر آمنوا به على أنه النبى الذى بشرت به التوراة، فلما اضطهدهم اليهود الذين بقوا على يهوديتهم فروا إلى الجزيرة العربية، حيث أقاموا فى يثرب، وجرى تصحيف اسمهم إلى بنى النضير، كما ارتدوا إلى اليهودية واحتفظوا بتراثهم القديم، ومن بينه قصة الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول، وإلا فمن أين لهم العلم بهذه القصة؟ على الرغم من أنه علم مبتور.

ومما يرجح هذا الفرض أنه لا يوجد فى الأبجدية العبرية حرف «الضاد» الذى لا يوجد إلا فى الأبجدية العربية، ومن هنا يمكن تفسير علمهم بما حدث للفتية وسؤالهم الرسول ﷺ، واعتقادهم فى ظهور نبى آخر الزمان، الذى وردت الإشارة إليه فى التوراة، وهو محمد عليه الصلاة والسلام.

ونحن لانتفق مع بعض الباحثين الذين ذهبوا إلى القول بأن لجوء الفتية إلى الكهف كان فى عام ١٣٢ ميلادية، عندما شرع الإمبراطور الرومانى (هدريان) فى بناء هيكل لجوبيتر مكان هيكل سليمان الذى سبق أن دمره تيطس سنة ٧٠ ميلادية، فثار عليه اليهود تحت قيادة (بركوشيبا) الذى ادعى أنه المسيح المنتظر، إذ يبدو أنهم، أى أصحاب هذا الرأى، قد تأثروا بالقصة المسيحية التى جعلت من بين شخوص المعجزة ملكين أحدهما (ديكيوس) الذى قيل إن الفتية هربوا منه إلى الكهف، والثانى (ثيودوسيوس) الذى زعموا أن الفتية استيقظوا فى عهده، فرغبوا فى أن يكون التعديل محدوداً بحيث يقتصر على إحلال ملك محل آخر، وذلك حتى يسدوا الثغرة الواسعة بين المدة التى ذكر القرآن الكريم أن الفتية لبثوها فى الكهف، والمدة التى ذكرت القصة المسيحية أنهم لبثوها، خاصة بعد أن اطمأنوا إلى ماقاله بعض المفسرين من أن القرآن الكريم لم يذكر المدة (ثلاثمائة سنين وازدادو تسعاً) باعتبارها خبراً عن الله تعالى، وإنما باعتبارها خبراً عن اليهود أو المسيحيين. ولما لاحظوه من إصرار المفسرين المسلمين على

القول بأن (سذوس) أى ثيودوسيوس هو الملك الذى استيقظ الفتية فى عهده ، فآثروا أن يجروا تعديلاً على تاريخ لجوء الفتية إلى الكهف ، فينقلوه من عهد (ديكيوس) إلى عهد (هادريان) وبالذات عام ١٣٢ الذى قامت فيه ثورة (باركوشيبا) فإذا أضفنا إليها « ثلاثمائة سنين وتسعاً » التى ذكرها القرآن أصبح التاريخ الذى استيقظوا فيه عام ٤٤١ فى أواخر حكم (ثيودوسيوس) وذلك دون أن يقدموا الدليل على صحة هذا الفرض ، وعلى الرغم مما ذكره بعض المؤرخين المسيحيين ، من أن لجوء الفتية إلى الكهف كان فى عهد (ديكيوس) الوثنى الذى أراد أن يكرههم على عبادة الأوثان وتقديم القرابين لتمثاله !

والذى نرجحه أن لجوء الفتية إلى الكهف إنما كان فى عام ١١٦ ميلادية فى نهاية الثورة التى قام بها اليهود ، وقتلوا فيها غير اليهود ممن اعتنقوا المسيحية ، فما لبث المسيحيون أن هاجوا اليهود وانتقموا منهم بأن قتلوا أعداداً غفيرة ، وهذا الاستدلال يتفق مع سياق القصة القرآنية ، وذلك على الوجه التالى : فعندما قام اليهود بقتل اليهود المرتدين عن اليهودية ، أى المسيحيين ، وتصوروا أنهم قد انتصروا (عام ١١٥) دعوا من كانوا يعتبرونهم مرتدين ومن بينهم الآبيونيون (الزهاد) وهم شيعة أصحاب الكهف إلى عبادة (يهوه) ولكنهم رفضوا ذلك ، وهو ما يصوره القرآن فى قوله : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (٨٠) .

أى أن ربهم رب الناس جميعاً وليس (يهوه) رب اليهود وحدهم ، فلما رد المسيحيون الهجوم واستطاعوا أن ينتصروا على اليهود دعوا الفتية الذين كانوا يعتبرونهم مثلهم ، مسيحيين ، إلى عبادة الثالوث ولكنهم أبوا . وهو ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله على لسان الفتية .

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٨١) .

---

(٨٠) سورة الكهف ، الآية ١٤ .

(٨١) سورة الكهف ، الآية ١٥ .

وقد أغضب رفضهم هذا المسيحيين فأصروا، فى غمرة زهوهم بالنصر الذى أحرزوه على اليهود أن يدعوهم لترك عبادة الله الواحد، ويعبدوا ثالوثهم (الأب والابن والروح) فما كان من الفتية إلا أن تداولوا فى شأن الإجراء الذى يحفظ عليهم دينهم وعبادتهم لله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد، فانتهوا إلى أن لا مفر من الاعتزال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (٨٢).

وهكذا مضوا إلى الكهف الذى طالما اعتزلوا فيه للتأمل والعبادة، حيث ضرب الله على آذانهم فيه سنين عدداً.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (٨٣).

ثم بعثهم سبحانه وتعالى ليعلم أى الحزبين (اليهود والمسيحيين) أحصى للمدة التى لبثوها فى الكهف.

وهكذا تظهر بجلاء الحكمة من ذكر الله تعالى لإله رفض الفتية أولاً أن يعبدوه، ويتركوا عبادة ربهم رب السموات والأرض، ثم ذكره لآلهة من بينها الله تعالى فيرفض الفتية أن يعبدوها أيضاً، ويقررون أن يعتزلوا قومهم هم وما يعبدون إلا الله تعالى، وإلا فما معنى ورود الآيات على هذا النحو؟ وقد سبق أن بينا عدم صحة قول من ذهبوا إلى أن المقصود هم الرومان الذين كانوا يعبدون الأوثان، وشرحنا كيف أنهم لم يكونوا يعبدون الله من تلك الأوثان، وأقمنا الدليل على ذلك.

وكان نظام الآسينيين الذى ورثه عنهم (الزهاد) أو كما يعرفون فى التاريخ بالآبيونيين، يقوم على المؤاخاة بين كل عضوين، وعلى الملكية الجماعية للمال، ووسائل الإنتاج والمساكن والخدمات وكل شىء، وكان مجتمعهم يخلو من النساء، على ما جاء فى هذه الدراسة، وكان تدريب الأخوة، وهم عادة من الشباب الصغير السن، يقوم به الكبار من أعضاء الجماعة الذين كانوا يسمون مرشدين أو

---

(٨٢) سورة الكهف، الآية ١٦.

(٨٣) سورة الكهف، الآية ١١.

رؤساء، ويسمى الواحد منهم فى العبرية «مباقر». فكان كل أخوين يتحركان، معاً، ويعملان معاً، ويتعبدان معاً، تحت إشراف «المباقر» وتوجيهه، فإذا اقتضى الأمر انضمام أخوين إلى أخوين آخرين أو أكثر لم تعد هناك حاجة لوجود أكثر من مرشد واحد، أو كما كانوا يسمونه «مباقر» حتى لا يحدث خلاف بينهم، أو يقع تعارض فى التعليمات والإرشادات، وهكذا فإنه على الرغم من أن الأعضاء الصغار من الشباب كانوا يعيشون معاً اثنين اثنين، فإنهم كانوا عندما ينخرطون فى التدريب، أو فى التعليم، أو فى العبادة والتأمل داخل الجماعة أو خارجها، كان ينضم إليهم ثالث هو المرشد أو المباقر، فإذا انضم شابان إلى شابين آخرين لم تكن هناك حاجة إلى أكثر من مباقر واحد، فيصبح عددهم خمسة، وهذا يفسر لنا لماذا كان الرد عن السؤال الخاص بعدد الفتية دائماً برقم فردى: ثلاثة وخمسة وسبعة، لأن كل شابين كانا معاً مضافاً إليهما المرشد، فإن العدد يصبح ثلاثة، فإذا انضم إليهم شابان آخران أصبحوا خمسة، فإذا انضم شابان آخران أصبح العدد سبعة.

وهكذا ألقت مخطوطات البحر الميت أو كما تسمى أحياناً «مخطوطات خربة قمران» الضوء على اللغز الذى كان قد حير المفسرين المسلمين، وجعلهم يتخيلون أموراً لا نصيب لها من الحقيقة فقد قالوا إن الفتية كانوا من أبناء ملوك الروم، أو من أشرافهم، ولكن ماذا بشأن الرجل الكبير السن الذى قيل إنه كان معهم؟ من هو؟ لقد اختلفت الروايات بشأنه، فمن قائل إنه من الحواريين! ومن قائل إنه رجل صالح كان يعمل خبازاً فى أحد مخابز المدينة، ثم اتهم بقتل أحد أبناء الحكام ففر مع الفتية، وغير هذا وذاك من الروايات التى لا سند لها من الحقيقة، فجاءت مخطوطات البحر الميت لتميط اللثام عن سر هذا الرجل، فإذا به ليس أكثر من أحد أعضاء جماعة الآسينيين الكبار الذين عهد إليهم بالإشراف على أعضاء الجماعة من الشباب وتوجيههم، والذى كانوا يطيعونه ولا يناقشون له أمراً.

وكانت طائفة الأبيونيين تقيم فى منطقة جبلية تكثر بها الذئاب وغيرها من الحيوانات المفترسة، فكان من المنطقى أن تحتفظ بكلاب من النوع الكبير الحجم، القوى الشرس، الذى يقدر على مواجهة مثل هذه الحيوانات، ويحمى الطائفة من هجماتها. وعلى الرغم من بساطة هذه الحقيقة ووضوحها، فإن المفسرين أجهدوا

أنفسهم فى تفسير كيف لحق الكلب بالفتية، وأنه تكلم معهم وتوسل إليهم أن يصحبوه معهم، إلى غير ذلك من الأقوال التى لاضرورة لها، وليس هناك ما يبررها عقلاً ولا منطقاً، كما أنها لا تفيد فى شىء ولا متعلق لها بالقصة، فمن الطبيعى أن يتبع أى كلب أصحابه حيثما ذهبوا، وقد تبع الكلب الفتية أو تبع «المباقر» فالأمر سواء، المهم أنه قد أصابه ما أصاب الفتية فنام مثلما ناموا، ولكنه كان باسطاً ذراعيه على باب الكهف ليبدو كما لو كان مستيقظاً متحفزاً.

وكان المكان قفراً مهجوراً لا يتردد عليه أحد، إلا من كان هارباً لسبب أو لآخر وأمثال هؤلاء يتجنبون الناس حتى لا يتعرفوا عليهم، ثم يبلغوا عنهم من يلاحقونهم، ويتجنبونهم أكثر إذا كانوا جماعة مكونة من سبعة أفراد، لمظنة أن يكونوا عصابة إجرامية فيعتدوا عليهم، فإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما أضفاه الله تعالى على الفتية من منظر مخوف يسبب الرعب لمن يطلع عليهم -عرفنا لماذا بقوا فى كهفهم كل هذا الوقت دون أن يقترب منهم أحد.

وفى هذه الأثناء كانت طائفتهم قد تفرقت وتشتت فى البلاد وازدادت المنطقة التى يوجد فيها الكهف إقفاراً وانقطاعاً عما حولها، إذ لم تكن رؤية الناس لهم وهم فى تلك الحالة مطلوبة ولا مقصودة بأى حال من الأحوال، ومات من كانوا يطاردونهم من يهود ومسيحيين، وزالت دولة الأنباط، وقامت دولة الغساسنة التى اعتنقت المسيحية التثليثية التى انتشرت وسادت، خاصة بعد أن أعلن الملك قسطنطين اعتناقه المسيحية على مذهب «بولس»، فأستقر الأمر بمعتنقيها وشعروا بالأمان والطمأنينة، وانطلقوا فى كل مكان يمرحون ويعبثون، وظهر فيهم من أضاف إلى التثليث إنكار البعث بعد الموت، وكان ذلك على وجه الخصوص فى الشام حيث كان تأثير اليهود الصدوقيين الذين ينكرون البعث واضحاً.

وعندئذ أراد الله سبحانه وتعالى أن تظهر الحكمة الثانية من نوم الفتية فى الكهف كل هذا الوقت، وهى إثبات أن البعث حق وليس خيالاً كما ادعى الذين أنكروه، فاستيقظ الفتية من نومهم الطويل، وبعثوا أحدهم إلى المدينة التى كانت على مقربة من الكهف وهى مدينة «عمان» أو كما كانت تسمى «فيلادلفيا» التى كان يحكمها حاكم مسيحى من الغساسنة، ويقيم فيها مسيحيون من العرب الغساسنة جنباً إلى جنب مع اليهود الذين ظلوا يعيشون على

جانبى نهر الأردن، وكانت غالبيتهم من الطائفة اليهودية التى تنكر البعث وهى طائفة «الصدوقيين» التى أوحت بهذه الفكرة إلى بعض المفسرين ورجال الدين والفلاسفة من المسيحيين التثليثيين، فلما وصل الفتى إلى المدينة وعرف أمره وأمر أصحابه، وانتقل أحبار اليهود والقساوسة المسيحيون إلى الكهف، حيث ناقشوا الفتية ورئيسهم فى أمرهم، فأدركوا مما سمعوه منهم حقيقتهم وأنهم البقية الباقية من تلك الطائفة التى ظنوا أنهم قضوا عليها منذ ثلاثمائة سنة، والتى لم تبرح ذكرى المعارك الدامية غير المتكافئة التى دارت معها ذاكرتهم، فظلوا يرددونها فيما بينهم دون أن يدونوها فى كتبهم؛ لأن ذلك ليس فى صالح الحزبين أى اليهود والنصارى، فاليهود لا يعترفون بالمسيح لا بشراً رسولاً ولا إلهاً وابن إله، ولم يهتموا بتدوين أى حدث يتعلق به أو بمبادئه، والمسيحيون لا يفيدهم أن تنبعث من جديد فكرة الإله الواحد، مدعمة بمعجزة عظيمة كمعجزة أصحاب الكهف.

كذلك فإنه لا هؤلاء ولا أولئك كانوا يعلمون شيئاً عن الوقت الذى أوى فيه الفتية إلى الكهف على سبيل التحديد، وإنما استمعوا إلى ما قاله الفتية عن الظروف التى لجئوا فيها إلى الكهف وضاهوا بينها وبين ما كان لديهم من معلومات تاريخية قليلة، أو بالأحرى مشوهة ومبتورة بشكل مقصود، نظراً لكراهية كلا الحزبين، اليهود والنصارى، لطائفة الفتية. وإن كان هناك عدد قليل من هؤلاء وأولئك يعلمون الحقيقة، ولكنهم لا يصرحون بها إما خوفاً أو طعماً وحرصاً على مكانة، أو سلطة دينية أو دنيوية.

لذلك رأى بعض من حضروا إلى موقع الكهف أن يقام بناء على كهف الفتية بعد أن ماتوا قائلين: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ (٨٤).

ولم يقولوا «ربنا» أعلم بهم؛ لأنهم لا يزالون يعتبرون الفتية صابئين لا يعبدون آلهتهم، وهؤلاء هم النصارى الذين يعبدون الثالوث، والذين سمعوا الفتية يتحدثون عن الله الواحد الأحد، الذى لم يلد ولم يولد.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

---

(٨٤) سورة الكهف، الآية ٢١.

وهؤلاء هم أحبار اليهود الذين كانوا لكثرة عددهم لهم الغلبة ، فمنذ أن هربوا من الرومان إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن ، ومنها إلى الجزيرة العربية ، وهم يمثلون مركزاً للقوى بما جمعوه من أموال وثروات مكنتهم من السيطرة على المجتمعات التى هاجروا إليها ، وهذا ما حدث أيضاً فى الجزيرة حيث حلوا فى المدينة (يثرب) وما حولها ، وأصبحت لهم الغلبة على من كان يقيم فيها من الأعراب ، مستخدمين الثروة تارة ، والكيد والخداع والوقيعة بين القبائل تارة أخرى . وليست العبرة فى الغلبة بالعدد فها نحن نرى فى هذا العصر كيف أن اليهود فى الولايات المتحدة ، ونسبتهم كما هو معروف ضئيلة بالمقارنة مع نسبة بقية السكان من مسيحيين وغيرهم ، يسيطرون على مراكز اتخاذ القرار فى هذه الدولة ، ويوجهونها كيفما يشاءون حتى ولو كان ذلك فى غير صالحها ، وهكذا كان وضعهم يوم استيقظ الفتية. يدل على ذلك أنهم كانوا فى ذلك الوقت يسجدون فى صلاتهم دون غيرهم ، وهم النصارى الذين لا يعرفون السجود فى الصلاة .

وهكذا انتهت المعجزة بإقامة المسجد على الكهف الذى مات فيه الفتية ، ونشك كثيراً فيما يقال من أن البناء الذى اكتشف فوق الكهف هو كنيسة وهو ما ينفيه قولهم «مسجداً» . ولكن خبر المعجزة لم ينته ، بل بدأ ينتشر من المكان الذى وقعت فيه إلى المناطق المجاورة يتناقله الناس ، ولكنه ما لبث أن فقد الكثير من تفاصيله وخطوطه الدقيقة ، كما فقد بعض جاذبيته وما فيه من إثارة ، فمن سمع ليس كمن رأى .

ويبدو أن بعض الرهبان فى الشام كتب القصة بالسريانية وهى ما كان يكتب به أهل الشام ، وذلك بعد زمن من وقوعها ، ثم شاءت الظروف أن يعثر عليها « جيمس الساروجى » من ساروغ فى العراق وكان قسًّا لكنيستها ، فما كان منه إلا أن انتحل الفكرة ثم نسج حولها قصة من صنع خياله ، أدخل فيها على الحادثة ملكاً هرب الفتية منه هو (ديكيوس) وملكاً آخر أُستيقظ الفتية فى عهده هو « ثيودوسيوس » الثانى ، وجعل مسرح المعجزة (أفسوس) مهد التثليث ومعقل الشرك ، وأبطالها فتية من الرومان يعبدون الثالوث ، ومضى يردد القصة وهو يلقى عظاته زاعماً أن المعجزة حدثت منذ خمسين عاماً فى أفسوس ، مطمئنًّا إلى أن أهل ساروغ فى العراق لا علم لهم بما حدث فى أفسوس منذ نصف قرن ، فى حين أن

سكان أفسوس أنفسهم فى مدينتهم لا يعلمون شيئاً عما يدعيه القس المتحمس، فهم لم يسمعوا بهذه المعجزة فى أى وقت، ومفكروهم وعلماؤهم ومؤرخوهم لم يتركوا حدثاً من الأحداث التى وقعت فى مدينتهم، أو فى غيرها من المدن القريبة منها إلا ودونوه، وبخاصة الأحداث ذات الطابع الدينى مثل الصراع بين أقطاب الكنيسة الكاثوليكية ومكائدهم ودسائسهم التى بلغت حد القتل والخطف والاتهام بأبشع التهم، فكيف فاتهم أن يدونوا حدثاً خطيراً كهذا؟ ومع ذلك فقد استهوت الأكذوبة رجل دين آخر هو «جريجورى» أسقف مدينة «تور» فتلقفها ليضيفها إلى تراث الكنيسة من الأكاذيب والافتراءات، ولسان حاله يقول: إنها لن تكون أكبر من أكذوبة أن المسيح ابن الله، ثم ماذا يهم إذا كانت قد حدثت هنا أو هناك، وأن يكون «ثيودوسيوس» قد شاهدها أو لم يشاهدها وبادر «جريجورى» إلى إصدار أوامره بترجمة القصة وإذاعتها فى الناس؛ ليثبت لهم أن التثليث حق، وأن ما يدعو إليه بعض رجال الكنيسة من توحيد الله وإنكار بنوة المسيح له - كذب، وهذا هو الدليل: ألم يشمل (الأب) برحمته أولئك الفتية المؤمنين به أباً ليسوع، فحماهم من (ديكيوس) الوثنى عدو الكنيسة وأهلكه؟ ثم يخص الملك «ثيودوسيوس» المؤمن بالثالوث المدافع عنه ببركته، بأن جعل المعجزة العظيمة تظهر فى عهده، واستجابة من الله تعالى لدعائه أن يظهر آية تعيد إلى الناس الإيمان بالبعث، فشاهد المعجزة تتحقق أمام عينيه! فماذا بعد هذا؟

ولكن الله تعالى يشاء أن يتم الكشف عن الكهف الذى أوى إليه الفتية حقيقة فى المنطقة القريبة من مدينة عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، ومن البحث والفحص يتبين أن ما ورد بشأنه من أوصاف فى القرآن الكريم يتوفر فيه، وبالذات من حيث موقعه من الشمس فى طلوعها وغروبها، ومن حيث وجود المسجد (المعبد) فوقه، الذى يرجع إلى عهد الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس الثانى، الذى وجدت بعض النقود المعدنية التى تحمل نقشاً باسمه، فى حين أنه لم يثبت توفر شىء من هذه الأوصاف فى كهف (أفسوس) الذى زعم «جيمس *الساروجى» أن الفتية أووا إليه*.

وحتى إذا قبلنا ما قد يتعرض به علماء المسيحيين الذين يصرون على القول بأن المعجزة حدثت فى أفسوس، من أن ما ورد بالقرآن الكريم بشأن موقع الكهف من

الشمس فى شروقها وفى غروبها لا يلزمهم ، وأنه ليس حجة عليهم ؛ لأنهم لا يؤمنون به ، فإننا بالإضافة إلى ما سقناه من أدلة وبراهين تدحض ادعاءهم أن المعجزة حدثت فى أفسوس نسألهم : إذا كان ما يقولونه حقاً ، وأن الكهف الموجود فى أفسوس هو الكهف الذى أوى إليه الفتية ، فلماذا لم يبن عليه رجال الكهنوت المسيحيون كنيسة كما كانوا يفعلون مع من كانوا يسمونهم بالشهداء فى تلك الحقبة من الزمن ، وهم جميعاً لا يصلون فى أهميتهم وعظم ما وقع لهم إلى نصف ، بل حتى ربع أهمية فتية الكهف وعظم ما وقع لهم من نوم ، ثم بعث بعد قرنين أو أقل أو أكثر.

وقد عرفنا أنه فى عهد « ثيودوسيوس » على وجه الخصوص صدر مرسوم يبيح إقامة الكنائس على أضرحة شهداء المسيحية ، الذين أطلقوا عليهم وصف القديسين ، بل والأنبياء ، وغالبيتهم العظمى لا علاقة لهم بالقداسة ، ولنقرأ ما كتبه المؤرخ الإنجليزى الشهير (إدوارد جيبون) عنهم وعن أعمالهم التى يقع الكثير منها تحت طائلة القانون ، فقد كان منهم من دس السم لغريمه ومنهم من مارس زنى المحارم ، وغير ذلك من أعمال يندى لها الجبين ، بعكس فتية الكهف الذين ثبتت طهارتهم ، وتحقق صدق إيمانهم بالله الواحد الأحد ، وتأكدت قداستهم بيقين بعد أن أصبحوا موضوعاً لمعجزة عظيمة ، فى حين ثبت وجود المعبد فوق كهف (عمان) ، وسواء أكان هذا المعبد كنيساً أم كان كنيسة مسيحية ، فإن كونه كنيسة لا يطعن فيما توصلنا إليه من أن حادثة الكهف كان أبطالها فتية من شيعة الأبيونيين (الزهاد) فقد يكون الذين غلبوا على أمرهم هم المسيحيين الذين أمروا بإقامة الكنيسة على الكهف اطمئناناً منهم إلى إباحة مرسوم « ثيودوسيوس » لإقامة الكنائس على الأضرحة . ولولا أن أمر هذا المرسوم معروف للمؤرخين ولغيرهم من المهتمين بالتاريخ لربما بادر أنصار الفكرة القائلة بأن الكهف مكانه (أفسوس) إلى الطعن فيما استدل به مكتشفو الكهف قرب (عمان) من أنه كهف الفتية ، استناداً إلى وجود المعبد فوقه ، وهذا دليل من بين عدد آخر من الأدلة التى ساقها القرآن الكريم ، فضلاً عن أنه يدل على أن القرآن هو من عند الله ، وليس من وضع محمد ﷺ كما يزعمون ، وإلا فمن أين له العلم بأن ثيودوسيوس كان يبيح إقامة الكنائس على القبور ، وبالذات قبور الصالحين والأولياء .

وهكذا نجد أن ما كشفت عنه لفائف البحر الميت الخاصة بطائفة الآسينيين التى انبثقت عنها شيعة الأبيونيين (الزهاد) قد أسهم مساهمة عظيمة فى كشف غموض قصة الكهف، وبالذات فيما يتعلق بعدد الفتية والجزبين والإله ثم الآلهة، كما أسهمت كتب التاريخ الغربية التى تناولت الحقب القديمة، سواء منها ما كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام أو ما كان منها بعد ميلاده فى جلاء جانب آخر من الغموض الذى اكتنف تفاصيل المعجزة، التى أوردها القرآن الكريم موجزة أشد الإيجاز، ولكنه ضمنها بيانات غاية فى الأهمية، تكفى إذا ما فسرت فى ضوء الوقائع التاريخية لتحديد أين وقعت المعجزة، ومن هم أبطالها، وغير ذلك مما ورد فى سياق القصة. ولقد علمنا مما نشر عن الوثائق التى خلفها الآسينيون، أنه كان بينها نسخة من العهد القديم (التوراة) كانوا لا يعترفون بغيرها مما زوره اليهود، فلماذا لم تنشر هذه النسخة ليعرف العالم كله والمسلمون بخاصة، ما يوجد من أوجه اختلاف بين هذه النسخة وبين النسخ المتداولة وبالذات فيما يتعلق بما ذكره القرآن من أن البشارة بمحمد ﷺ وردت فى التوراة وفى الإنجيل أيضاً، وهو ما نرجح وجوده فى النسخة التى تم العثور عليها، أولاً بواسطة أحد الرعاة من الأعراب الذى باعها لرجل مسيحى، باعها بدوره لليهود الذين سارعوا إلى شراء بقية اللفائف ثم أودعوها الجامعة العبرية، ولم يطلعوا عليها إلا عدداً قليلاً من الباحثين، الذين تواطئوا مع اليهود فلم يخبرونا عن كل ما فى اللفائف من أسرار، واقتصروا على القول إنها تتضمن ما أسموه تحريفاً لما جاء فى التوراة والإنجيل فى نسخهما التى يصفونها بأنها معتمدة، ولا ندرى ما هى أدلتهم فى اتهام نسخة التوراة الآسينية بالتحريف؟ ولماذا لا تنشر إسرائيل هذه النسخة كاملة، خاصة وأنها ليست ملكها أصلاً، وإنما هى مسروقة من العرب أصحابها الأصليين، لكى نرى ماذا فيها. كذلك فإنهم لم يقولوا لنا ما إذا كانت هذه النسخة قد تضمنت ما ذكره القرآن عن بشارة التوراة بالنبى العربى، وأعتقد أنها لو كانت قد خلت من هذا الأمر لبادروا إلى إذاعته ولما التزموا الصمت كما فعلوا. وإنه لأمر يؤسف له حقاً أن نفقد بهذه البساطة الشديدة هذه الوثائق الخطيرة، ولا نحتفظ إلا بشذرات لا أهمية لها، نضعها فى متحف دون أن نحاول الاستفادة منها، وليس من شك فى أن اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية فى مؤامرة الاستيلاء على وثائق «قمران» يدل بوضوح على أن هذه الدولة التى تزعم أنها تشجع البحث العلمى، وتأتى إلينا لكى

تمنحنا حفنة من الدولارات لننفقها على بحوث تتناول موضوعات بعينها ، إنما تهدف فى الواقع إلى الحصول على أدق المعلومات عنا لكى تقدمها إلى إسرائيل ، كما قدمت إليها وثائق قمران وغيرها ، فهى تجاربنا فى ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ؛ ولذلك فإنه يجب علينا أن ننتبه إلى المؤامرة التى تحيك خيوطها إسرائيل والغرب لضربنا فى الصميم ، وها نحن قد عرفنا أن التاريخ ليس فى صف هؤلاء الناس ، بل هو فى صف الحقيقة كما وردت فى قرآننا الكريم .

وبالله التوفيق ،،،،

أول صفر عام ١٤١٠ هـ.
أول سبتمبر عام ١٩٨٩ م .


http://kotob.has.it

ثبت المراجـــع

أولاً: المراجع العربية

١ ــ الكتب:

١ ــ القرآن الكريم .
٢ ــ الكتاب المقدس (العهدان : القديم والجديد) .
٣ ــ تفسير ابن جرير الطبرى .
٤ ــ تفسير الثعالبى .
٥ ــ تفسير الكشاف .
٦ ــ تفسير النسفى .
٧ ــ تفسير ابن كثير.
٨ ــ تفسير الخازن .
٩ ــ تفسير ابن الخطيب .
١٠- تفسير الدر المنثور للسيوطى .
١١- تفسير الجلالين .
١٢- المنتخب فى تفسير القرآن الكريم .
١٣- المصحف المفسر (محمد فريد وجدى) .
١٤- فى ظلال القرآن .
١٥- صحيح البخارى .
١٦- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر الهيثمى .
١٧- صحيح مسلم .
١٨- شرح صحيح مسلم للنووى .

١٩- سنن الدارمى .

٢٠- إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالى ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٧ .

٢١- الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ، الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٧٥ .

٢٢- الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير، الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ، سلسلة البحوث الإسلامية ، مجمع البحوث الإسلامية ، السنة الرابعة عشرة ـــ الكتاب الرابع ، القاهرة ١٩٨٤ .

٢٣- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، الجزء الثانى ، إدوارد جيبون ، نقله إلى العربية لويس إسكندر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦ .

٢٤- الإعجاز البيانى للقرآن ، الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف بمصر، ١٩٧١ .

٢٥- اكتشاف أهل الكهف ، وفيق وفا الدجانى ، مؤسسة المعارف بيروت ، ١٩٦٤ .

٢٦- أهل الكهف ، محمد تيسير ظبيان ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٨ .

٢٧- تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، نقله إلى العربية الدكتور عبدالحليم النجار الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .

٢٨- التاريخ الجغرافى للقرآن ، سيد مظفر نادفى ، ترجمة عبدالشافى غنيم عبدالقادر، سلسلة الألف كتاب رقم ٦٧ ، الناشر لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٦ .

٢٩- تاريخ الخلفاء ، السيوطى ، القاهرة ١٩٥٢ .

٣٠- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، فيليب حتى ، ترجمة جورج حداد وعبدالعظيم رانق ، دار الثقافة ـــ بيروت ١٩٥٨ .

٣١- تاريخ المسيحية ، (مصادر الوحى الإنجيلى) المجلد الثانى من سلسلة دراسات إنجيلية ، يوسف درة الحداد ، بدون تاريخ ولا مكان نشر ولا ناشر.

٣٢- تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى بلاد الشام قبل العروبة الصريحة محمد عزة دروزه، منشورات المكتبة العصرية بيروت ـ صيدا، بدون تاريخ.
٣٣- التصوير الفنى للقرآن،سيد قطب، الطبعة السادسة، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨٠.
٣٤- تفسير سورتى الكهف ومريم، أبوالأعلى المودودى، ترجمة أحمد إدريس.
٣٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، مطبعة المدنى، المؤسسة السعودية، القاهرة ١٩٦٤.
٣٦- الحضارات السامية القديمة، سبينو موسكاتى، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، سلسلة روائع الفكر الإنسانى، القاهرة.
٣٧- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، آدم ميتز، الجزء الثانى، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبو ريدة، دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٦٧.
٣٨- حقائق ثابتة فى الإسلام، محمد محمد عبداللطيف (ابن الخطيب) مطبعة الأفق طهران ١٩٧٤.
٣٩- حياة المسيح، عبادس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة.
٤٠- السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٦٣.
٤١- السيرة النبوية، ابن هشام، مصطفى البابى الحلبى، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٥.
٤٢- سيكولوجية القصة فى القرآن، دكتور التهامى نفرة، رسالة دكتوراه، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧١.
٤٣- العالم العربى اليوم، مورو بيرجر، ترجمة محيى الدين محمد، دار مجلة الشعر، بيروت ١٩٦٣.
٤٤- العرب قبل الإسلام، جورجى زيدان، دار الهلال بالقاهرة.
٤٥- العقيدة والشريعة فى الإسلام، جولد تسيهر، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى، وآخرين، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٥٩.

٤٦- فتوح الشام، الواقدى.
٤٧- فجر الإسلام، أحمد أمين، الطبعة الثانية عشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٤.
٤٨- القاموس العصرى، أحمد عطية الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣.
٤٩- القرآن والقصة الحديثة، محمد كامل حسين، دار البحوث العلمية، بيروت ١٩٧٠.
٥٠- قصة الحضارة، ول ديورانت، الجزء الثالث المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٢.
٥١- قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، عيسى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٧٩.
٥٢- القصص القرآنى، تفسير اجتماعى، دكتور راشد البراوى، سلسلة القرآن والفكر الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨.
٥٣- قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دار الجيل، بيروت ١٩٧٨.
٥٤- القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الثانية، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٥.
٥٥- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، الطبعة الثانية، العالمية للتوزيع، القاهرة.
٥٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٥٧- مروج الذهب، المسعودى، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٥.
٥٨- المسيحية فى نشأتها وتطورها، شارل جينيبير، ترجمة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت.
٥٩- المعجزة الكبرى: القرآن، الشيخ محمد أبو زهرة، دار النهضة العربية، القاهرة.
٦٠- معجم البلدان، ياقوت الحموى، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٧٩.

٦١- المقدمة ، ابن خلدون ، طبعة الشعب ، القاهرة .
٦٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أحمد بن على المقريزى ، دار صادر، بيروت .
٦٣- موسوعة تاريخ العالم ، وليم لانجر، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
٦٤- الموضوعات فى الآثار والأخبار، هاشم معروف الحسينى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٧٣ .
٦٥- نقد العلم والعلماء (أو تلبيس إبليس) ، ابن الجوزى ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة .
٦٦- التوراة السامرية ، نشرها وعرف بها الدكتور أحمد حجازى السقا ، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨ .
٦٧- دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، موريس بوكاى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

ب ـ دوائر المعارف :

٦٨- دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٩ .
٦٩- الموسوعة العربية الميسرة ، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ١٩٦٥ .

ج ـ المجلات :

٧٠- مجلة ديوجين ، مصباح الفكر (اليونسكو) العدد ١٨ ، السنة السادسة ، ١٩٧٢ .

ثانياً : المراجـع الأجنبية

God in History, or Progress of Man s Faith in the Moral order of the world. By C.C.J. Baron Bunsen. Translated from the germany by susanna winkorth. Vol. 3, London, Longmans green and Co. 1870.

A History of Christianity, Paul Johnson, Atheneum, New Youk, 1983.

The Encyclopedia Americana international Edition, Crolier incorp. 1980.

The Dead Sea Scrolls, Areappraisal John Allegro Penguin Books, 1984.

محتويات الكتاب

الفصل الرابع

الفصل الخامس

المراجـع

هذا الكتاب

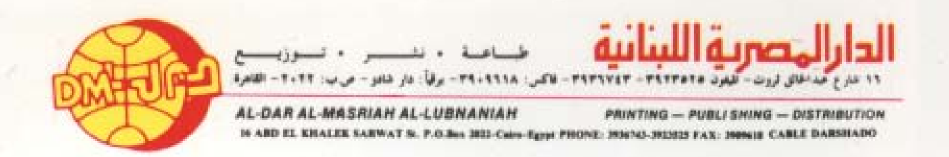
بحث قيِّم ومستنير تناول قصة «أهل الكهف» كما وردت فى كل من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.. بذل فيه الباحث الأستاذ الدكتور أحمد على المجدوب جهداً ملموساً فى تجميع وحصر النصوص وشرحها والتعليق عليها ومقارنتها مقارنة علمية جادة وغير متحيزة.

وبقدر كبير من التمكن أحاط المؤلف بعناصر موضوعه، فعرضها بيُسر لايخلو من الدقة وإيجاز لا يترك صغيرة ولا كبيرة من تلك العناصر دون أن يحصيها ويلقى ضوء العلم عليها..

تناول المؤلف: الاسرائيليات والنصرانيات وكيف تسللت إلى شروح وتفاسير قصص القرآن الكريم.. وقصة أصحاب الكهف كما وردت فى المصادر اليهودية والمصادر المسيحية متمثلة فى قصة «النيام السبعة» وتحليل هذه القصة من ناحية الأشخاص والزمان والمكان والوقائع والحوادث.

ويركز المؤلف بطبيعة الحال على كل ما ورد عن قصة أهل الكهف فى المصادر الإسلامية وتفسير هذه القصة فى ضوء المعلومات التاريخية والمكتشفات الأثرية.. كما قدم دراسة عن الأهمية الحقيقية لمعجزة أهل الكهف.. وموقع الكهف.. ومن هم قوم أصحاب الكهف.. والاختلاف فى عدد الفتية والحكمة الإلهية فى بعثهم.

الناشر


الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH
PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION